الألف كتاب الثاني

٢٢١

التاريخ وكيف يفسرونه

من كنفوشيوس إلى توينبي

الجزء الأول

تأليف : آلبان .ج. ويد جرى

ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويد

التاريخ .. وكيف يفسرونه

من كونفوشيوس إلى توينبي

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

لمياء محرم

التاريخ.. وكيف يفسرونه

من كونفوشيوس إلى توينبى

تأليف
آلبان . ج . ويدجرى

ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد

الجزء الأول

الطبعة الثانية

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتـــاب :

THE INTERPRETATIONS OF HISTORY

by Allan G. Widgery

الفهـــــرس

التعريف بالمؤلف

هو ألبان جريجورى ويدجرى ، ماجستير فى الآداب من جامعة كمبريدج • وأستاذ بجامعة ديوك بالولايات المتحدة الأمريكية • ولد فى ٩ مايو سنة ١٨٨٧ ، وتعلم فى كلية سانت كاترين بكمبريدج • ثم عين مدرسا محاضرا بجامعة بريستول ، ثم مساعدا لأستاذ الفلسفة الأخلاقية بجامعة سان اندروز ، ثم أستاذا للفلسفة والدين المقارن بجامعة بارودا بالهند [١٩١٥ ـ ١٩٢٢] ، فمحاضرا لفلسفة الأديان بجامعة كمبريدج [١٩٢٢ ـ ١٩٢٨] فأستاذا بجامعة كورنيل [١٩٢٩ ـ ١٩٣٠] •

وتولى رئاسة تحرير مجلة « الفلسفة الهندية » ومجلة « علم الاجتماع » الهندية • وهو الذى أنشأ الندوة العلمية للدراسة المقارنة للأديان فى جامعة بارودا [١٩١٦] ، وأصبح رئيسا لمجلس جامعة بارودا [١٩٢٦ ـ ١٩٢٨] ، ثم عين محاضرا بجامعة أكسفورد [١٩٣٧] • وشغل عدة مناصب جامعية أخرى •

وتولى رئاسة الجمعية اللاهوتية الأمريكية [١٩٢٩ ـ ١٩٤٠] •

أعماله : ترجم كتاب « أساس الحياة ومثالها » ، لمؤلفه ر• بوكان ، وكتب مقدمته ، كما ترجم أيضا كتاب « الطبيعية أم المثالية ؟ » وألف بالاشتراك مع وانيل كتاب « يسوع فى القرن التاسع عشر وما بعده » • كما ألف :

١ ـ « الحاجات البشرية ومبررات المعتقدات الدينية » ٠

٢ ـ « اللا أخلاقية ومقالات أخرى » ٠

٣ ـ « الدراسة المقارنة للأديان » ٠

٤ ـ « معالم فلسفة الحياة » ٠

٥ ـ « الفكر المعاصر لبريطانيا العظمى » ٠

٦ ـ « الأديان الحية والفكر المعاصر » ، [١٩٣٦] ٠

٧ ـ « الأخلاقيات المسيحية فى التاريخ والحياة المعاصرة » ٠ [١٩٤٠] ٠

٨ ـ « ما هو الدين ؟ » ، [١٩٥٣] ٠

٩ ـ « التاريخ وكيف يفسرونه » ، [من كنفوشيوس الى توينبى] ٠

١٠ ـ « المذاهب الكبرى فى التاريخ » ، [١٩٦٥] ٠

١١ ـ « حج فيلسوف » ، [١٩٦١] ٠

١٢ ـ « المعانى فى التاريخ » ٠

التعريف بالمترجم

ولد بالقاهرة وتخرج فى المعلمين العليا الادبية (١٩٢٩) ، واشتغل بالتدريس حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية (١٩٥١) • فمديرا للمركز الرئيسى للتدريب بوزارة التربية والتعليم (١٩٦٣)• وشغف بالثقافة وآداب العربية والانجليزية والفرنسية منذ حداثته •

انضم لعضوية لجنة التأليف والترجمة والنشر ، حائز على جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة عام ١٩٨١ ، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى •

واهتم بالترجمة بنوع خاص فنقل الى العربية ما يلى من كتب :

١ ــ فى التاريخ : «معالم تاريخ الانسانية» Outline of History الكبير ، أربعة أجزاء (وصنوه الأصغر) « موجز تاريخ العالم » (هـ • ج • ولز) •

٢ ــ فى تاريخ الحضارات :

(أ) « حضارة الاسلام » ــ جرونيباوم •

(ب) « الحضارة البيزنطية » ــ رنسيمان •

(ج) « الحضارة الهلينستية » ــ تارن •

(د) « ميلاد العصور الوسطى » ــ موص •

(هـ) « اضمحلال العصور الوسطى » ــ هويزنجا •

ونال عليه جائزة الدولة ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى •

٣ ـ فى علم النفس والتربية :

(أ) « مدخل الى علم النفس الحديث » ـ زانجويل .

(ب) ثلاثية آرنولد جزل فى تربية الأطفال وسيكولوجيتهم (الحضين والطفل ـ الطفل من الخامسة الى العاشرة ـ الشباب)

٤ ـ كتب فى السياسة والثقافة :

(أ) « آسيا والسيطرة الغربيـة » ـ السردار بانيكار الهندى .

(ب) « حول منع الحرب » ـ جون استراتشى .

(ج) « اعلام وأفكار » للمؤرخ الهولندى هويزنجا .

(د) التاريخ وكيف يفسرونه ـ ألبان ويدجرى .

٥ ـ مجموعة أخرى من الكتب منها كتاب مونرو « التطـور فى الفنون » (مع آخرين) .

الخ ..... الخ ...

كلمة المترجم

كلما استمعنا الى كلمة « تاريخ » وتدبرناها أخذتنا الحيرة في شأنها فهل هي عربية الأصل أم ليست عربية فهى من الكلمات التي يثور حولها خلاف . والتاريخ لغة الاعلام بالوقت .

وتقول بعض المصادر انه ليس عربيا محضا ، بل هو معرب مأخوذ من ماهى روز بالفارسية ، على أن من المعلوم أن كلمة « تاريخ » وردت لأول مرة في العربية مع أخبار ادخال التقويم الهجرى فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

ويلحظ الأستاذ روزنتال المستشرق الشهير أن كلمة « تاريخ » لا تظهر فى الأدب الجاهلى ، كما أنها غير مذكورة فى القرآن الكريم ولا فى الأحاديث النبوية الشريفة ، وهو يرجح أن أصوله مستمدة من الكلمة السامية ، التى تعنى القمر أو الشهر وهى فى الأكدية « ارخو » وفى العبرية « يرخ » .

ويمكن الافتراض أن هذه الكلمة مشتقة من القمر أو الشهر وبذلك تكون الترجمة الحرفية لكلمة تاريخ هى التوقيت حسب القمر . وانتقال المعنى من التوقيت بالقمر الى التاريخ أو الحقبة نتيجة طبيعية .

على أن هناك فى اليونانية (Arché) أرخى بمعنى بداية أو حكم وأرخايوس (Archaios) بمعنى قديم . والتاريخ كما هو معلوم ذكر لقديم الأحداث والأخبار وبداياتها ، أو حكم الملوك والكهنة فهل هناك علاقة بين فعل « أرخ » فى العربية

وبين تلك الألفاظ اليونانية ، لعلها شأن كثير من كلمات اليونانية مما انتقل الى لغة العرب بحكم التعامل وانتقال الثقافات • وعلاقة العرب بالروم قديمة معروفة •

بدأ الانسان التأريخ منذ تعلم الكتابة ، بل لعل أعظم دافع له على استحداث الكتابة تدوين ذكرياته عن نفسه وتسجيل خواطره فى الكون والعالم •

وقبض رجل الدين على القلم والقرطاس واستأثر بهما وآخذ يدون بهما لنفسه عن نفسه ولم يلبث أن دافعه الملك ملاحقا، أو ربما ازدلف الكاهن الى الملك متملقا واذا به يتحول الى مترجم للملك سارد لأعماله مشيد بمنجزاته ومآثره ، او مزيف لتلك المآثر بالمدح ان كان الملك قويا مرهوب الجانب ، والقدح ان كان ضعيفا ، أو كان ناصب الكاهن العداء فى بؤرة سلطانه أو مصدر رزقه وقوته •

فالتاريخ بدأ تدوينا لحوادث وأخبار مفردة ، أوترجمة لعظيم ، أو تخليدا لمآثر ملك • ومن ثم فالتاريخ من أهم الميادين الفكرية التى اهتم بها الانسان • فكما فكر الانسان فى الكون المحيط به ، كيف خلق ؟ ولماذا خلق ؟ ومن خالقه ؟ وكيف تطلع الشمس ؟ وما هذه المنازل التى يدرج فيها القمر والنجوم ، فكر فى الله وفى الخلود ، ودون ذلك كله مقترنا بما دون عن حاضره وأعماله ومنجزاته ، ثم تحول الأمر الى كتابة التاريخ فى صورة يوميات ثم حوليات • فأنت تقرأ هذا النوع من التدوين التاريخى فاذا بك تعايش الأحداث يوما بعد يوم وشهرا أو سنة فى اثر شهر وسنة • ومع ذلك فالمدار كله شخص الملك ، أو بطولة البطل • وكان للعرب الفضل كل الفضل فى هذا النوع من أنواع التاريخ الذى قصد به مؤرخوهم تثقيف العامة ، وعرض العظات والعبر على أبصارهم • ولا يخفى أن التدوين التاريخى شىء والتأليف التاريخى شىء آخر مختلف تماما • فالأول مجرد

نقل الأحداث والأخبار من الذاكرة الى البردى أو صفائح الحجر أو ألواح الطين ، والتأني سرد للأحداث وتبويب لها وتفسير لطبيعتها وتسلسلاتها وأسبابها ٠

فالأول مادة التاريخ والثاني هو التاريخ والتأريخ ٠ وفي مدارج بلوغ هذه النظرة الحديثة ألمت بالتاريخ وأساليب المؤرخين في معالجته تقلبات واتجاهات عديدة ٠

فمن المؤرخين من ركز إهتمامه على الحوادث والأخبار ، ومنهم من قال بأن التاريخ ليس فقط أخبارا ترتبط بالكاهن والملك ، وانما هو ثبت لاعمال الناس ، الشعب الذى يملأ المدينة ويعمر الريف ، ماذا كان يعمل ؟ وكيف كان يفكر ؟ فذلك هو المؤرخ الاجتماعي ٠ ومنهم من زعم أن الشعب بلا اقتصاد عبث باطل ومن ثم ركز اهتمامه على الناحية الاقتصادية ٠ ودارت الأيام دورتها ، وتتابعت النظريات والآراء في التاريخ وفلسفاته الى أن جاء القرن التاسع عشر ٠ وجاء ٠ « دارون » فانقلبت عقول المؤرخين رأسا على عقب ٠

لقد ظهرت بدعة جديدة في دراسة العلوم ، صحبتها فكرة في دراسة التاريخ ، اذ ظهرت في دراسة العلوم نظرية التطور والنشوء والارتقاء وظهرت في دراسة التاريخ قبل ذلك بقرون الفكرة الذاهبة الى أن التاريخ علم ، ومادام التاريخ علما ككل العلوم ، فلماذا لا تنطبق عليه هو الآخر فكرة التطور التي طبقت على علم الأحياء من نبات وحيوان وقلبت نظرياته تماما ٠ وهنا ظهر ما يسمى التطور في التاريخ ، أو التاريخ التطورى ٠

على أنه لا يفوتنا أن نشير الى أن جميع فلاسفة أوربا في القرنين الثامن والتاسع عشر لم يهملوا التاريخ قط ، بل أدخلوه بين المواضيع التي أعملوا فيها رأيهم ٠ وكان لكل منهم وجهته ومنهاجه ٠ فكوندورسيه على سبيل المثال له

وجهته ، ونيتشه ، وهيجل لهما وجهتا نظرهما في هذا التاريخ • أصله ومحتوياته وكيف كان ، وكيف يجب أن يكون ، وما الآراء التى أخطأت البشرية حين اعتنقتها ؟ ، وما الآراء التي ينبغي للناس أن يعتنقوها حتى يخلصوا تاريخهم من عيوب الماضي • وتتحول أيامهم ــ فيما يرى الفيلسوف ــ الى سعادة وحبور؟ •

على أن اصدار الأحكام على الدنيا وتاريخها لم يكن قاصرا على الأوربيين وحدهم ، لأن الانسان منذ استقر على عرش العقل وأخذ يعي نفسه ، لم يفتأ يفعل ، ذلك •

ومن ثم ، فان لكل أمة نصيبها في هذا المضمار تقيمه على ما إتخذته من آراء ، وما اعتنقته من مبادىء ، وما رأته مثلا عليا ينبغي أن يعمل عليها الفرد والمجموع جهد وسعهم ، ليصلوا الى ما يشتهون من سعادة ويبلغوا ما يريدونه من راحة بال •

وكان مما لا يكاد يجوز الخوض في مناقشاته ان كتابة التاريخ ، كما أسلفنا لا يمكن أن تقتصر على مجرد الحوادث ، وانما ينبغي أن يجتمع الى ذلك عملية أخرى عقلية ، وتفسيرية ، عملية لا يقف فيها المؤلف عند مجرد الخبر والسرد بل يضم الى الخبر رأيه فيما يورده من معلومات • فان تعمق الرأى تحول الى فلسفة للتاريخ تخرج به عن التاريخ نفسه ، الى أية فكرة جديدة يستشفها المؤرخ وقد يستطيع اذ يستخلصها من الماضي أن يعود فيطبقها على الحاضر • ثم اذا هو بعد الاستقراء والكد في استنتاجها ، يستطيع أن يستفيد منها ويستشف بواسطتها الأحداث التى ستأتي بها الأيام ، كأنما هو يقرأ نقلا عن الماضي في كتاب المستقبل • وتساءل العلماء : هل الأفضل أن يكون لديهم فيلسوف أوتى قسطا معقولا من التاريخ أم يكون لديهم مؤرخ أوتى قسطا من الفلسفة ؟

الحق ان التاريخ هو وعاء الخبرة البشرية ، هو العلم الخاص بالجهود البشرية ، أو هو المحاولة التي تستهدف الاجابة على الأسئلة التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي ، وتستشف منها جهود المستقبل . ولا شك أن التاريخ بهذا المعنى يتحول الى علم له أصوله ، فما دام الانسان يعمل فكره في تلك الخبرات البشرية ويصدر فيها أحكامه تشكل له منها علم . ان العلم هو الكشف عن طبيعة الأشياء ثم تصنيفها وتبويبها واصدار الأحكام عليها . ولابد للتاريخ من وثائق يعتمد عليها المؤرخ في اصدار أحكامه ، والوثيقة هي الشيء الموجود في زمان ومكان معينين . فكأن المؤرخ حين يجمع الوثائق ويشكل التاريخ ويفسره ، يسلم بأن هدف التاريخ هو معرفة الانسان بنفسه وتلك غاية لها أهميتها . فقيمة التاريخ ترجع الى أنه يحيطنا علما بأعمال الانسان في الماضي . ومن البدهيات التي لا تحتاج الى افاضة أن طريقة التاريخ تقوم على البحث في الوثائق التاريخية ، واستخلاص أحكام عامة من مجموعها ، تتعلق بحياة الكائنات البشرية التي خلقت تلك الوثائق .



ان كل انسان حين يقرأ عنوان هذا الكتاب يدور بخلده سؤال هو : ما هو التاريخ ؟ ومن أولئك الذين يفسرونه ؟ ولماذا يتعبون أنفسهم بتفسيره ؟ ولكن المؤلف أجاب عن تلك الأسئلة جميعا بما يريح القارىء ويجيب له عنها وعن كل سؤال آخر يخطر بباله . فانه أخذ منذ البداية يستعرض الشعوب التي لها وزن في تاريخ البشرية ، الشعوب التي تركت في هذا الكون أثرا مخلدا بالاضافات التي أضافتها الى التراث العقلي أو الفكري أو الفني أو الحضاري أو الثقافي . لقد استعرضها جميعا شعبا شعبا وتوسع في شرح فلسفاتها التماسا لالتقاط اتجاه تلك الفلسفات من مدار

يحث الكتاب . وهو التاريخ . فهــو يتنــاول الأمة من هؤلاء بالتنقيب في طوايا فكرها ، ومدى ارتباط ذلك الفكر بالدنيا والحياة ، ثم اتصاله بسيرة الانسان في الأرض وجهوده المتصلة لرفع شأنه اقتصاديا وعلميا وفكريا ، ومدى ارتباط ماضي الأمم بحاضرها ، وحاضرها بمستقبلها . وذلك هو التاريخ بأدق معاني الكلمة .

وقد فعل ذلك مع الصين والهنــد واليابان ، والاغريق والرومان ، ثم نظر في الديانات التأليهيــة ، شــارحا بعض آرائها موضحا ارتباط تلك الآراء بالتاريخ .

ثم انتقل الى فلسفات التاريخ منذ العصور الى يومنا هذا فأوضح آراءها ومناهجها كمحاولة لوضــع تفســير عقــلانى للأحداث التاريخية . وألم بكتب التــاريخ العام التى يعــد كتاب كتاب ويلز [معــالم تاريخ الانسانية (Outline of History) من أبرز ما ظهر فيها ، فأوضح شرعتها ومزاياها وعيوبهــا وعكف طويلا على دراسة ويلز وآرائه . وتوسع بعد ذلك فى شرح المدرسة الألمانية والفرنسية فى فلسفة التــاريخ ، حتى انتهى به المطاف الى توينبى ومدرسته فأوضح أن نظريته فى دورية الحضارة وايقاعيتها كما تتجلى فى كتابيه دراســة التــاريخ ومختصره انما هى عمــل عظيم عميق فى تطــور الحضارات، وهى تنم عن تضلع علمي وألمعية فى معالجة المسائل التاريخية قديمها وحديثها . ولعظم قدر توينبى ونظريتــه التى تعد أحدث النظريات فى فلسفة التاريخ أفرد له المؤلف بابا مستقلا ، فتوينبى يعتقد أن الحضارة ايقــاع والفــكرة السائدة عنــده أن الحــرب هي الســبب الرئيسى فى انهيار الحضارات والمجتمعات ، وأن مصير المعتدى الفناء .

فالكتاب بعبارة موجزة ، تأريخ للتاريخ ، وشرح لموقف الانسان منه منــذ أقدم العصــور . فأرجو أن يتزكى به كل محب للبشرية والتاريخ .

عبد العزيز توفيق جاويد

تمهيد للاصدارة الجديدة

تحاول هيئة الكتاب مشكورة ان توجد عهدا جديدا للتنوير، يشبه الذى انفجر فى الشطر الأول من القرن العشرين على يد عظمائنا الأفذاذ من المفكرين والكتاب والمسرحيين والفنانين والصحفيين والجامعيين • ويسعدنى ان وقع اختيارهم على هذا السفر التاريخى الفريد « التاريخ وكيف يفسرونه » الذى دبجه الأستاذ ألبان ويدجرى وهو أستاذ متخصص متبحر ، ألقى نظرة متعمقة على تاريخ البشرية ككل فوجده مصدرا للالهام ، يكشف لنا ما قد يحدث فى المستقبل القريب والبعيد • فالتاريخ عنده هو المعلم والملهم وهو أحيانا السديم الذى تتخلله ومضات نور ما تلبث أن تخبو ويعود السديم بكل وطأته •

وهو ، أى التاريخ ، هو العلم الذى يضم ويشمل أخبار القدماء وكل الوثائق التاريخية التى تسجل وتفلسف الحدث وما ترتب عليه من أحداث أخرى وردود أفعال الناس ازاءه ، وتتخذ منه رائدا ومنهاجا •

والكتاب كما هو واضح يعالج طرق الناس وتفكيرهم وتأثرهم على اختلاف أجيالهم وأجناسهم وشعوبهم، ومعتقداتهم لما يمر بهم من أحداث وظروف هنا نجد النظريات والآراء والفلسفات من كل عند حالتيه من علو وانخفاض ويسرنى الآن أن أخلى بين القارىء وبين هذا السفر النفيس •

عبد العزيز توفيق جاويد

مصر الجديدة فى أبريل ١٩٩٥

تمهيـــد

ما طبيعة التاريخ البشرى ؟ وما المعنى أو المعانى التى له ، ان كانت له معان .

لقد شغلنى التأمل فى هذين السؤالين شطرا كبيرا من عمر طويل . وما أكثر الاجابات التى قدمت عنهما على كر التاريخ ! . ومنهـا ما تضمنته الديانات الـكبرى ومختلف أشكال الحضارات ، وكان ولا يزال قائما عند دائرة متسعة من الناس ، ومنها ما اعتنقته جماعات خاصة أو مفـكرون أفراد ، وبخاصة فى بلاد الغرب . وانى لأقدم فى هذا الكتاب بيانا بأهم هذه التفسيرات لتـكون مثالا يوضـح بعض تلك الاجابات الممكنة . ولم أتجه فى شرحى للموضوع الى أى شىء من النقد الا ما جاء عفوا وبطريق الصدفة . وانى لأرجـو أن تتيح لى الأيام فيما بعد كتابا آخر أقدم فيـه ما قمت أنا باستخلاصه من نتائج حول تلك التفسيرات .

ومهما يكن ما فى هذا الكتاب أو وراءه من ألمعية ، فانى لم أقصد ابتداءِ تقديمه للعلماء ، وان جاز أن يجد بعضهم شيئا من الفائدة فى أن يجتمع لهم ما جمعته فيه . والواقع أن الأسئلة تهم الناس جميعا ، كما أن اللبيب الذكى هو الذى يتوقع منه الاهتمام بالاجابات المقترحة هنا فعـلا . وربما استطاع الناشئون من المؤرخين والفلاسفة أن يفيدوا الشىء الكثير من هذا البيان . وفيما عدا حالة استثناء واحدة ، لم نلجأ الى تقـديم مراجع تفصيلية للكتـاب ، ذلك أنهـا ربما شتتت أفكار القـارىء أو قطعت عليـه سـياقها . والحـالة

الاستثنائية الوحيدة هي كتاب أرنولد ج· توينبي المعنون « دراسة التاريخ »(The Study of History) والذى أوردناه لرحابة مجاله المكون من عشرة مجلدات · فمن شاء غير ذلك من المراجع ، فلن تحول صعوبة دون وصوله اليها · وهناك عدد قليل من الأعمال الحديثة تدور حول الموضوع لم نتناولها بالوصف ، اما لأنها معروفة مشهورة ، واما لأنى غير مقتنع بأهميتها ·

ومهما يكن ما يحيط بالكتاب من تحديدات ، فان مجاله لا يزال بعد ذلك فسيحا · وقد قرأ بعض الأصدقاء فصولا فى حقول معينة تخصصوا فيها : فالفصل الأول قرأه الدكتور ونج ـ نسيت تشان أستاذ الثقافة الصينية بكلية دارتموث ، والفصلان الثانى والرابع قرأهما طيب الذكر الدكتور ج·ت· مانرى أستاذ الفلسفة بكلية فورمان بمدينة لاهور بالباكستان ·

والثالث راجعه الدكتور هـ · م · يوتيات أستاذ اللاتينية بكلية وايك فورست، والخامس الدكتور والدوبيتش أستاذ علم الأخلاق المسيحية بجامعة ديوك ، فأما السادس فقد قرأه الدكتور أ · و · نلسون أستاذ التاريخ بجامعة ديوك ، والسابع الدكتور و · أ · هوكنج أستاذ الفلسفة [المتقاعد] غير المتفرغ بجامعة هارفارد ، والثامن الدكتور فرجيليوس فيرم أستاذ الفلسفة بكلية ووستر · وقرأ الدكتور أرنولد توينبى القسم الذى يتناول كتابه فى الفصل التاسع · فأقدم تشكراتى لهؤلاء السادة جميعا على ما تفضلوا به من تعليقات ومقترحات · ومع ذلك ، فلا يجوز اعتبارهم مسئولين ولا قابلين بالضرورة للآراء المعروضة على صفحات الكتاب ·

وكان الذى دفع بى منذ أكثر من أربعين سنة الى توجيه نظرة تاريخية الى الخبرة ، هو المرحوم جيمس وارد أستاذ الفلسفة العقلية بجامعة كمبريدج ، فالى ذكراه أهدى هذا الكتاب . والكتاب يحتوى على القسم الأول من مجموعة من المحاضرات ألقيت بمؤسسة رينولد بكلية أمهرست ، وانى لأقدم الشكر الى جامعة ديوك على ما بذلته لى أمد سنوات عديدة من مساعدة قدمها مجلس البحوث بها فى سبيل اصداره .

ألبان ج . ويدجرى

التصورات العامة للتاريخ

الفصل الأول

موقف المذاهب السكونية والاجتماعية من التاريخ ببلاد الصين

— ١ —

شهدت الصين منذ أقدم العصور قدرا ضخما من التاريخ المكتوب ، ويتجلى من البقايا الباقية منه انه كان في جل شأنه « حوليات » تدور في الأغلب حول أفراد من الطبقات الحاكمة ، واحداث حياتهم وصراعاتهم المدنية ، وقيام الأسرات المالكة المتعاقبة ومصائرها • ولكن لم يتجل فيها الا القليل من التأمل حول طبيعة التاريخ ومعناه • ولم تتوافر أية جهود مستمرة لكشف أى مغزى وعبرة فى العمليات والأحداث التاريخية فى أى هدف بعيد ، فكان الالتفات كله مركزا على الحاضر والماضى • أجل أن مثقفى الغرب قد سحر ألبابهم وأثر فى نفوسهم الى حد بعيد ما للصين من الأعمال الفنية والتصاوير ونحائت العاج والكهرمان والخشب ، كما بهرتهم قصور بكين • على أن مقدار ذلك الفن ، مهما بدا ضخما لو روعى على حدته ، يعد صغيرا نسبيا عندما يفكر فيه المتأمل ، وقد وضع نصب عينيه تاريخ الصين الطويل وجماهير الملايين الزاخرة التى سكنتها ، ذلك أن حشود الصين الغفيرة ظلت طوال تاريخها مشغولة بالزراعة والحرف اليدوية • وكانت حياتهم بالضرورة ساذجة ، ولذا فهذه هى الناحية التى نستطيع منها تفهم مواقفهم من التاريخ • بل الواقع أنه حتى فلسفات الصين قد قامت مرتبطة بهذه البساطة ، كما أنها مفعمة الى حد كبير بروحها •

وفى تاريخ الصين قدر من الكتابات والتأملات الفلسفيه يفوق كثيرا ما يعتقده الغربيون • وعلى هذا الاعتبار يمكن وضع الصينيين على قدم المساواة مع بعض شعوب الهند ، ومع قدماء الاغريق وألمان القرن التاسع عشر • والفلسفة الصينية وان لم تتجه « بخاصة » الى تأمل طبيعة التاريخ ومعناه الا قليلا، فان من الخطأ الظن بأنه ليست لديها مضامين تتعلق بهما • وقد تضمنت الفلسفات الصينية مواقف واتجاهات معينة من التاريخ ربما كانت تؤدى الى التعبير النظرى والدفاع عن فلسفات محددة للتاريخ • وقد تطورت هذه الفلسفات على ارتباط بفكرات تشكلت فى جماعات اجتماعية شاركت فيها أيضا الى حد كبير • وكان بعض هذه الفكرات موضع القبول العام من الناس جميعا قبل ضمها الى الفكر الفلسفى • وكثيرا ما كانت الفلسفات تعبيرا عن معتقدات واسعة الانتشار ، وربما حدث أحيانا وبطريقة جزئية على الأقل أن اختلفت تلك الفلسفات عن هذه المعتقدات الشائعة • ولكى يتسنى فهم اتجاه أهل الصين من التاريخ ينبغى توجيه الالتفات الى أهم تلك الفكرات والمعتقدات الباكرة •

وكان أشد المصطلحات شيوعا فى الفلسفات هو التاو (Tao) • ولكنها كلمة عرفت قبل الفلسفات بزمن بعيد • ومع أن اللفظة تترجم الآن عادة باسم « النهج » ، فالأرجح أن مضموناتها القديمة كانت أوسع • اذ أن أقرب شيء من الصينية الى فكرة « النهج » هو معنى الانتظام ، وبخاصة فى عمليات « الطبيعة » ، وذلك نظرا لأن من يعيشون عيش الفلاحة يهتمون به من حيث تعاقب الفصول والترتيب المتجلى فى نمو النباتات واثمارها وتصويحها وتلفها والتكرار المتسق لحركات الأجرام السماوية • وكانت هناك أيضا ألوان من الانتظام ـ مهما بلغ من بساطتها ـ تتجلى فى الحياة المنتظمة للمجتمع الاجتماعى • وكان الناس يحسون أنهم

جزء من « الطبيعة » ، مع انطباعة مباشرة باستمرار الفضاء المحيط بهم الى مالا نهاية واشتماله على كل شيء • وربما كانت لفظة تاو (Tao) تدل على « الكل » الضخم الجامع للأشياء التى تدرك جسميا [فيزيائيا] • فان تاو بوصفه « الكل » يسيطر علي كل ما وقع داخله • ولما لم تكن ثمة جدوى من مكافحته ، انتشر بينهم جميعا اتجاه عام الى تقبل سلبى لمجريات الأمور • بيد أن الصينيين لم يكونوا يعدون أجزاء « الطبيعة » ولا الطبيعة بأكملها أشياء مواتا مجردة من الحياة • ومهما بلغ من ابهام تصورهم للفكرة ، فان كل شيء كان يعامل ويتجاوب معه بوصفه شيئا له حياة داخلية كالتى يحس بها الناس أنفسهم • فما سماه علماء الغرب باسم الاحيائية [الأرواحية] ، (Animism) كان ذائع الانتشار بينهم • فان قدماء الصينيين كثيرا ما تحدثوا عن « أرواح » الأنهار والأشجار ومعظم ما عداها من أشياء • وأسمى الأرواح منزلة هو « شانج تى » ، « رب السماوات » • وهناك زمالة بين الناس وهذه الأرواح اللا بشرية تجرى فى المناسك الزراعية والمنزلية وفى الشعائر الدينية • وترامى الأمر فى النهاية الى أن أصبح الحاكم الأعلى للصين يلقب بلقب « ابن السماء » • ولم يصل الصينيون الأوائل الى تصورات فكرية حول أنفسهم ولا حول رب السماوات الذى يتسم « بالسمة الشخصية » بالمعنى الغربى الحديث لذلك المصطلح • ومع ذلك ، فان آلهتهم كانت « كأنما » الأرواح بما فى ذلك « شانج تى » تماثلهم من حيث التجاوب العملى نحو الأمور • ولم يكونوا « قطعا » يعيشون تواريخهم باعتبارها شيئا يتألف في يسر من علاقات الناس بعضهم ببعض وعلاقاتهم بعالم فيزيائى لا حياة فيه •

وشاع بينهم الاعتراف بنواحى « ثنائية للوجود » ، Dualistic يعبر عنها المصطلحان « ين » ، « Yin » و «يانج» • ويمثل « ين » حالة التلقى والاستيعاب والسلبية النسبية ،

في حين يمثل « يانج » الناحية الاسقاطية والناشطة • ويكمل كل منهما الآخر ، كما أن الحياة ايقاع لسيطرة أحدهما حينا ثم سيطرة الآخر بعد ذلك • فتاريخ الفرد تعاقب « لا ايقاع » السلبية النسبية وبذل الجهد الديناميكى • وتاريخ الجماعات الاجتماعية يماثل تلك الحال • ان « ين ويانج » حالتان متمايزتان يجمعهما «تاو» بوصفه «الكل» ، كما أن «تاو» ـ باعتباره الانتظام والترتيب ـ يتجلى فيهما • واحتفظت الجماهير بالاتزان [برباطة الجاش] ، حيث استقروا فى « الكل » وخضعوا للايقاع العام الصادر عن « ين يانج » •

وقد ظل الشعب الصيني بأسره تقريبا على مدى تاريخه كله يمارس عبادة الأجداد • وعبادة الأجداد تومىء الى الايمان بأن أرواح من ماتوا لا تزال تواصل العيش محتفظة بحاجاتها البشرية • ولن تتضح للأذهان أشكال القرابين وزيارات المقابر وشعائر الأسلاف المنزلية ، الا مقترنة بذلك المعتقد ، ويبدو أن فكرة الخلود الشخصى ضمنية هنا • ولكن الشيء العجيب أنه ليس ثمة الا القليل من الشواهد الدالة على اهتمام الناس عامة بتلك الفكرة ، بصورة تؤثر فى هذه الحياة الدنيا أو تنضوى فى معنى التاريخ • ولم يحدث أن الصينيين « بطبعهم الأصلى » عالجوا هذه الحياة بوصفها تمهيدا واعدادا لأخرى فى عالم آخر ، ولا بوصفها مرحلة كمال لابد من بلوغها فى سلسلة متتالية من الحيوات • وكان معظم من اعتنقوا مثل هذه الآراء ، ممن تقبلوا أشكالا من البوذية استوردتها الصين من الخارج • ولم يخض مفكرو التاوية ولا الكونفوشيوسية غمار أى بحث جدى فى الخلود الشخصى ، ولا التمسوا فى التاريخ أى معنى من ناحية تلك الفكرة • وقد ناصر المفكر المستقل «مو ـ تى» ذلك الاعتقاد، ولكنه لم يرزق النفوذ الواسع المجال ولا الطويل الأجل •

وبطبيعة الحال لم تكن حياة غالبية أهل الصين ، وان غلبت عليها البساطة ، سعادة صافية غير مشوبة . فحتى مع اتصاف « تاو » الطبيعة « The Tao of Nature » بالانتظام المنتظر ، كانت تلم بالناس فترات من اخفاق المحاصيل وتلفها بسبب سوء حال الجو وغير ذلك مما يكابد الناس من ويلات العواصف والأمراض . وتضم القصائد الغنائية شواهد على عدم المساواة الاجتماعية وسوء معاملة الفقراء . وتاريخ الصين حافل بكثرة الحروب وقطع الطرق . ولا يبدو ان النوازل كانت تقابل بتطلع الى المستقبل يتصف بالحماسة . بل كان هناك على العكس من ذلك شيء يشبه النظرة نحو الخلف الى ما كان يمثل في صورة ماض سعيد ، ومعها دعوة الى العودة الى ما كان في الماضي من نهج للعيش . وكثيرا ما عد المفكرون الصينيون التاريخ عملية تعليم لدروس أخلاقية ، تتلقى فيها الرذيلة العقاب على الدوام ، وتحظى الفضيلة بأحسن الجزاء . على أن مثل هذه النتائج التى تترتب على السلوك لم تكن واضحة على الدوام ولا على الفور . أجل ان الخبيث المسيء قد يصل الى عرش السلطة الامبراطورية ، ولكن كان يرد على ذلك بأنه لن يستطيع الاحتفاظ بها . ومع أن الخبيث المسيء ربما بدا في الظاهر مجدودا سعيد الحظ ، فانه في خبيئة نفسه من التعساء . وينبغي الاقدام على الحرب ابتغاء الدفاع عن النفس ، مع الاقتناع التام بأن البر الصالح لابد أن يحظى بالفوز في خاتمة المطاف .

وعلى المتأمل لموقف أهل الصين من التاريخ أن يضع في اعتباره سمة خلقية تكاد تشملهم جميعا : هي طابع الاتزان أو رباطة الجأش الشائع بينهم . فان ماهم عليه من هدوء السمت كان [ولا يزال] أعم انتشارا وبروزا منه عند شعوب الهند أنفسهم . والغالب ألا ينزعج الأفراد انزعاجا كبيرا لما يحل بهم من الشرور في تاريخ حيواتهم ،

وقلما هزتهم بعمق النوازل التى تحل بتاريخهم الاجتماعى كشعب • وقد دامت هذه الحالة العقلية طوال تاريخ الصين بأسره ، وأسهم فيها الجميع الى حد ما ، مهما يكن شكل الفكر الذى يعتنقه كل واحد منهم على حدته • فخبرتهم بالتاريخ تقترن بالاذعان والاستسلام لا بالمسرة والجذل •

وفى القرن الثالث قبل الميلاد وضع تساو ين (Tsou Yen) نظرية للتاريخ تقوم على الدور ، وتماثل التكرار الذى يحدث فى عمليات الطبيعة • ويحتوى سفر الصين القديم المسمى « سفر الشعائر » على فكرة مدارها مراحل ثلاث لهذا العالم • وكان المعلقون الذين عاشوا فى عهد أسرة هان يعتبرون هذه الفكرة ضمنية فى « حوليات الربيع والخريف » • على أن هذه الفكرة لم تلق الا النزر اليسير من الالتفات على كر التاريخ الصينى بأجمعه • ومع ذلك فقد أحياها كانج يو واى، (Kang Yu — wei) [١٨٥٨ ـ ١٩٢٧ للميلاد] •

ولو أخذنا فى اعتبارنا الحالة العقلية التى سلفت الاشارة اليها ، يمكن تسمية اتجاه الصينيين من التاريخ بأنه « سكونى » أو « تصوفى » ، وذلك شىء له ما يبرره فى الكثير من فلسفاتهم • أجل ، ان الفلسفات اختلفت فى مدى وطريقة حث تلك الفلسفات للناس على ممارسة النشاط العملى والقيام بالجهد المثمر فيما يتعلق بالحالة العقلية السكونية • ومن المناسب هنا أن نعالج أولا فلسفة التاوية ، وان كان من الجائز أن يتضمن وجود العلاقات مع الأفراد الآخرين • ويضيف سفر « التاوتى تشنج » أن كتاباتها العتيقة ربما جاءتنا من عهود تالية متأخرة عن عهود بعض الفلسفات الكونفوشيوسية • وتروى روايات تاريخية مديدة الأجل أن مؤسس تلك العقيدة التاوية هو لاوتزى ، على أن وجوده التاريخى موضع الشك ، ولكنه شك لا يمكن البت فيه علميا • على أن كل ما يهمنا انما هو مدلولات المذهب التاوى فيما

يتعلق بتفسير التاريخ والاتجاهات التى ينبغى تبنيها مرتبطة به • ولكن التاوية اتخذت عبر تاريخها الطويل اشكالا مختلفة داخلتها بعض التنويعات بالنسبة للتاريخ •

ـ ٢ ـ

وأقدم مراحل التاوية المحددة المعالم هى تلك التى قام فيها عدد من المتنسكين الذين حاولوا الاستمتاع بالسكينة بطريقة أنانية وذلك باعتزالهم المجتمع • والأساطير المحيطة بلاوتزى تصوره فى صورة المتجول بمفرده فى أرجاء البلاد، كأنما قد اتخذ لنفسه هذا النهج ولو الى حين على الأقل • فكأن معنى التاريخ من وجهة النظر هذه ، انما يلتمس فى السلام الداخلى للمرء وفى تحرر المرء من الالتزامات والمؤثرات الخارجية • وان سفر « تاوتى تشنج » ، (tao te ching) الذى يمكن اعتباره النص الأساسى للتاوية . ليعبر بدرجة أكثر عما سمى بالمرحلة الثانية للتاوية • وهو يعرض علينا فلسفة أكثر رسوخا من حيث صياغتها وتخليقها ، فلسفة قد تقدمت أشواطا بعيدة على مجرد البدايات التأملية الأولى • وهو ينتقل من الهيئات المتغيرة للأشياء الى « التاو » بوصفه شيئا دائما ، وباعتباره الأساس الحق للاتزان [رباطة الجأش] الذى يقابل ما يتصف به الشيء العابر من عدم الثبات • ولكن لما كان الشيء العابر يقبل بوصفه مستقرا فى «التاو»، فليس هناك أى تأكيد على الامتناع المتعمد عن ممارسة ما فى الحياة الاجتماعية من علاقات يسيرة والمشاركة الى نفس هذا المدى فى التاريخ الاجتماعى • ومع ذلك ، فمما يجدر ذكره أن التاويين المقتنعين بعقيدتهم تجنبوا التورط فى تولى المناصب الرسمية فى الحكومة • ومدلول ذلك هو أنك « كلما زدت عن الحكومة بعدا كان ذلك أفضل لك » • وبينما

(★) عن أسرة هان وتاريخ الصين ، انظر للمترجم « معالم الانسانية » out line of history تأليف • هـ• ج• ويلز ـ (لجنة التأليف بعابدين) •

يسلم المذهب التاوى بالعلاقات الاجتماعيـة ، فانه بالقطـع يهتم بالتاريخ بوصفه شيئا لازما للحياة الجوانية للأفراد . واهتمامه بالحكم السياسى ضئيل ، كما أن ذلك القدر الضئيل يأتى عرضا . وليس للتاوية فلسـفة للتـاريخ لها ارتباط بحالة الاستمرار أو النكوص أو التقدم التى تمر بالأمم أو بما يمكن تسميته بالحضارة على وجه العموم . ومع أن ذلك المذهب ذو نزعة فردية ، فانه كما ينطق عنه كتاب « تاوتى تشنج » ليس أنانيـا بأى معنى ضـيق ، وذلك أنه نظرا لأن « اتزان » الفرد يستقر على « التاو Tao » ، فان الاتجـاه الجوهرى ينبغى أن يوصف بأنه اتجاه « كونى » وهو معنى يتضمن وجود العلاقات مع الأفراد الآخرين . ويضفى سـفر « التاوتى تشـنج » على موقف المـذهب السـدوى تبريرا فلسفيا فى دائرة غيبيات [ميتافيزيقا] متطـورة تطـورا واعيا . « والتاو » فى ذلك المذهب هو الفـكرة المـركزية والنهائية . وليس معناه انه [الكل] على ما يشعر به بعض الناس بسذاجة وبطريقة مباشرة ، كما يدل على ذلك مفهومه الأول ، ولكن ذلك المعنى حقيقة باطنية أعمق . « والتاو » بوصفه حقيقة نهائية يعلو على كل وصف . وهو وان اشـير اليه بمصطلح « التاو » فانه شىء لا يمـكن « اطلاق اسـم عليه » ، أى باعتباره فردا فى نوع . فان هـو وضـع فى صورة أخرى لم يعد فى الامكان تعريفه . « والتاو » ابدى خالد ، هـو يستمر الى الأبد ، المصدر غير المرئى وغير المتغير لكل ما هو مرئى ومتغير . هو شىء لا حد له ولا نهاية : ومع انه غير ذى شكل ، فانه « تام من جميع الأوجه » ، كما انه « يفيض فى كل اتجاه » . وهو يقوم بوظيفته دون أية جهود نوعية . ان « التاو » هو الحقيقة الغائبة للـكل الكونى . ومتى فهم الفـرد ذلك وأدرك مكانه فيه ، فانه ربما أحـرز « رباطة الجـأش والاتزان » . وبهـذا المفهـوم المركزى ، لا يكون « للفكرة » المتعلقة بالفرد الا أضيق حيز فى التاوية

التامة التشكل والتخلق الموجودة فى تلك المدة • بل الواقع ، أن أى شىء من الجزئيات التاريخية ، من الأشخاص كانوا أو من الأحداث ، ليس لها بوصفها ذاك سوى أهمية ضئيلة • فالفكر يتجاوز كل ما هو بالتحديد فردى أو اجتماعى ، الى ما هو كونى • وما التاريخ كله الا مجرد مظهر للكل النهائى، كما أن أحداثه الخاصة نسبية بأجمعها •

غير أن هذا الموقف وهذه الفلسفة انما يؤخذان على أنهما يحتويان الاعتراف بالناحية الاجتماعية • وذلك بأنك « ترى الأنفس الأخرى فى نفسك أنت ، وترى العائلات الأخرى فى عائلتك انت ، وترى الأحياء الأخرى فى حيك أنت ، وترى الأوطان الأخرى فى وطنك انت ، وترى المجتمع الانسانى الكبير فى مجتمعك فى جملته » • ولن يستطيع المرء فهم المجتمع الكبير الا على نور « التاو » • تلك فقرة تشير الى أن التاويين ربما تحولوا الى النظرالى التاريخ، من وجهة نظر المذهب العالمى المتحرر أو الشمول التى تشبه ما صدر عن الرواقية فى أواخر عهودها أو عن المسيحية ، على أنهم لو لم يصلوا الى آية تعبيرات مضبوطة من هذا القبيل، لم تحدث أية استثارة للحماسة الحارة أو الجهود المضنية رغبة فى أن يعود ذلك على البشر عامة بالرفاهية • اذ أن الطابع هو بالأحرى مجرد تجنب ايقاع الأذى بالغير • فان رفاهية كل انسان فى التاريخ تحرز أو سيتم احرازها بالقدر الممكن ، بالسماح للجميع دون أى تدخل من الخارج بتحقيق كل لطبيعته • « فالتاو » انما يمنح الفرد « طبيعته » الخاصة وفيها يكمن رضاه الحق • فالرفاهية « الحقة » للبشرية هى فى وجوب بث « التاو » فى كل « فرد » • والشىء الذى يراه الناس عادة الرفاهية « العامة » التى يعتقد أن سبيل بلوغها هو التنظيم والنشاط السياسى ، لا يقوم الا فى المظاهر الخارجية العابرة دون غيرها •

ويؤدى ادراك الناس لخصيصة جوهرية من خصائص الأحداث ، الى تجنب أى اضطراب عظيم يلم بأية مجموعة من تلك الأحداث : وذلك انها لا تبرح في عملية تكرار معاود . فالأحداث التى تسلك طريقا ما ستعقبها الأحداث التى تتجه فى الاتجاه المضاد . والشىء التجريبى تغير متواصل كالذى يتجلى فى « خلفا وأماما » أو « فوق وتحت » . وقد تم صنع جميع الأشياء بعملية واحدة ، وهى جميعا كما تشهد أعيننا ، تعود ادراجها . « وربما ازدهرت بوفرة كبيرة ، ولكن كل واحد منها يدور ، ثم يعود الى الجذر الأصلى ، الى المستقر» . الى مستقره فى الجذر الى مستقره ــ كما أؤكد ــ الى السكون . ومعنى هذا أن العودة هى القدر المقدور ، كما أن القدر الذى قدر العودة ــ كما أؤكد ــ لا يمكن تغييره بأية حال » . فالشخص الذى « يعرف » ، « التاو » الصمد الذى لا يتغير تصير له القدرة على معالجة أحداث التقلب المتواصل للتاريخ معالجة مجردة من الهوى . فهو متحرر من الرغبات الأنانية المؤقتة ، تحرره من كل قلق على الأحداث الاجتماعية . وربما حظى بالهدوء والاتزان [رباطة الجأش] .

والكتاب الذى يلى سفر « تاوتى تشنج » ويعد أهم مرجع يبسط فيه المذهب التاوى هو « سفر تشوا نجتزى » (Book of Chuangtze) . وهو وان اعتبر العلماء أنه ليس بأكمله من وضع تشوانجتزى [٣٦٩ ــ ٢٨٦ ق.م] ، الا أنه فى الامكان اعتباره محتويا على الشىء الكثير من وضع ذلك الرجل ، ذلك أنه حتى ما ليس من وضعه ، يغلب عليه نفس الروح والطابع الفكرى . ومع أن العقول التى اشتركت فى تأليفه متعددة ، فانه يقدم الينا فلسفة أكثر نسقية (Systematic) من سفر « تاوتى تشنج » . ويمكن أن يقال فيه : انه يحتوى بسيطا لشكل من أشكال المذهب الروحى أو المذهب المثالى (Idealism) . وكأنى بهذه الفقرة التى كثر اقتباس

المؤلفين لها تذهب الى شيء من اتجاه بركلي Berkeley (★) أو اتجاه الهندوك : « رأى تشوانجتزى فى منامه ذات ليلة انه فراشة ، وانه يرفرف هنا وهناك كأنما هو حقا فراشة ، تحس بأنها تمضى وراء ميولها . فهى لم تعرف أنها تشوانجتزى . على انه استيقظ على حين فجأة ، وعندئذ عرف بصورة واضحة انه تشوانجتزى . ولكنه لا يعرف الآن هل هو تشوانجتزى الذى حلم بأنه فراشة ، أو هو فراشة تحلم بأنها تشوانجتزى . لا شك أن نوعا من الفكرة المثالية يذكر هنا بطريقة مقصودة : « ان هو الا استيقاظ عظيم ثم نعلم ان هذا كله [هذه الخبرة الحاضرة] انما هو حلم عظيم . ومع ذلك ، فان الحمقى يعدون أنفسهم أيقاظا الآن ـ ذلك ان معرفتهم تتسم بالسمة الشخصية الى أبلغ حد . فهى معرفة قد تتخذ شكل أمير ، أو قد تتخذ شكل راعى قطيع ، ولكنهم على جانب اليقين البالغ من أنفسهم . فأنت والأستاذ [كنفوشيوس] تحلمان ، وعندما أصفك بالحالم ، انى لكذلك حالم . وهذه الكلمات التى أقولها متناقضة : وذلك هو الاسم الذى يليق بها . وستمضى مئات الأجيال قبل أن يتهيأ لنا الالتقاء بحكيم يستطيع تفسير هذا ، فاذا نحن التقينا به كان ذلك خاتم يومنا الصغير » . ومادامت فكرة الحياة عندهم تعد حلما ، وما دام لكل فرد يومه الصغير ، فلن يكون هناك أى اهتمام كبير بالتماس المعنى فى التاريخ فى أوسع حدوده .

ويعبر تشوانجتزى بطرق ضمنية كثيرة عن تفاهة التاريخ نسبيا . فالحقيقى أبدى : ولذا ، «فعليك ألا تأبه بالزمن .. فاذا انتقلت الى مملكة اللا نهاية ، فاتخذ بين أحضانها راحتك النهائية » . ولما كان فعل « التاو » يتراوح بين الارتداد الى العكس وبين المعاودة والتكرار ، فان تشوانجتزى وجه هذا

(★) جورج : بيركلي : (١٦٨٥ ـ ١٧٥٣) أسقف أيرلندى وفيلسوف مثالى . (المترجم)

السؤال : « اذن فما الذى ينبغى للانسان عمله ، أو ما الذى لا ينبغى للانسان عمله ؟ » ثم تطوع بالاجابة عنه فقال : « دعوا التغيرات تمضى وحدها فى سبيلها » •

ان نظرة حقة الى الأشياء لتدل على أنها يشملها انسجام جوهرى ، وهكذا متى حاول الناس أن «يؤلفوا منها وحدة» ، فكل ما يعملونه أن يغنوا « روحهم وفطنتهم » • والذى يحدث فى أثناء التقلب المتواصل لعمليات « التاو » هو أن تفاصيل التاريخ غير مهمة نسبيا •

وقد تجنب تشوانجتزى عمدا توريط نفسه فى مضمار الحياة السياسية • « وكل هذا الذى ترى من ألوان الحكم فى المجتمع الكبير كمن يحاول الخوض فى خضم البحر ، أو كمن يثقب ثقبا فى أحد الأنهار ، أو من يدفع بعوضة للعمل فى نقل جبل » • فالاتزان غاية لا تدرك بالتنظيم الاجتماعى • « فأما الضبط [التحكم] الذى يمارسه الحكماء فهو يخرج عن دائرة الضبط السياسى » • وقد أكد تشوانجتزى النسبية التى تخيم على كل ما يقع داخل فيض التاريخ • « ومهما يكن من شىء ، فانك واجد الآن حياة ، ثم واجد موتا ، ثم حياة • وما هو ممكن فى أحد الأوقات مستحيل فى غيره من الأوقات ، أو مستحيل فى زمان ممكن فى زمان آخر •

« وارتباط الانسان بعجلة الصواب هو بنفسه الارتباط بعجلة الخطأ ، والارتباط بالخطأ يعد ارتباطا بالصواب » • والصدق فى المعاملة والكفاية فى العمل والحكومة المنظمة والزمالة فى التعاطف الانسانى ، وأضرابها ، يمكن تمييزها ان هى نشأت تلقائيا ، ولم تتم نتيجة جهد مفروض بالقوة • فأهميتها الحقيقية مستقرة فى دخيلة الانسان ، وليست من تأثير عوامل خارجية • وينتقض استخدام القوة • « فالقوة ليست من « التاو » فى شىء » • « والعنف ليس من « التاو » فى شىء » • وما يتم الحصول عليه بالقوة «سريعا ما يهلك» • وما التاريخ المبنى على المشاهدة والاختبار الا قشوز وحسك :

« والانسان ذو النضج الحق يركز نفسه على لباب الأشياء جميعا ، « التاو » ، « السرمدى » • ولا ينطوى موقف « التاو » على بذل الجهود للوصول الى التقدم القائم على المشاهدة والاختبار ، بل على الامساك « بشدة بثبات السكون » •

وبهذا تكون التاوية فى صورتها المتطرفة ، فلسفة مدارها موقف سكونى تام بالنسبة للتاريخ • « فالسلبية والهدوء والرخاوة واللا عمل [التبلد] ، هى الصفات التى يتصف بها ما فى العالم المستمتع بالسلام من أشياء ، كما أنها تمثل أقصى ارتفاع بلغه تطور « التاو » و « الخلق » • ومهمة « التاو » ، مهمة مدارها اليومى التعامل مع الاقل ، نعم ، التعامل من الأقل فالأقل حتى تصل فى النهاية الى الجمود (عن كل عمل وحركة) • ويقول لن يوتانج المفكر الصينى المعاصر ، وبحق ما يقول : « ان مبدأ الجمود [عن العمل والحركة] مبدأ عسير الفهم عادة » • وهو يشير الى أن معناه « على ضوء العلم » هو « استخدام المرء القوى الطبيعية فى الوصول الى غرضه بأعظم قدر من الاقتصاد » • على أن هذه ليست اشارة مفيدة كما قد يبدو لأول وهلة • وذلك لأن المسألة تنشأ حول طبيعة « غرض المرء » • وتنجز الوسائل الميكانيكية التى هيأتها الحضارة الحديثة أغراضا بأعظم قدر من الاقتصاد يعرفه زماننا • فهل تدل التاوية على أن الناس ينبغي أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذه الأغراض ؟ انها عبارة عن لبنات تكون طرازا من الحضارة يتناقض والحياة الساذجة التى هى فيما يبدو قوام التاريخ القائم على المشاهدة والاختبار عند التاويين •

وان شطرا عظيما من سفر « تاوتى تشنج » ليصنف بعض نواحى ما يسمى بالحضارة بأنه مجلبة للاضطراب [الخلقى] والتنافس والشر والسرقة وهكذا دواليك • « وكلما زاد عدد ما يملكه الناس من أسلحة ، ادلهمت ظلمات الشر على أم رأس

الدولة والعائلة ، وكلما زادت أشكال المهارة عند الرجال ، تزايد عدد المخترعات الجهنمية » • واذا لم تقدر السلع النادرة قدرها العظيم توقفت السرقات « على ان موقف تشوانجتزى كان فى بعض الأحيان يختلف عن هده الآراء : على المرء أن يتقبل الأشياء كما تجىء • فانه سلم « بضرورة العيش فى هذا العالم على ما نجده عليه » ، وان ركزنا عقلنا على الدوام على حقيقة «التاو» غير المرئية • وحتى تشوانجتزى ذاته يقول : انه يتمنى لو ترك « الذهب فى بطون الجبال » و « اللؤلؤ فى لجج البحار » •

والمذهب التاوى السكونى اذ يعيش فى هذا العالم على ما يجده عليه ، معارض لاى جهد مقرون بالقلق يسعى لتغييره ، أى انه يعارض بذل اى جهد للتقدم فى التاريخ - « وبالمثل ليس من الممكن ، استنتاج ما اذا كان هناك تقدم او ليس هناك تقدم » • وعلى المرء ان يتخذ « انسان العصور القديمة الحق نموذجا له » ، وهو انسان لم يكن لديه شعور واع بحب الحياة ولا بكراهية الموت • ولما ان تفتحت افاق الحياة لم يشتق الى السرور • ولما أن دخل منطقة [ظل الموت] لم ينكص على عقبيه • وانما طار منطلقا كأنما هو أحد الطيور ، وذلك مثلما جاء كأحد الطيور تماما : وهذا كل ما فى الأمر » •

ويمكن أن يقال عن أقدم موقف لأهل الصين : إنه على « المذهب الطبيعى (Naturalistic) أو يكاد ، وان لم يكن موقفا يأخذ المذهب المادى بصورة غيبية (Metaphysical) » • فقد كان « التاو » بمعنى ما هو « الكل » ممارسا ومخبورا خبرة مباشرة •

ومع ذلك ، فقد وصل المرء فى « كتاب تشوانجتزى » • الى رأى غيبى ، يكون « التاو » فيه هو الأبدى غير المرئى القائم وراء المتغير المرئى • وهكذا ، يمثل الهدوء بصورة

جوهرية ، بأنه يعتمد على فهم لذلك النهائى الأقصى أى على ادراك حدسى (Intuitive) له • فهو لا يدعو الى آى « فرار من هذا العالم » وانما يدعو الى عدم الاهتمام به نسبيا •

ويبدو أنه حدث بين مفكرى القرنين الثالث والرابع للميلاد ، الذين يسميهم الدكتور فنج يولان باسم فلاسفه التاوية الجديدة ـ تغيير يوحى بأن هناك عودة الى راى يماثل المذهب الطبيعى الأقدم • فان قولهم : ان « التاو » انما هو بالمعنى الحرفي « لا شئ » يعد رفضا لكائن متسام غيبى مرئى • وهم يذهبون الى أن « التاو » الحقيقى انما هو جماع الحصيلة المباشرة للأشياء جميعا • « فكل شئ ينتج نفسه » • وظهر اصرار فى نفس الوقت على الكل ، والفرد ، والجزئيات : الكثير فان كل شئ وان كان يوجد « من أجله هو نفسه » ، فانه « بحاجة الى الأشياء الأخرى جميعا » •

ولذا ، فان الاتجاه الذى اتجه اليه التاويون الجدد كان يجمع من ثم بين الاتجاهين : الفردى والكونى •

وبهذا يوضع التاريخى للمرة الثانية تحت بصرنا • وان اعطاءه حقه الكافي من التامل ينطوى على الاعتراف بالطبيعة المميزة والمكان الخاص والخبرة المخبورة لكل ، مع جميع علاقاته بكل ما عدا ذلك مما هو موجود • فكل شخص او شئ هو ما هو عليه حاله • وما لسنا عليه لا يمكننا أن نكون عليه • وما نحن عليه لا يمكننا الا أن نكونه • وما لا نعمله لا نستطيع فعله • وما نفعله لا يسعنا الا أن نفعله • ومع أن هناك تقلبا أبديا لا ينقضى ، فان العملية لا تقوم على التلقائية الحرة ، وانما هى محددة مقدرة واليكم النصيحة العملية عن الاتجاه الذى ينبغى اتخاذه فى التاريخ وحيال التاريخ ، معبرا عنها على الوجه التالى : « دع كل شئ يجرى فى عنانه ، يكن سلام » •

وقد قال كوهسيانج (Kwo Histiang) ، معلقا على كلمة من كلم تشوانجتزى ، ذهب فيها الى أن المفكرين مصدر الازعاج للعالم : « ان مجرى التاريخ مجتمعا الى الظروف الحالية هو المسئول عن الازمة القائمة • فهى أزمة لا تعود الى أى أفراد بأعيانهم • فنشاط الحكماء لا يزعج العالم ، وانما هو شيء واجب الأداء الى العالم بمجموعه ، ولكن العالم نفسه قد أصبح مضطربا مشوشا • « والتاريخى » شيء نسبى تماما • فكل شيء ينبغي أن ينظر اليه بدل يسر من حيث ما يحيط به من ظروف الزمان والمكان ، وليس من وجهة نظر اى مبدأ مطلق للقيم أو آى هدف يرام بلوغه » •

وعلى الرغم من الفروق الموجودة بين التاويه الجديده والاشكال الاولى من التاويه ، فان الاتجاه فيهما من الحياه والتاريخ واحد في جوهره لا خلاف فيه : اتبعوا الطبيعه دون بدل اى صراع ضدها مقترن بالقلق والنصب • على ان بعض اتباع التاوية الجديدة يعتبرون أن تلك الغاية يمكن بلوغها بالعيش وفق العقل ، كما يرى غيرهم امكان الوصول اليها بالتسليم والرضا بدل من الدافع والعاطفة • على ان هذه التلقائية كانت مناقضة لما اقتضته الكنفوشيوسيه من حياة مصطنعة قائمة على الأخلاق والنظم المتواضع عليها • وفى بعض الأحيان كانت الناحية السلبية للتاوية تصل الى درجة التعبير المتطرف ، اذ يبلغ الأمر بالحكيم آن يكبت الرغبة بحيث لا يعود لديه حتى مجرد « رغبة فى انعدام الرغبات » • فلابد له من أخذ التاريخ كما يجيئه • فان لم تكن لديه رغبات لم يفعل شيئا للتأثير فيه •

ولم يكن أصرار تشوانجتزى والتاوية بصفة عامة على عدم دوام أحداث التاريخ، ينطوى على آى احساس بالتشاؤم • وانما كان معناه بالحرى هو التحرر من القلق بالنسبة للمستقبل ، فان الفرح يقوم فى العيش فى الحاضر بوصفه

تعبيرا عن « التاو » • يقول تشوانجتزى فى كتـابه : « ان تكوين الانسان على هذه الصورة البشرية يعتبر بالفعل مصدرا للحبور • فما مدى الزيادة فى حبورنا بشـكل يتجـاوز كل تصوراتنا ، حين نعلم ان ما يتخذ الآن صـورة بشرية ربما يمر به مالا يحصى من التحولات بغير أن يشخص الى شىء عدا اللانهائى ؟ وبناء عليه ، جاء امتلاء قلب الحـكيم بالحبـور بما لا يمكن البتة فقدانه ، وانما يدوم دائما أبدا • وذلك اننا لو غبطنا من يتقلبون بسماحة نفس كلا من طـول العمر أو قصره على السواء وتقلبات الأحـداث فالى أى مدى أكثر نغبط ما ينفخ الحياة فى الخليقة كلها ، الذى تعتمد عليـه كل الظواهر المتغيرة ؟ والحق ان ذلك يدل ضمنا على الايمان بالاستمرار ، ولكنه يدل أيضا على انعدام كل أثر للاضطراب حول المستقبل ، أو آية اشارة الى بذل الجهود المضنية من اجل ذلك المستقبل •

ولخص لن يوتانج بصـورة رائعـة رأيه فى التـاوية باعتبارها فلسفة فقال : « انهـا فلسـفة مدارها الوحـدة الأساسية للعالم فلسفة للارتداد الى الأفضـل والاسـتقطاب والدورات الأبدية ، فلسـفة مفادها ازالة جميـع الفروق ونسبية جميع المعايير وعودة الى الواحد الأول الأزلى ، الفطنة القدسية مصدر الأشياء جميعا » •

وكانت هذه الفلسفة أساسا للتواضع والوداعة ، كمـا أنها تضمنت الامتناع عن الكفاح وعن كل قتال فى سبيل كل منفعة أنانية • كانت فلسفة جيـدة التـكيف وفق طبـاع المفكرين المتباعدين عن الحياة السياسـية ، موافقـة لمزاج جمهرة الشعب الصينى • على أن ما نشب فى تاريخ الصـين من حروب أكبر دليل على انه كان بين أفراد الشعب الصينى العدد الكافى ممن لم يعتنقوا التاوية ، بحيث كانوا مثـارا لما لا ينقطع من الشقاق والشغب فى هذا الجزء أو ذاك من

بقاع الصين • ولا يخفى أن الكنفوشيوسية قد وجهت دعوتها الأولى لمناهضة تلك الأحوال الى حد ما •

أحرزت الكنفوشيوسية من الناحية الرسمية وبين عداد الأدباء صدارة عملية فى تاريخ الصين أكبر كثيرا مما أحرزت التاوية • ومع ذلك ، فان مذهب السكونية الكامن فى التاوية من الأمور التى شاركتها فيها الكنفوشيوسية • حتى لقد بلغ الأمر ببعض المتأخرين من التاويين أن ادعوا أن كنفوشيوس [٥٥١ — ٤٧٩ ق•م] كان أحد أتباع لاوتزى ، وهنا ربما أمكن التأكيد بأن أثر شخصيته على تلاميذه كان عاملا رئيسيا فى أصل الحركة المرتبطة به • وبتوالى العصور واصل الناس رفعه الى المصف المثالى • ونسب الى اسمه كثير من الأقوال التى رئى أنها تتمشى وروحه ، والتى وضعت لأول مرة فيما تلا عصره من عصور • وتجمع الروايات التاريخية على تقبل « المختارات الأدبية » ، (Analects) باعتبارها أعمالا صحيحة من عمل كنفوشيوس نفسه • ولكن العلماء المحدثين يرون أن ما يحتمل نسبته اليه لا يتجاوز النصف • على ان هذه الأقوال فى حد ذاتها لا تحتوى القوة الكافية لتبرير ما يستمتع به من عظيم النفوذ • ولابد من أن تكملها الروايات التاريخية : فانه التمس منصبا سياسيا ساميا اعتبر تعاليمه متناسبة واياه • فهل تراه وصل الى ذلك المنصب ؟ ذلك أمر يدور حوله خلاف بين العلماء • وقد أعلن ان كل ما يعمله انما هو فى يسر عرض معانى التقاليد القديمة والتعبير عن روحها الحقيقية • ومن المحقق أن تعاليمه تنسجم انسجاما تاما وسمات المزاج الصينى • وتنحصر الفروق العملية بينها وبين ما فى التاوية فى التأكيد على التعاليم الأخلاقية من نواحيها الشخصية والاجتماعية ، وفى تحدى الجهد باعتباره نقيضا لاتجاه التاوية السلبية أكثر •

وقد انزعج كنفوشيوس لما شهده من مشاهد الحرب بين الولايات الاقطاعية ، كما ساءه ما انتشر في طول البلاد وعرضها من صنوف الحكم السيىء ، فأبدى بحرارة رغبته في تغيير الحاضر . واعترف بأنه استقى الأفكار المتعلقة بما ينبغي عمله ، من عصر الملوك الحكماء فيما سلف من الزمان . ولا يبدو انه كانت لديه أية صورة عامة عن هدف للتاريخ لابد من الوصول اليه من خلل مراحل تقدمية . واجزاء « المختارات الأدبية (Analects) » التي يسلمون بنسبتها حقا الى كنفوشيوس . تمثله في صورة من يعلم أن « الطيبة » هي الشيء المهم حقا في مجالات الحياة والتاريخ . على انه لم يحاول وضع أي تعريف « للطيبة » كما لم يبد أى ميل الى اعتبار اى فرد جديرا تماما بذلك اللقب . وغلبت على اتجاهه الناحية الخلقية بشكل ظاهر قوى .

ولم تكن الطيبة عند كنفوشيوس سكونية بالمعنى السلبي « انما هي حالة من الاتزان تتم في اثناء القيام بما يفرضه عليك مركزك الاجتماعي الذى تجد نفسك فيه من اهداف وواجبات » . وكان على استعداد للاعتراف بأن « الجميع » — « ينشدون الثروة والجاه ويمقتون الفقر وخمول الذكر » ، « ومن المحقق أن كنفوشيوس لم يكن يعنى بلفظة « الجميع » هذه سوى أولئك المنتسبين الى طبقته ومن يرتبط بها من الطبقات العليا . فأما أن غالبية أهل الصين كانوا ممن ينشدون الثراء والجاه ، أو كانوا ممن يزعجهم خمول الذكر ، فأمر لا يجوز الذهاب اليه ، وأما مقتهم للفقر فشيء ربما جاز التسليم به .

وتساءل كنفوشيوس : « هل الطيبة شيء بعيد المنال حقا ؟ » ثم استطرد يقول : « ان كنا نريد الطيبة ، وجدنا أنها أقرب الينا من حبل الوريد » . فالطيبة مغروسة في الاخلاص الجواني . ولا يمكن للسلوك مهما يبلغ من صحته من الناحية الاجتماعية ان هو تم تحت ضغط خارجي — أن

يتجه نحو الاتزان · وينبغي ان تعالج المؤثرات الخارجية ، باعتبارها ثانوية بالتطلع · ومهما تكن العواقب الخارجيه ، فالمرء ينبغي له ان يلزم جانب الطيبه · وينبغي الا تكون مشاعر المحبة أو العداء هي دوافع السلوك · ومع ذلك ، فان كنفوشيوس اعترف بمنزله المشاعر في معني الحياة ، حيث تحدث عن « المتعة التي لا تصل الى حد الفجور · والحزن الذي لا يدفع الى شفا ايذاء النفس » · ولابد من الاحتفاظ بالمرح مهما تكن الظروف الخارجية · وقال وهو يصف «هوى Hui » بأنه « شيء منقطع النظير » : « ان حفنة من الارز للأكل وملء قدح من الماء للشرب وعيشه في شارع حقير ــ شيء ما كان غيره ليعده الا شيئا يدعو الى الاكتئاب بصورة لا تطاق ــ ولكن مراح « هوى » لا يأبه لذلك » · وكذلك أيضا ، لا يمكن أن يكون الأصل المتواضع أساسا صحيحا للتمييز بين الأفراد · وتتجلى الطيبة في طباع الناس الشخصية : والسرى أو « الجنتلمان الحق » هادىء الجنان مطمئن الفؤاد ، « والرجل الصغير » شكس محروم الطمأنينة ، « ويخلو السرى » من كل أثر للعنف أو الصلف ، فنظراته تشهد بالايمان الصادق وحديثه خال من الخشونة والبذاءة · والطيبة تتجاوز الخلق الفردى الى المشاعر الاجتماعية والرغبة في الاحسان · « وقوة الخلق لا تعيش في الوحدة فهي بحث دائم عن الجيران» · وترتب على الشكوك التي تدور حول المختارات الأدبية ، وأى أجزائها يمكن نسبته الى كنفوشيوس ، أن حامت الريب حول تأكيده على « التقوى البنوية في تعاليمه » [١] ، ولكن ذلك الشك ربما أمكننا التغلب عليه تماما ، بناء على المكانة التي كانت لتلك التقوى في تاريخ الصين ·

---

(١) يعقب الدكتور شان ، وهو مصيب في تعقيبه ــ ان ذلك المبدا بالغ الاهمية في « المختارات الادبية » وانى اوافقه على هذا الراى كما يتجلى ذلك من انكارى للشك المذكور · غير ان الشك موجود ضمنا في طبعة المستر ارثروالى « للمجموعة الأدبية لكنفوشيوس » · (Allen & Unwin, 1938 فهو يكتب (ص ٣٨) أن معظم اشارات الى

وقد عبر بعض أهل الذكر عن اعتقادهم بأن أفكار كنفوشيوس قد حرفت وأسيء التعبير عنها ، وأنه ناصر فعلا ضربا من المساواة السياسية والاجتماعية يماثل ما في الديمقراطية العصرية من مساواة · ولكن لعل الأدنى الى اتجاه كنفوشيوس أن يساند نظاما لمجتمع اقطاعى طبقى · وقد انطوت الكنفوشيوسية السلفية القويمة فى كل عصورها على رأى حول الأخلاق ، فضلا عن رأى حول واجبات مختلف الطبقات وحدث فى عصر كنفوشيوس نفسه ان ألم شيء من الانهيار بنظام الاقطاع السابق لزمانه ، ولعله كان يود فى ثنايا اشارته الى الماضى باعتباره محتويا على المثل الأعلى ، لو تجدد النظام الاقطاعى فى أحسن صوره · وكثرة اشاراته الى « السرى الجنتلمان » تومىء الى انه ربما يفكر فى الأغلب الأعم — فى الطبقات الحاكمة · « فالجنتلمان » ليس بحاجة الى المهارات العملية · وربما جاز تمكين العامة من المعرفة بالنهج والصراط أعنى « التاو » ، ولكن لا سبيل الى تمكينهم من فهمه · وقد كان كنفوشيوس مخلصا شديد التعلق بالعلم والتحصيل كما حث غيره على بذل الجهود المستمرة فيه · وهو أمر لا يكاد يمكن أن يكون حضا للعامة الذين لم يكن بوسعهم فهم « التاو » · ثم ان الاتجاه الاجتماعى الذى رفع لواءه كان اتجاها أبويا وليس اتجاها ينطوى على العدالة الديمقراطية · « فالجنتلمان يعين المعوزين ، هو لا يزيد الغنى غنى » — « وفى معاملة المسنين ينبغى أن يكون المرء منا مصدر الرعاية والراحة لهم » · وينبغى أن يكون المرء منا وفيا لأصدقائه ، وأن يدلل الصغار ·

= التقوى البنوية تقع فى الكتابين الاول والثانى اللذين لا ينتسبان فى اعتقادى الى أقدم أجزاء ذلك العمل · ثم يستطرد المستر والى فيقول : « على انه يبدو أن من الواضح انه فى اثناء القرن الرابع ق·م· كان الكنفوشيوس افردوا مكانا بالغ الأهمية لتلك التقوى البنوية "Hsiao" بمعناها الوسع الدال على التقوى نحو الوالدين · (وهو ما يسميه الشاعر العربى باسم « بر الوالدين » -)

وكل هذه علاقات شخصية خالصة • وأصر كنفوشيوس على أداء الشعائر التقليدية [وهى الأخلاق المؤدية الى الراحة والانسجام فى علاقات النـاس بعضهم ببعض] ، ومناسـك الأسلاف • ولعل الصنف الأول هو شـعائر الحيـاة المهـذبة لأعضاء الطبقات العليا ، ولعل الثانى فى صيانته للتقاليـد العائلية يساعد على الاحتفاظ بالامتيازات الاجتماعية •

ويحس المرء بأن كنفوشيوس كان يكن للموسيقا أعظم التقدير • فان « رقص التتابع » وما يصحبه من موسـيقا كان يبدو له شيئا « رائع الجمال ورائع الطيبة » ، كمـا أن رقصة الحرب كانت تتصف عنده « برائع الجمال ولكن ليس برائع الطيبة » • فأما اعتبـاره الموسيقا وسيلة من وسـائل التربية فلا يعنى أنه كان يعوزه الاستمتاع بها فى حد ذاتها • يقول « كتاب الموسيقا » • الذى يضمه « كتاب الشعائر » : « الموسيقا هى التعبير عن الفرح » • ويبدو أن فى الاستمتاع بالموسيقا بعض الدليل على أهمية التاريخ ، ومع ذلك فمن الواضح أن الموسيقا كانت من أقل الفنـون تطـورا ببـلاد الصين •

وربما كان كنفوشيوس ممن اقتنعوا بأن التاريخ يمضى عـلى مبـدأ من العـدالة : فالطيبون سعداء ، والخبيثون هم التعساء • « وكل من كان طيبا حقا لا يمكن البتة أن يكـون تعسا ، وكل من هو عاقل حقا لا يمكن أن يلم به الارتباك • وكل من اتصـف حقا بالشـجاعة لا يداخله الخـوف أبدا • وحياة الانسان نفسـها هى الأمانة ، من حيث انه بدونهـا يكون من المحظـوظين حقـا ان هـو نجا بحيـاته » • وكان كنفوشيوس على الجملة يتجنب الخوض فى المناقشات الغيبية [الميتافيزيقية] • فان كان مبدأ « التاو » قد تشـكل عـلى الاطلاق فى زمانه [وهو أمر يمـكن انكاره] فانه لم يكن يشغل نفسه بالمبدأ الفلسفى « للتاو » بوصفه الغاية القصوى غير المرئية • وكان لمصـطلح « التاو » عنـده نفس معنـاه

المعروف « النهج أو الصراط » والانتظام والترتيب والانسجام . والحياة والتاريخ معناهما عنده الخبرات التجريبية المختبرة في الحياة العادية . وهو لم ينكر الوجود الواقعي للأرواح المتعددة الاحيائية [الأرواحية المنسوبة الى مذهب Animism] الشائع بين الناس ، ولكنه في الواقع العملي كان يتجاهل تلك الأرواح . وكان يرفض كل فكرة عن الله تأخذ بالتشبيه (Anthropomorphy) ، على أنه مع ذلك ـ تحت مصطلح « السماء » ، ـ اعترف بوجود قوة تسيطر على حيوات الناس . ولابد للانسان من الخضوع لما تقدره « السماء » عليه . وفوق هذا ، « فان كل من وضع نفسه في سبيل الضلال بالنسبة « للسماء » لم يبق لديه أية وسيلة أخرى للتكفير) .

وقد شكا تزوكونج من أن كنفوشيوس لم يشأ أن يتحدث بكلمة واحدة عن « طرائق السماء » . وليست هناك أدنى اشارة تدل على أن كنفوشيوس اعتبر أن معنى التاريخ هو حالة يتوصل اليها خارج هذه الحياة . اذ أن المعنى موجود في التاريخ في أثناء مضيه قدما . وقد استعرض كنفوشيوس حياته حسبما يروى جزء آخر من « المختارات الأدبية » ، فقال : « في الخامسة عشرة أكببت ملء فؤادي على التعلم . وفي الثلاثين كنت رسخت قدمي على ظهر البسيطة . وفي الأربعين ، لم أعد أعاني أية ارتباكات . وفي الخمسين عرفت ما تأمر به السماء من أوامر . وفي الستين سمعت تلك الأوامر بأذن مصيخة . وفي السبعين استطعت اتباع ما يمليه على قلبي ، وذلك ان ما كنت أرغب فيه لم يعد يتجاوز حدود الصواب » . ومما يسجل عنه أيضا قوله مع ايماءة الى نفسه فيما يرجح : « ذلك طبع الرجل : فهو من الاكباب على تنوير الشغوف المشتاق بحيث ينسى ما يمسه من جوع ، ويحس من السعادة بفعل ذلك ، بحيث ينسى مرارة

نصيبه ، ولا يدرك أن الشيخوخة أقرب اليه من حبل الوريد.
ويقول : « ان المواد الأربع فى تعاليمه هى : الثقافة وادارة الشئون والولاء لولاة الأمور والبر بالوعود » .

ويمكن استنباط ما عليه الكنفوشيوسية المبكرة من طابع الطبقية الهرمية ، بل حتى الطابع الاقطاعى مما أبداه موتى [بين ؟ ٥٠٠ ـ ٣٩٦ ق.م] من معارضة . بدأ موتى آراءه برفض جميع ألوان التفريق والتمييز المقامة على أساس العلاقات الطبيعية لكل من العائلة والطبقات الاجتماعية التقليدية ، وذهب بعد ذلك الى أن المبدأ الخلقى الأساسى هو مبدأ « الحب الشامل » . وفوق هذا ، فانه ارتأى أن يكون المعول فى تقلد مناصب الادارة الحكومية أو الوظائف الاجتماعية المهمة الأخرى هو الجدارة والقدرة على اجادة القيام بأعباء الوظائف ، لا أن يعتمد ذلك على ميلاد الفرد فى طبقة اجتماعية سامية . واحتج موتى على ادارة دولاب التاريخ وفق النظام الاجتماعى التقليدى . وعلى النقيض من غموض كنفوشيوس فيما يتعلق « بالسماء » ومن تجاهله اياها على وجه العموم ، فان موتى أصر على أن « السماء » هى التى استوجبت اظهار الحب الشامل بين الناس ، وان « السماء » تثيب الأفراد أو تعاقبهم بقدر تمشيهم وفق ارادتها أو مخالفتهم لها . ويبدو أن تعاليمه تحتوى على تحد لطريقة العيش التى تحيا عليها الطبقات العليا من المجتمع.
ولعل ما انطبع فى خاطره حول املاق الجمهرة الغفيرة من الناس ، هو الذى دعاه الى التأكيد على الرفاهية الاقتصادية بوصفها قواما للرفاهية البدنية ، والى لفت الأنظار قسرا الى ذوى النزعة النفعية بهذا المعنى بموقفه المحتقر للموسيقا والشعائر وكل ما لا يمت الى مذهب النفعية بسبب . ولاشك أن من السهل فهم الأسباب التى من أجلها لم يعمر مذهب موتى (Mohism) طويلا فى التاريخ الصينى : ذلك بأن من سيطروا على شئون الصين وجدوا مصلحتهم تعبر عنها

الكنفوشيوسية • حتى لقد قدمت بعض اقتراحات باحراق كتابات الفلسفات المعارضة ، ومهما يكن من أمر ، فان أنصارها قد حيل بينهم وبين تولى أية مناصب ذات نفوذ فى البلاد •

ومن الواضح أن منكيوس (Mencius) ، [٣٧١ ـ ٢٨٩ ؟ ق•م] ، لم يحظ بالتفات كبير من أحد فى أثناء حياته ، ومن ثم لم يحصل الا فى عهد اسرة صنج على الاعتراف الرسمى بعمله ، الذى يوصف بأنه « كتاب منكيوس » • وقد حاول مستعينا بما يمكن تسميته باسم التحليل النفسى أن يثبت أن الكنفوشيوسية تتطابق وتكوين العقل البشرى • وعلى هذا الأساس اتخذ لنفسه مركزا محددا فى مناقشة لها بعض الشأن حول طبيعة التاريخ • وقد ذهب الى أن الطبيعة البشرية طيبة بفطرتها وأصلها • ودافع عن هذا الرأى مناهضا بذلك آراء ثلاثة أخرى ، تذهب الى (١) انها لا هى بالطيبة ولا بالخبيثة ، (٢) أن بها عناصر طيبة وأخرى خبيثة ، (٣) أن بعض الرجال طيبون بفطرتهم وبعضهم الآخر خبيثون ، وحاج منكيوس بأن جميع الناس ينطوون بطبيعتهم على احساس بالرحمة نحو الغير ، وأن بهم احساسا بالخجل يصرفهم عن الشر ، واحساسا بالحياء يتجه نحو المجاملة ، وحاسة قادرة على التمييز بين الصواب والخطأ • واحراز هذه الصفات هو الذى يميز الناس من الكائنات دون الانسانية • فالعقول تتفق فى المعقولية والصلاح [البر] • فبهاتين الخلتين تنشأ امكانية قيام تلك الحياة الخيرة الطيبة التى هى معنى التاريخ ، وراح منكيوس على أساس تحليله النفسى ، يرفض أنانية يانج وتعاليم موتى فى الحب الشامل الخالى من التمييز ، والأصل فى جميع أنواع المسئولية عنده هو مسئولية الفرد عن نفسه ، والأصل فى جميع الواجبات هو واجب الفرد نحو والديه • وأصر منكيوس على أنه يوجد فى طبيعة الناس أساس للتمييزات الاجتماعية التى تذهب

اليها الكونفوشيوسية • ويظهر الناس درجات متفـاوتة من الحب ، وهي ترجع الى حد ليس بالقليـل ، الى رابطة الدم والى أنواع خاصة من العلاقات بين الجماعات • واذا نظر الى العالم من وجهـة نظر طبيعة الانسـان باعتبـارها عقليـة وخلقيـة ، فان منـكيوس اعتبر ذلك العـالم مماثلا مماثلة جوهرية لتلك الطبيعة البشرية : وهى كالتالى عـلى حد قول الدكتور فنج يولان : « ان المبـادىء الخلقية التى يعتنقهـا الناس هى بالمثل مبادىء غيبية للعالم » • على أن القصد من ذلك لم يكن الا توضيح ما كان ضمنيا فى فكرة كنفوشيوس العامة عن « التاو » وهكذا يتضح أنه مهما يكن التأكيد الذى يمكن اضفاؤه على السنن الأخلاقية والاجتماعية فى مذهب كنفوشيوس ، فليس من الصواب فى شىء اعتبارها قائمـة على المذهب النسبى ، بمعنى انها ثمرة اجتماعية تتغير مـع الزمان والمكان ، كما تمثلها أحيانا النظريات الاجتماعيـة عند الغربيين • وقد اعترف منكيوس بجـانب من المستيقية الدينية ، ولعل هذا هو السر فى الالتفات الذى يوليـه اياه أنصار الكنفوشيوسية الجديدة • على أن كتاباته الباقية حتى الآن لا تحتوى على أى تطوير لهذه النزعة الدينية المستيقية • كتب يقول : « لا جدال فى أن الأشياء جميعا تعد كاملة فى داخل نفوسـنا • وليس ثم بهجـة أعظم من تحقيق ذلك عن طريق التهذيب الذاتى» • وهو لم يكن يرى فى الكنفوشيوسية مجرد سنن أخلاقيـة اجتماعية وحسب ، وانما يراها خبرة بالنفس باعتبارها فى حالة وحدة وانسجام مع الكل الكونى • وهناك بيانان فى « كتـاب منكيوس » يشـيران الى التاريخ اشارة مباشرة • أحدهما يؤكد وجود تذبذب فى التاريخ : « فآنا يكون هناك نظام ، وآنا فوضى » • « والبيان الثانى به شىء من الاشارة الى الفكرة التقليدية عن الملوك الحـكماء : « ينهض ملك كل خمسمائة سنة » •

ومع ما لقيه منكيوس فى البداية من اهمال ، أصبح هسون تسى (٣٢٠ ـ ٢٣٥ ق٠م٠) هو الذى يعد صاحب اليد الطولى فى تشكيل الكنفوشيوسية القديمة ٠ فانه أطرح التعاليم السلبية للتاوية الفلسفية ٠ « ان البلوغ الى درجة الاتمام بوساطة النشاط الخالى من كل حركة وعمل ، وان الانجاز بدون محاولة أى انجاز ، هو ما ينبغى وصفه بأنه وظيفة السماء وعملها ٠ ومهما يبلغ من عمق تلك الوظيفة ، ومهما يبلغ من عظمها ، ومهما يبلغ من حيوية فحواها ، فان الانسان البالغ القمة فى الفهم لا يتأمل تلك الوظيفة الى أى حد ، ولا هو يحصل عن طريقها على أية قدرة اضافية ، ولا هو يغوص فيها سابرا : « وهكذا لزم هسون تسى خبرة الحياة العادية ، وشأن كنفوشيوس ـ لم يتجه الى انكار الغيبيات ، بل اقتصر على تجاهلها ٠ « ان طريق السماء وان يكن عميقا ، فان هذا الانسان ليأبى أن يركز عليه عميق التفكير ، وهو وان يكن شيئا عظيما ، فانه لن يستخدم قدرته فى تفحصه وبحثه ، وهو وان يكن حافلا بالأسرار ، فانه يأبى أن يتقصى أسراره » ٠ كان موقفه فى جوهره خلقيا ٠ وقد حاول أن يبين كيف يمكن التغلب على الشرور البشرية ٠ وعلى النقيض من منكيوس ، دفع بأن الشر موجود خلقة فى طبيعة الانسان ، فأما الخير والطيبة فشىء يكتسب ٠ والناس يلتمسون لأنفسهم الكسب ، ونتيجة لذلك ينشب النزاع مع الشقاق الاجتماعى ٠ فرغبة الانسان فى الاتصاف بالخير مردها أن طبيعته الأصلية شريرة ، ويحتاج الانسان الى حكومة تحكمه، لأنه شرير بفطرته، ومع ذلك فان هسون تسى اعترف صراحة بحرية الانسان واختياره ، وهى الخلة التى يستطيع بها أن يحتاز ويكتسب ٠ «والعقل حاكم البدن وسيد الروح ٠٠٠ وهو فى حد ذاته يقوم بالاختيارات ، وهو فى حد ذاته المسبب للحركة والعمل ، وهو بذاته يوقف الحركة

والعمل » • وهناك نتائج طبيعية لأعمال المرء ، وهى نتائج لا مفر منها • « وينبغى للعقل أن يتحمل ما يختاره فليس فى مقدوره منع نتائج أعماله من الظهور فى ذواتها » • « وبهذه الحرية ينفسح الطريق أمام الجميع لبلوغ المثل الأعلى « الفائق » • فالذين لا يصلون الى ذلك المثل الأعلى « لا يشاءون » فعل ذلك • « ويمكن أى انسان أن يصبح طيبا خيرا باتباعه قواعد السلوك والخلق الصائب التى يعلمها للناس المذهب الكنفوشيوسى على أساس مبادىء الملوك الحكماء • فحياة الخير لا يجوز أن تتوقع باعتبارها هبة من الطبيعة أو الله • وقد وصفها هسون تسى كأنما هى مجرد شىء له وجود فى الأرض : « فالميلاد هو بداية الانسان ، والموت هو نهاية الانسان • فان كانت الحياة بأكملها جميلة»، « فان طريق الانسان يعد كاملا » وانما الذى يمارس المعانى الحقة للتاريخ هو « الانسان الفائق Superior » ، فالمبادىء هى التى تحكمه ، ونظرا لما طبع عليه من الكرامة والقناعة • والنظام وقوة الارادة يتوفر له احترام الذات • والطيبون من الناس مصدر جذل لديه ، كما أن الشريرين يولدون فى نفسه الأسى ، وهو محسن وعادل ، وهو يوجه التفاته الى ارضاء جميع جوانب الحياة ، محاولا أن يربط الجميع برباط الانسجام • وهو يرضى رغباته وشهواته فى ظل رقابة المبادىء • وهو يمنح ما حوته الطبيعة من علة ومعلول ماهما جديران به من اعتراف ، ويجاهد فى سبيل القوة الذهنية وفى سبيل الاستخدام الخلقى للقوة ••

والكنفوشيوسية فى صورتها التى يعرضها هسون تسى لا تجعل للتاريخ هدفا فى مستقبل بعيد ، كما أنها لا تبذل أية محاولة للعثور على ما فى التاريخ من معنى بنسبته الى أى شىء « متسام » ، أو أى شىء « أبدى » أو يتجاوز حدود التاريخ • وتؤيد الكونفوشيوسية مذهبا للحياة يتسلط عليه « هنا والآن » سلام العقل ورخاء البال والانسجام

الاجتماعى • ومع أن الطبيعة خلقت الناس متشابهين بدرجة ما ، فان هناك من الفوارق بينهم ما يجعلهم يشغلون مراكز متفاوتة ويقومون بوظائف مختلفة فى المجتمع • وانما الذى يميز الانسان عن سائر الحيوان قدرته على التنظيم الاجتماعى • ولا سبيل للناس الى اشباع كل رغبة يشتهونها • على أن فى امكانهم الحصول على كل ما يهيئهم له وضعهم الاجتماعى • « فالصغير يخدم المسن ، والوضيع يخدم الرفيع ، والمنحط يخدم الشريف — وتلك هى قاعدة العالم السارية» • « فلو ترك الناس مراكزهم ولم يخدم بعضهم بعضا ، فالعاقبة هى الفقر ، واذا قامت جموع الجماهير بلا تقسيم اجتماعى ، فالعاقبة هى النزاع » • وأكد هسون تسى النواحى الاجتماعية الكنفوشيوسية • ويركز كتاب التعلم الكبير The Great Learning الذى يظن أنه صنف فى القرن الرابع قبل الميلاد ، على الناحية الاجتماعية ، وبينما هو يفعل ذلك يعلم أن « دفع الذات الفردة الى الازهار ينبغى أن يتخذ منه — أساسا وجذرا — بدايات الجذور » • ويؤكد كتاب السفلة فى أفعالهم The Mean in Action ، وهو يرجع تقريبا الى المدة نفسها ، ان الانسان ينبغى أن يكون « صادقا وحقيقيا فى ذاته » • وفوق هذا ، فانه على الرغم من عدم وجود بحث فنى « لحرية الارادة » ، فان جميع أشكال الكنفوشيوسية تعترف بضرورة وجود اتجاه خاص وعمل خاص يختص به الفرد •

ومما يجدر ذكره أن التاويين الأوائل وأنصار كنفوشيوس وأتباع موتى قد أشاروا جميعا الى ملوك حكماء مزعومين والى ماض ظللته ظروف مثالية • فكأن نظرتهم الى التاريخ انما كانت تلتفت الى الخلف ولا تشخص بالبصر نحو الامام • ورفع لواء المعارضة لذلك الاتجاه رجال المدرسة القانونية التى يرأسها هان فاى تسى (المتوفى ٢٣٣ ق•م) • كما أن هان فاى تسى فى معارضته للرأى القائل بأن على

كل من ينشد السعادة العودة الى طرائق الحياة فى الماضى ـ أصر على أساس مبدأ للنسبية اعتنقه ، على أن الظروف المختلفة للأزمان المختلفة تستدعى أفكارا واعمالا مختلفة .
ويقول الدكتور فنج يولان : « ان هذه الفكرة التى ترى فى التاريخ عملية دائبة التغير ... كانت ثورية تناهض جميع النظريات السائدة التى تؤمن بها المدارس الأخرى ببلاد الصين القديمة . واعتمادا على وجهة نظر تأخذ بالمذهب الذى حول هدف الناس فى التاريخ مع انبعاث دوافعهم عن اعتبارات اجتماعية ، دعت مدرسة القانونيين الى حمل الناس على مسايرة المستلزمات الاجتماعية بوساطة القوانين التى تنفذ بصرامة ، تلك القوانين التى تقدم فرص اللذة والسرور لكل مطيع وتؤكد انزال الألم بمن عداهم . ومع أن تعاليم مدرسة القانونيين راقت بعض الحكام وأهل الادارة والتدبير ، فان دائرة انتشارها لم تتسع ومدة تقبلها لم تطل بالدرجة الكافية لتقويض الكنفوشيوسية التقليدية .

على أن المذهب الكنفوشيوسى الذى اشتد الف الصينيين له منذ القرن العاشر هو مذهب الكنفوشيوسية الحديثة الذى وضعت صيغه وأحكمت تفاصيله فى عهد أسرة صنج . وهو مذهب له مجال أرحب وأفكار فلسفية أكثر من الكنفوشيوسية المبكرة . وهو ينطوى ضمنا على تقبل للأصول الجوهرية للتاوية ، كما تخالطه بعض مؤثرات محققة للبوذية . اذ لم تقنع التاوية ولا البوذية بالاهتمام الشخصى ولا الاجتماعى بالخبرات الانسانية المدركة المرتبطة بالزمان والمكان الحاليين « هنا والآن » . ذلك أنهما أدركتا وجود شيء يتجاوز الشخصيات الفردة الظاهرية فى العلاقات الاجتماعية الدنيوية . وكلتا العقيدتين ترى أن العلاقة القائمة بين الفرد الظاهر وبين النهائى الأقصى انما هى علاقة « مستيقية » جوهرا . فان تلك العلاقة تعد شيئا جوهريا فى حياة الفرد أو تاريخه . وقد سلمت الكنفوشيوسية الحديثة بهذا أيضا ،

بل الحق ان مفهومها الأساسي ومدارها المركزي انما هو مفهومها عن « النهائي الأعظم » (The Great Ultimate) • ومع هذا ، فان ذلك لم يفسر على أنه انسحاب من شئون الحياة الفردية والاجتماعية على الصورة التي تصورتها الكنفوشيوسية المبكرة • اذ ليس هنا أي انفصال عن المناشط السياسية الرامية الى السلام في أثناء التأمل في التاو ، ولا تخل عن الحياة العادية للانخراط في سلك الديرية • وتم الاحتفاظ بالنواحي العملية للكنفوشيوسية المبكرة : مع تصور تلك النواحي من وجهة نظر النهائي المتأصل بشكليه [الحال في الطبيعة] والمتسامي ، ذلك النهائي الذي أصبح آنذاك موضع الاعتراف والتأكيد • على أن مواصلة التمشي والكنفوشيوسية المبكرة تتجلى في الوضع المتسلط الذي تبوأه ما سمي باسم « الكتب الأربعة » : « المختارات الأدبية لكنفوشيوس » ــ و « السفلة في أفعالهم » ــ و « التعلم الكبير » ــ و « سفر منكيوس » • وقد أعدت الكنفوشيوسية الحديثة العدة لسد الحاجات الميتافيزيقية والمستيقية التي أهملتها الكنفوشيوسية القديمة • ذلك أن التاريخ يحتوي على شيء آخر عدا ما يتجلى في محضر الظواهر المدركة ، ورغم هذا ، فان ذلك الشيء الآخر لابد من ادراكه في الحياة وهي تمضي في سبيلها : وهو لا يقدم في صورة هدف لابد من بلوغه في حياة أخرى بتحقيق احرازات متتابعة • ومن أهم النقاط التي تنتقد بها الكنفوشيوسية الحديثة المذهب البوذي ، أن ذلك المذهب أسرف في دعوته الناس الى الانسحاب من الشئون العادية للحياة الاجتماعية •

وربما كان مذهب الكنفوشيوسية الحديثة أعلى وأغنى ما بلغه الفكر الصيني الفلسفي من تعبير • واستنادا الى ما بلغه الفيلسوف تشوهسي (١١٣٠ ــ ١٢٠٠ للميلاد) فيما بعد من تأثير ، فانه يعد أبرز مفكري ذلك المذهب العظماء الكثيري العدد • والحق ان هذا البيان ينبغي أن يقتصر على

بعض نواحي تفكيره بأعتبار ذلك التفكير ممثلا وموضحا للكنفوشيوسية الحديثة • ورغم أنه قد يبدو بعيدا عن الصواب ان يوصف نظامه الفلسفي بأنه « مثالى » Idealistic بالمعنى المعروف عندنا ببلاد الغرب عن ذلك المصطلح ، فلا شك أنه ركز التأكيد على ضرورة « سيطرة » العقل • وقد وصف قدرات العقل بأنها مناقضة لتجديدات البدن • « اذ يبلغ من دقته (يعنى العقل) أن ينفذ من خلال سن الشعرة نفسها أو أصغر ورقة من العشب وعندئذ أصبح على وعى بهما • ويبلغ من عظمه أنه ليس ثمة مكان وحيد يقع بين نظير السمت ونقطة السمت ، أو داخل نقاط الجهات الأصلية الأربع التى تشير اليها البوصلة ، الا ويوجد فيها ، ولو رجعنا الى الخلف فى آماد عصور الماضى التى لا يحصيها عد ، أو تقدمنا أماما فى فترات المجهول من الازمان القابلة ، لوجدنا فكرى يصل الى آخر مداها فى نفس اللحظة التى ينطلق فيها من عقلى • ان ذلك العقل شىء لا يسبر غوره فى ناحية فطنته الروحية ، شىء غير محس ولا ملموس الى اقصى حد ، كما أنه الى أقصى حد • • • عجيب مدهش فيما انطوى عليه من دقة تنظيم » • وهو يتفق مع منكيوس فى أن العقل بوصفه شيئا روحيا ، يعتبر بالفطرة خيرا وطيبا فى أصله • أجل ربما نشأ الشر فى « العقل الطبيعى » ، وأعنى بذلك العقل باعتباره منشغلا ببساطة بعالم الحس والشئون الدنيوية العادية ، بعيدا عن الفكر فى مبادئه الروحية الداخلية • على أن عدم التمكن من بلوغ الاتزان الروحى انما يرجع أساسا الى الانشغال الأنانى بالشىء الفيزياتى والمبالغة فى قدر ذلك الفيزيائى • ومع أنه ليس ثمة أحد لا يمتلك عقلا ، فان معظم الناس لا يعرفون الا الرغبة فى الكسب ، حتى يصبح العقل مغمورا تماما فى تلك الرغبة • وسواء أكانوا نازلين ببلادهم أم ظاعنين فى الخارج ، فان

كل ما يلتمسونه هو المتعة والانغماس فى الملذات وكل فكرة لهم ، لا تكاد تولد حتى تدور حول هذه الأمور » ·

والكنفوشيوسية الحديثة تعد غيبية [ميتافيزيقية] من حيث المفهوم الأساسى ، الذى هو مفهوم « النهائى الأعظم » · ويبدو أن هذه طريقة أخرى للتعبير عما اعتبرته من قبل معنى قديما ومبكرا «للتاو» ، كما انه فى جوهره هو بالذات نفس « التاو » الذى لا سبيل الى تسميته والذى تدور حوله الفلسفة التاوية المبكرة ، ولكن يرجح أن التأكيد فى الكنفوشيوسية الحديثة مركز على الناحية الأخلاقية ، كما أن تأثيرها الاكبر خلقى · اذ لا شك أن استخدامها لمصطلح « التاو » خلقى قطعا · ويعرف معنى التاريخ مما للعقل من طابع خلقى جوهرا كما يمارس باطنيا بوساطة الفرد وبوساطة الاعتراف بامكان تطبيق مبادئه تطبيقا شاملا · انه أساس ذلك « الخير » الذى يسمونه « جن ... » ويرتبط بهذا الخير كل من البر أو العدالة ، والتوقير والحكمة والاخلاص · فتحقيق هذه الخلال فى الحياة « هنا والآن » يعد فى الدرجة الأولى الى أقصى حد محورا للاتزان وقطبا لقيمة العملية التاريخية · ويقول الدكتور تشان : ان الكون من وجهة نظر الكونفوشيوسية الحديثة بوصفه راجعا الى التذبذب الأبدى لما حواه « النهائى الأعظم » من « ين ويانج » ــ يعد « نظاما تم تطوره وتنسيقه بشكل مطرد » والانسجام « هو قانونه الذى لا سبيل الى تغييره » · وكل واحدة من الكثرة الموفورة من تفاصيل الخبرة تعد نسيج وحدها · ومع ذلك ، فنظرا لتخلل « العقل » نفسه فى الجميع ، فانها ينبغى أن تقبل فى الكل « وهكذا » يصبح الناس جميعا اخوة وأخوات ، « وتصبح الأشياء جميعا رفاقا لى » · وربما وجدت اشارة تومىء الى اشباع يكتسب فى أثناء علاقة [مستيقية] مع « النهائى الأعظم » ، حتى فى ثنايا تجليته « ذاته » فى « الطبيعة » وفى المجتمع البشرى ·

ويوضح تشوهسى فى معـارضته لتعاليم الرهبان البـوذيين الذين انتشروا في كثير من اصقاع الصين ، انه يرفض بشدة نظرية تقمص الأرواح ·

وهناك المعنى الجـوهرى للتاريخ عند وانج يانج منج [١٤٧٢ـ١٥٢٩ للميلاد] ويتضمنه قوله : ان المشغلة او الحرفه الوحيدة الجديرة بالاهتمام هى سعى المرء آن يكون حكيما ، اى ان يحقق الشخصية الخلقية والسلوك الاجتماعى المتضمن في المثل الكنفوشيوسى الأعـلى · وليست هـذه بحيـاة تأمل [كالتى اعتبر ان البوذيين يعلمونهـا للنـاس] ، بل حياة نشاط فى المركز الذى يجد فيه المرء نفسه · وعلى الرغم من ذلك ، فان وانج يانج منج لم يبحث عن معنى التـاريخ فى الحركات الاجتماعية التقدمية الهادفة الى هدف فى المستقبل · « فأسمى الفضائل فطرية فى طبع العقـل » · « والبحث فى طبيعة العقل أهم شأنا من العوامل الخارجية · عوامل خبرة الحواس والاختلاط الاجتماعى · على انه لم يحاول تحـويل وجهة الرجال من الخبرات العادية الى علاقة مستيقية دينية ، الى « كائن سرمدى » ، كأنما ينحصر هدف التاريخ فى شىء ما يتسامى على الزمن · أجل انه اشار بالفعل فى بعض الاحيان الى الخلود وتقمص الأرواح ، ولـكن المناسـبات التى عرض فيها لذكر ذلك قليلة وعارضة ، وربما أمكننا التشـكك فى أنه نشد أى معنى من معانى التاريخ فى تلك المناسـبات · وهو يرى أن الطيبة بأشكالها جميعا يمكن ممارستها فى هذه الحياة ، وذلك ان أساسها يكمن فى طبيعة العقل الجوانية · فأما الظروف المتغيرة للوجود ، فلا حاجة أن يكون فيها ، أو قل لا ينبغى أن يكون فيها ــ أى نقص فى الاتزان الجـوانى بسبب ما يعترى المرء من اخفاق أو نجاح · وذلك أن المتحلى بالفضيلة أو الحكيم يعد « الاخفاق أو النجـاح أو المـوت المبتسر فى ريعان الشباب ، أو طول العمر » « ارادة اقتضتها السماء ، فهى من ثم شىء لا يهيج العقل ولا يزعجه » · وقد

راح وانج يانج منج يتحدى الفكرة القائلة بأن طرائق الحكم المستخدمة فى المــاضى لابد بالضرورة من اســتخدامها • اذ كانت آراؤه حول دراســة التــاريخ برجماتية • « فالعلوم الكلاسيكية الخمسة ، انما هى محض تاريخ ـ التاريخ بقصد تفسير الخير والشر ، ومن أجل التعليم والتحذير • فالخير قد يجوز تماما استخدامه وسيلة للتعليم • وقد ترك الزمن آثار أقدامه لكى يوضح للناس سنته • فأما الشر ، فانه قد يقوم فعلا بعمل النذير المحذر » •

وعند نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين حاول كانج يوواى [١٨٥٨ ـ ١٩٢٧ م] احياء النواحي المهملة فى الكنفوشيوسية المبكرة ، مع تركيز تأكيــد عــلى المضــامين الدينية • ومما كان له أهميته فيما يتعلق بالتاريخ محاولته اعادة استرعاء النظر الى فكرة سبق الايماء الى أنها موجودة فى « كتاب الشعائر » وفى تعقيبات عصر أسرة هان عــلى « حوليات الربيع والخريف » وهى الفــكرة القائلة بأن فى التاريخ أعصرا ثلاثة • وحسبما يروى الدكتور تشان ، فان كانج يوواى ، الذى وصفه الأول بأنه « آخــر العظماء من أتباع المذهب الكنفوشيوسى » ـ صرح بأن هــذه الفكرة قد علمها كنفوشيوس للناس • فان كان الحال كذلك ، فالعجب كل العجب من أنها لقيت قدرا ضئيلا جدا من الاعتبار فى أثناء آماد التاريخ الصينى على طولها • وفى رأى كانج ان المدة الأولى ، وهى عصر فوضى ، « هى عصر كنفوشيوسى » ، مع ضم معظم الزمان انصرم منــذ ذلك الوقت اليهــا • وقد اعتبر أن ظهور الاصلاحات السياسية والاجتماعية بكل من أوربا وأمريكا وزيادة المواصلات بين الشرق والغرب ، تؤذن ببدء المدة الثانية ، وهى « عصر البر » • أما المدة الثالثة ، وهى عصر « السلام الأعظم » فهى قادمة مع استمساك الناس كافة « بالجن Jen » أى بعواطف « القلب الانسانى » •

ـ ٤ ـ

للبوذية تاريخ طويل فى بلاد الصين • وسنعالج فى الفصل التالى شكلها المبكر ، وهو أصيل ببلاد الهند ، على انها طورت فى بلاد الصين بطريقة خاصة ومتميزة ، بحيث يصر العلماء على أن الباحثين ينبغي أن يتحدثوا عنها بوصفها « البوذية الصينية » كفرع مستقل • وانقضى ردح من الزمان بلغت فيه الحياة الديرية البوذية من الانتشار بحيث اضطرت السلطات فى يوم من الأيام الى تحريمها والقضاء عليها صونا للمصلحة العامة من شرها • وتدل الفكرة القائلة بأن جوتاما كان من تلاميذ لاهوتزى ، على أن اتجاه البوذية كان يعد مشابها لاتجاه التاوية • والبوذية الصينية مذهب سكونى بالضرورة ، ولذا فهى تتوافق والمزاج الصينى • ولا شك أن مبدأ التقلب الدائم وعدم دوام كل مقومات العمليات التاريخية كانت مما شجع على أخذ الأمور على علاتها وحسبما تجيء • مع احساس بعدم التعلق بالمشاغل الدنيوية ، ومن ثم بامتناع كل قلق عليها أو بذل أى مجهود مضن من أجلها • على أن وانج يانج منج ذهب الى أن الكنفوشيوسيين الخلصاء لا البوذيين هم الذين يتحلون حقا بصفة الاتزان • « ويدل ادعاء البوذيين بخلوهم تماما من كل تعلق بالظواهر ، على أنهم بالفعل أصحاب تعلق بتلك الظواهر • كما أن عدم ادعائنا نحن الكنفوشيين بأنه ليس لنا أى تعلق بالظواهر ، يدل على أننا لسنا أصحاب تعلق بها • • • ويخاف البوذيون من المتاعب التى تنطوى عليها العلاقات الانسانية وبهذا يهربون منها • وهم مضطرون الى الفرار لأنهم متعلقون فعلا بها • فهناك على سبيل المثال العلاقة بين الأب والابن ، وهى علاقة نستجيب لها بالحب • وهناك العلاقة بين العاهل والرعية ، وهى علاقة نستجيب لها بالبر والصلاح • وهناك

العلاقة بين الزوج وزوجه ، وننظر اليها بعين الاحترام المتبادل . فنحن قوم ليس لدينا أى تعلق بالظواهر » . وكانت البوذية الصينية تتصف على نحو متميز بالتأمل الباطنى كنقيض للتعبير الكنفوشيوسى المتزن عن جميع نواحى الحياة البشرية . وليس هناك الا أقل الشواهد على أن مذهب تقمص الأرواح عند البوذيين الذى يجعل هدف التاريخ هو البلوغ النهائى الى « النرفانا » [أى صفاء النفس] ، كان له أى أثر فى احداث تغيير جذرى فى اتجاهات الصينيين من التاريخ .

— ٥ —

ربما ذهب بعض الناس بكل من داخل الصين وخارجها ، الى الاعتقاد بأن ما للصين من فلسفات أهلية تعد فى مصاف الدارس المهجور ، أو انها تلفظ أنفاسها الأخيرة ان لم تكن قد لفظتها فعلا ، وأن فكرها وحياتها ينبغى منذ الساعة أن يقوما على أسس غربية . والواقع ان جماهير غفيرة من الطلبة الصينيين قد تلقوا علومهم بكل من أوربا وأمريكا . وكذلك حدث أن بعض مفكرى الصين قد انتهجوا الطرق والأشكال الغربية فى النظر الفلسفى ، ولكن قلما كان منهم من اتخذ الأنماط المثالية أو التأليهية منهجا . وقد ألقى كل من المرحومين جون ديوى والفيلسوف برتراند رسل محاضرات حول الفلسفة ببلاد الصين ، ولكن الفلسفة التى بسطاها كانت فلسفة طبيعية (Naturalistic) ، فلم يكن فيها شىء يشجع الاعتقاد بأن معنى التاريخ يوجد فى حالة قابلة أو يكمن فى علاقة مستيقية بنهائى أعظم « يتسامى فوق الزمن » . وقد انساق الصينيون فى نطاق تقبلهم لشكل طبقى ، وهرمى للتنظيم الاجتماعى ، الى توقع انه متى قام كل فرد بواجبه الخاص تنجز مصلحة الجميع . ذلك انه كانت لديهم حكومات ندر ان اهتمت بالمصلحة العامة . فأما ان الحكومات الوطنية التى ظهرت فى الأزمنة الحديثة لم

تكن الا ضربا من سيطرة للأقلية لا يمت بأدنى سبب الى التمثيل الديمقراطي الحق ، فأمر ربما لم يحدث أى ازعاج للغالبية العظمى من الصينيين • ولكنها من حيث كونها لم توجه القدر الكافى من الالتفات الى المصلحة العامة ، لم تتلق تتأييدا حارا وعاما ضد الشيوعية • اذ يعلن الشيوعيون بكل ما أوتوا من وسيلة للدعاية أن رفاهية الجموع ومصلحتها هى هدفهم الذى اليه يرمون • فأما مثلهم الاجتماعى الأعلى فانهم يمكنهم أن يجدوه ماثلا فى المشاعر الاجتماعية التقليدية • وتومىء « المادية الجدلية للشيوعية » الى وجود أوجه شبه بأشكال الفكر الصينى ، حيث لا يوجد البتة [أو يوجد القليل من] اعتبار « لله » أو حياة مستقبلة • ويحتوى موقف الصينيين من التاريخ على الشيء الكثير مما يمكن وصفه بالأخذ « بالمذهب الطبيعى » ، (Naturalism) . ومن المعلوم ان الطبيعة الجوهرية للشيوعية تأخذ أيضا « بالمذهب الطبيعى » • والشخصية التاوية المستقرة فى كل صينى ربما خضعت بحكم اتجاهه السكونى لتنظيم وحكم شيوعى شأن ما فعلت ازاء اشكال أخرى من الحكم ابان التاريخ الطويل الذى مر ببلاد الصين • ومرد ذلك أن المزاج الصينى يتجه بطبعه الى مجاراة الظروف فى النواحى الظاهرية • على أن الصينى المفرد يدرك أن هناك حرية باطنية لا يستطيع أحد انتزاعها منه • وربما كان ذلك أهم ما فى التاريخ بالنسبة اليه •

وربما شاقنا فى الختام أن نتأمل الاتجاهات الرئيسية لدى مفكر صينى معاصر خال من شيوعية الصين المعاصرة • وذلك المفكر هو لن يوتانج ، وهو ابن ابن لراع صينى لاحدى الكنائس المسيحية ، كما أنه أعد نفسه ليصبح قسيسا مسيحيا • وقد عاش طويلا ببلاد الغرب ودرس طرائقه فى التفكير وأساليبه فى العيش • ومع أنه فى السنوات الأخيرة

أعلن ارتداده الى المسيحية ثانية ، فان كتابه «أهمية العيش» The Importance of Living [١٩٣٧] كانت له أهمية من ناحية جزئية لما حوى من أسباب نبذه المسيحية فى ذلك الوقت ، ولما حوى من نقد للشيء الكثير من الحضارة الغربية . فانه كتب فى أول جملة افتتح بها الكتاب : «أقدم للقراء فيما يلى وجهة نظر الصينيين ... وهى رأى فى الحياة والأشياء كما رآها أفضل العقول الصينية وأحكمها ، وعبروا عنها فى حكمتهم الشعبية وأدبهم » . وهو وان سمى كتابه « شهادة شخصية » ، وأسمى نفسه « طفلا للشرق والغرب » ، فانه دعم مركزه كصينى بكثرة الرجوع الى الأدب الصينى ، مع التركيز على الفيلسوف شوانجتزى والشاعر تاو يوان منج .

ويرى لن يوتانج ان الصينى لا يشغل وقته الا بالقليل — ان وجد — من الاعتقاد بحياة مستقبله للفرد . ان هناك اهتماما من كل امرىء بأسلافه وذريته : أى بالتعاقب التاريخى للعائلة . والفكرة الوحيدة لديهم حول الخلود الموجودة ضمنيا انما تدور حول خلود الجنس« Race »، ودوام عمل المرء ونفوذه . ويلتمس معنى التاريخ ويعثر عليه أولا وقبل كل شيء فى حياة الفرد الدنيوية . « فاذا جردت قضية العيش من صفة الخلود ، أصبحت قضية سهلة . وخلاصتها ما يلى : وهى اننا نحن الكائنات البشرية نملك فترة محدودة من العيش على ظهر الأرض ، يندر أن تزيد على سبعين سنة ، وبناء على ذلك وجب علينا أن نرتب حياتنا بحيث نعيش على أسعد وجه ممكن فى ظل مجموعة معينة من الظروف . وينشب الفلاسفة الصينيون نواجذهم فى الحياة نفسها ، ويسألون أنفسهم السؤال الواحد الأبدى الوحيد : كيف ينبغى لنا أن نعيش ؟ » .

ومع أن لن يوتانج اعترف فى عدة مناسبات اننا ننساب فى « نهر عام للحياة » ، فانه أصر على أن الفرد شيء أساسى : « ان الفلسفة لا تبدأ فقط بالفرد ، وانما تنتهى أيضا

بالفرد • « وذلك لأن الفرد هو الحقيقة النهائية للحياة • فهو غاية في حد ذاته ، وليس وسيلة لخلائق أخرى مما يخلقه العقل البشرى» • ونقل عن كنفوشيوس قوله : «من الامبراطور فنازلا الى الرجل العامي العادى ، يكون تهذيب الحياة الشخصية هو الأساس لكل شيء • « ومهما يكن من أمر ، فان الصينيين ينظرون الى الفرد باعتباره داخل مجموع العائلة • وان أحدا لا يفكر فيه على الاطلاق على أنه أعظم من العائلة أو أهم شأنا ، وذلك لأنه « ان كان بمعزل عن العائلة تجرد من كل وجود حق » • ويرى لن يوتانج « أن حاسة الوعى العائلى يرجح انها الشكل الوحيد لروح الفريق أو وعى الجماعة فى الحياة الصينية » • ولو اطلعت على كتابه من أوله الى آخره ، لم تجد فيه اشارة الى أى انشغال عام ببذل الجهود للوصول الى التقدم فى مضمار السياسة واحراز التقدم للدولة مستقبلا » • ويتجلى عنده على الدوام «اعتبار الانسان أعظم قدرا وأكثر أهمية من الدولة » • وضرب موعد يسبق أوانه مقدما بثلاثة أسابيع شيء غير معروف ببلاد الصين » • وازاء وجود هذا الاتجاه ، لا يحتمل أن يمنح الصينيون ممن طبعت عقليتهم على الغرار التقليدى ، قدرا كبيرا من تفكيرهم لتاريخ الصين فى المستقبل ، أو يبذلوا فى سبيله كبير جهد • والواقع أن لن يوتانج لم يورد أى شاهد على ما ذهب اليه •

وينبغى أن يكون هدف هذه الحياة هو الوصول الى اشباع منسجم للغرائز الممنوحة لنا • الجسدية منها والروحية • ومذهب الاعتدال ضرورى وجوهرى لبلوغ هذا الانسجام • وهذا المبدأ تعبير عن أسلم وأصح مثل أعلى للحياة كشفه العقل الصيني • وتنطوى الفلسفة التي يسمونها

« بفلسفة النصف والنصف » على نفس المضمون · وجميع الناس ـ بقدر ما يتعلق ذلك بمواقفهم واتجاهاتهم من الأمور انما « يولدون نصف تاويين ونصف كنفوشيين » · ومع ذلك ، فان لن يوتانج وان كان ميالا الى الجد فى عمله ، يروقه الى أقصى حد ما يستمتع به التاويون من رخاوة البال الخالية من كل هم · وقد عقد مقابلة بين الطريقة الصينية فى تناول التاريخ وهى الطريقة السكونية ، وبين الأسلوب الأمريكى فى معالجته وهو الأسلوب النشاطى (Activist) · وتكمن خبرات القيمة فى التاريخ فى أثناء دلوفه أماما · وحيوات الرجال ليست مبرمة مقدرة : اذ يتجلى فيها من صنوف التلقائية ما يقلب رأسا على عقب « تقديرات كل من يتولون بسط الجديد من النظريات والنظم » · ومع ذلك ، فانه اعترف بأن الخبرات بهذه القيم غير مرضية على أكمل وجه : « فالانسان اذ يعيش فى عالم حقيقى ··· لا يبرح مهموما متلهفا الى مثل أعلى » · وهكذا ، فان مركزه على ما وصفناه حتى الآن يمكن أن ينعت بأنه ذو نزعة انسانية (Humanistic) ، فان لن يوتانج أدرك الحاجة الى شىء يفوق « المذهب الانسانى » · « فلن توصف فلسفة بالتمام ، ولا فكرة عن حياة الانسان الروحية بالكفاية ، ما لم نربط أنفسنا بوثائق علاقة مرضية ومنسجمة مع حياة الكون المحيط بنا ··· والانسان يعيش فى عالم فاخر باذخ ، عالم مدهش عجيب كالانسان عينه ، وكل من أنكر العالم الأكبر المحيط به ، أصله ومصيره ، لا يمكن أن يقال عنه انه يملك حياة مرضيا حقا » · وقد كتب يقول : « ان جميع الوثنيين الصينيين » ، « يؤمنون بالله » ، الذى أشيع أسمائه ورودا في الأدب الصيني هو تشاؤوو (Chaowu) أى خالق الأشياء ،

والراجح انه لاحساسه بأن الأبحاث النوعية الخاصة بالاله ، وخاصة منها ما تعلق بالاتجاهات الدينية ، تكاد تكون منعدمة فى الفلسفات الصينية ، قال : « ان الوثنى الصينى من الامانة بحيث يترك خالق الأشياء متربعا فى هالة من الأسرار فى حين يشعر بازائه بضرب من التقوى والتوقير المشوبين بالرهبة ... وبحسبه هذا الشعور » . ويرتبط الاتزان الشائع بين الصينيين بهذا النوع من الايمان بالله .

الفصل الثانى

الهنود وآراؤهم الغيبية والفردية

« ١ »

ان تاريخ الهند وان توغل فى القدم آلافا من السنين ، فان القليل منه نسبيا هو الذى تم كشفه مسجلا حتى الآن . وأشد ما أثر عن بلاد الهند من أدب جدارة بالذكر ، أدب دينى وفلسفى . أجل ، ان الملاحم السنسكريتية العظيمة وهى « المهابهاراتا والرامايانا والبورانات » تحتوى على اشارات تاريخية ، ولكنه حتى هذه الكتابات نفسها يغلب عليها الطابع الرطازى [الميثولوجى] ، كما أنها ذات مدلول خلقى ودينى . ولو تأملت رجال العلم فى الشطر الأعظم من تاريخ الهند، لوجدتهم من البراهمة الذين ركزوا اهتمامهم على الدين دون التاريخ . وظهرت فى عهد الامبراطورية المغولية تدوينات تاريخية وضعها كتاب من المسلمين ، ولكن التدوين تم على يد قوم ارتبطوا ببلاطات الامبراطور والأمراء ، كما أن مداره هو الى حد كبير حياة الحكام وغزواتهم . غير أنه تمت فى أثناء القرن الماضى وهذا القرن أبحاث جادة فى تاريخ الهند ، قام بها فى البداية علماء بريطانيون بوجه رئيسى ، ثم اضطلع بها بعد ذلك أساتذة من أبناء البلاد . ولسنا فى هذا المقام نهتم بالدرجة الأولى بتاريخ شعوب الهند، وانما كل ما يهمنا هو الاتجاهات المسيطرة عليهم نحو التاريخ بوصفه شيئا واقعيا . فماذا كان مضمون حيواتهم

واعتقاداتهم بالنسبة لطبيعة التاريخ ؟ وما هو المعنى ـ أو المعانى التي وجدوها فى التاريخ [ان اجدت] ؟

ويحوى سفرا « المهابهاراتا والبورانات » اشارة الى فكرة دورانية عامة عن التاريخ • وفى كل دورة أربع « يوجات » أى عصور • فالعصر الأول عصر « الكريتا » أو العصر الذهبى ، كل شىء فيه بالغ حد الكمال • فأما الثانى وهو عصر « التريتا » فتصاب فيه الفضيلة بالانحطاط ، على حين تنتشر فى الثالث وهو « الدفابارا » الأمراض والخطايا وتزداد المراسم الظاهرية وتصاغ القوانين ، وفى الرابع وهو « الكالى » أى أسفل درك فى الدورة ، فتتسلط فيه الآلام ويهمل الدين • وعند نهايته يجرى امتصاص كل شىء فى البرهمى ، وتبدأ الدورة سيرتها الأولى مرة ثانية ، وهكذا دواليك الى الأبد • ونحن نعيش فى « الكالى يوجا » أى عصر الدرك الأسفل ، والأيام يغلب عليها السوء •

والميثولوجيا الهندية تحتوى على قصص كثيرة حول التجسد الالهى فى التاريخ البشرى • وأهم هذه الأحداث تنطوى على فكرة أن التجسد قد تم رغبة فى اتاحة ضرب من المساعدة للناس : أى أن الكائن الالهى مهتم بمجرى التاريخ • يقول الاله فى « البهاجافاد جيتا » : « رغبة فى الحفاظ على البر الصالح ، وتدمير كل مسىء ، واقرار الشريعة ، أولد عصرا بعد عصر » ، وقد نظر فلاسفة الهند الى قصص التجسدات الالهية على اعتبار انها رطازات (Myths) أو أساطير (Legends) ، ولكنهم لم يوضحوا كيف يمكن البحث فى القول الذى تحتويه «البهاجافاد جيتا» فيما يتعلق بالتاريخ • ومهما يكن من أمر ، فالواقع أنه لا الفكرة الكونية لعملية دورانية مكونة من أربعة أعصر ولا فكرة التجسدات الالهية كان لها كبير أثر فى اتجاهات الهندوك من التاريخ ، كما أنه لا حاجة تدعو الى الاستمرار فى بحثها هنا •

على أن القلة النسبية للتدوين التاريخي بالهند قد دفعت بعض الناس الى القول بأن الهندوك ليس لديهم « احساس بالتاريخ » . أجل ، ان ذلك الاحساس ربما أعوزهم بمعنى تلك العبارة عند أهل الغرب . ولكن ربما كان كل ما في الأمر أن الناس أساءوا فهم ذلك القول . فأما أننا لا نعرف عند القوم كتابات من التي يمكن وصفها باسم « فلسفة التاريخ » ، فشيء لا يتضمن أن الهندوك لم تكن لديهم وليست لديهم فلسفة للتاريخ . وعلى نقيض ذلك ، ينبغي الدفع بأنه كانت لهم اتجاهات من التاريخ ، وأنهم في أغلب شأنهم لا يزالون يحتفظون باتجاهات محددة من التاريخ يعبرون عنها في كتاباتهم الفلسفية والدينية ، كما يعبرون في ديانتهم العملية وحياتهم اليومية .

ويبدو أن الناس في أقدم ما نعرفه من عصورهم ، وهو العهد الفيدى ، قد رانت عليهم ظلال السعادة الصافية بما لهم من خبرات يسيرة عن علاقاتهم بالعالم المادى ، وببعضهم بعضا ، وبعباداتهم الدينية . وهناك أمل يتوقع في المستقبل وجودا مستمرا يقوم في مملكة صالحة بعد هذه الحياة التى يعيشونها . وتصور الناس في هذه المدة فكرة يعبر عنها مصطلح « ريتا » ، وهو يقابل معنى واحدا «للتاو» الصينى . وينحصر مفهومه الجوهرى في معنيين هما الانتظام والترتيب . « والريتا » له صلات ثلاث : (١) ارتباطه بما للعالم الفيزيائى من اتساقات ثابتة لا يحيد عنها ، مثل تتابع الفصول وما يجرى على النبات من الانبات والنمو والاثمار والذبول ، وحركات الأجرام السماوية ، (٢) وبنظام المجتمع الاجتماعى ، وبذلك يتصل بالصواب الخلقى ، (٣) وبمناسك الدين ، العلاقات الانسجامية بين الناس والكائنات الالهية . وهناك مدلول لمصطلح « ريتا » ظل الناس يعترفون به في ذلك المبدأ الواسع الذيوع ، وهو مبدأ « قانون كارما » الذى سنعود الى بحثه فيما بعد .

« ٢ »

في الوقت الذى كان يوضع فيه سفر « اليوبانيشاد »(*) لابد انه رانت على الناس ظلال التشاؤم بدرجة ضخمة حول هذه الحياة الدنيا • ولم يقدم أحد آية أسباب مقنعة لتغير المشاعر • وأصبح التاريخ ينظر اليه لا على آن له دلالة ركب عليها بفطرته ، بل على انه شيء لابد من الفرار منه • ويسال ملك تنازل عن عرشه لولده : « سيدى ، فى هذا الجسم الكريه الرائحة الذى لا قوام له والذى هو خليط من العظام والجلد والعضلات والنخاع واللحم والدم والمخاط والدموع والعذرة (١) والبول والريح والصفراء والبلغم ، ما جدوى الاستمتاع بالرغبات ؟ وفي هذا الجسد الذى يتأثر بالرغبة والغضب والجشع وخداع الاوهام ، والخوف واليأس والحسد وفراق المرغوب، والاتحاد مع غير المرغوب ، والجوع والعطش والشيخوخة والموت والمرض ، الحزن وما الى ذلك ، ما جدوى الاستمتاع بالرغائب ؟ وفي هذه « السمسارا » [مفيض التاريخى العابر] ما جدوى الاستمتاع بالرغبات ؟ « اننى في هذه « السمسارا » أشبه الأشياء بضفدعة فى بئر قد نضب ماؤها » • ويتجلى فى سفر « اليوبانيشاد » ـ اهتمام ملحوظ بالموت وما قد يجىء بعده • فهل يتوقف تاريخ الانسان بموته ؟ وفى فقرة « الكاتهايوبانيشاد » الذائعة الصيت التى يجرى فيها اختيار ناكيتكتاس للهبات الثلاث ، طلب التالية بوصفها آخر الهبات وأهمها : « هذا الشك الذى يحيط برجل متوفى : اذ يقول بعض الناس : « انه يعيش » • ويقول بعضهم الآخر : « انه لا يعيش » ذلك شيء أتمنى لو عرفت « حقيقته » • وعندما عرض عليه متاع الدنيا بدلا

(*) اليوبانيشاد : هو ثالث أسفار الفيدا وأقدسها وهى الكتب المقدسة للهندوكية ـ (المترجم) •

(١) العذرة : (بفتح وكسر وفتح) الغائط كما ورد بالمعاجم ـ (المترجم) •

من هــذه المعرفة ، رفضــه باعتبــاره سرابا سريع الزوال . «ان حياة بأكملها لتعد تافهة حقا» بالمقارنة الى هذه المعرفة . وما لبث فى النهاية حتى حصل عــلى الجــواب . ان الجهلاء الذين يظنون أن « هــذه ســنة العــالم » يقاسون الولادات والوفيات المتكررة فيما يلم بهــم من تقمص أرواح . فأما الحكماء فيعرفون انهــم لا يولدون وأنهم لا يموتون ، فهــم مخلدون فى ادراكهم انهم « روح » سرمديون .

والتاريخ القائم على التجربة عالم تســوده الرغبــات ، ولابد من اطراح تلكم الرغبات جانبا . والبرهمانى الحــق لا تداخله أية رغبة فى الأبناء ولا الأموال . بل لقد يعتريه « الاشمئزاز وعدم الزهد » . « فالانســان الذى لا يرغب ، الذى ليس لديه رغبة ، الذى تحرر من الرغبة ، الذى اشبعت رغبته ، الذى رغبته هى « النفس » ـ لا تفارقه أنفاسه . ولكونه هو « براهما » حقــا ، فانه يذهب الى براهما » . « وعندما تتحرر جميع الرغبات التى تسكن فى قلب المرء ، يصبح الفانى خالدا » فالتــاريخ شىء مؤقت . « ان بعض الحكماء يتحدثون .. عن الزمن .. فيالهم من مخدوعين !» . ان الزمن « شكل كما أنه عديم الشكل أيضا » . « ومن الزمن تفيض الأشياء المخلوقة . ومن الزمن أيضا تتقدم الأشــياء نحو نموها . وفى الزمن أيضا تختفى الأشياء » . وليســت الأهمية للوقتى الذى هو عابر عارض ، ولكنها للخالد الذى هو دائم . والخلاص ينبغى أن يلتمس لا فى التاريخ بل فى الفرار منه . على انه ليس فى وسعنا تقــدير مدى مشــاركة شعوب الهند فى هذا التشاؤم المتعلق بالحيــاة الدنيــا . اذ الواقع ان الذين استطاعوا أو حاولوا الوصول الى حالة تنقطع فيها الرغبة انما هم قلة ضئيلة جدا فحسب . ذلك ان التعبير عن فكرات زهادة من هــذا النوع شىء : عــلى حين أن التمشى واياها عمليا شىء آخر . ومع ذلك ، يمكن القول بأن سيطرة

الالتفات الى الدين بشكل أو بآخر كانت من الخصائص المميزة لتأريخ الشعوب الهندية ٠

وأعلنت أيضا فكرات أخرى تنطوي على مضامين توضح أحوال الحياة البشرية العادية ٠ ففكرة التناسخ أو التجسيد الجديد [وبالتبعية فكرة التقمص] تنطوى على تعبير قاطع عن الخصيصة الجوهرية لموقف الهندوكي من التاريخ : وهو اتصافه بالفردية ٠ ان النفس المفردة هى التى لها مجموعة من الحيوات ٠ ومهما تكن العلاقات التي تكون للفرد في اثناء تلك الحيوات بالعالم الخارجي وبالافراد الآخرين ، فان الغرض المركزى هو بلوغه هدفا أقصى ٠ غير أن الكثيرين — اذ لم يبلغوا درجة انقطاع كل رغبة ، ولم يحاولوا باخلاص وحمية في معظم الحالات بلوغ تلك الدرجة — قد وجدوا لتواريخهم معاني جانبية ثانويه ٠ وعلى الرغم من المتشائمين، فان الغالبية قد حظيت بالتأكيد بخبرات جيدة ٠ وقد عبرت الهندوكية عن اتجاه آخر نحو النواحي التاريخية يتصل بالتنظيم الاجتماعى ، ذلك أن تكوين المجتمعات الهندوكية بمختلف الطوائف انطوى على واجبات معينة لابد لأعضائها من أدائها ٠ فاذا أدى الفرد واجباته جاز له أن يرجو التقدم نحو هدفه ٠ أما المشاركة فى الحياة الاجتماعية فشىء رأوا فيه أنه مجرد أمر نسبى وزائل ٠ ولم يحدث البتة أن المجتمع بوصفه كلا عضويا اعتبر مثابة لمعنى التاريخ ٠

ولم يكن أى اعتقاد أوسع إنتشارا ولا أرسخ قدما ببلاد الهند من « شريعة كارما » ٠ فقد تقبلتها جميع المدارس الفلسفية الهندوكية وجميع الشيع الدينية الهندوكية فضلا عن اليانيين Jains والبوذيين ٠ وهى موجودة بشكل ضمنى أيضا فى سفر السيخ المسمى « جرانته صاحب Granth Saheb » ومنطوق « شريعة كارما » فى أيسر صورة ، هو ان الانسان يحصد بالضبط ما زرعت يداه ٠ فهو مبدأ يشير الى أفراد معينين بوصفهم ذاك ٠

والمبدأ تعبير عن الترتيب الخلقي للحياة البشرية الذي عبر عنه في وقت أبكر مصطلح « ريتا » في معناه الثاني • وهو ينطوى على الاقتناع - على الرغم من الظواهر التي تومىء الى نقيضه ، بأن تاريخ الأفراد من البشر يمضي وفق مبدأ العدالة المطلقة • وهو شيء لن يرى الناس انه سيتحقق في أوفى صورة داخل أية حالة معينة من تاريخ الأفراد في أى تجسد فرد • فاذا تمت التجسدات المكررة حدث استمرار لعواقب السلوك من حياة الى أخرى • وتنطوى « شريعة كارما » على اعتراف بسلسلة السببية في تاريخ كل فرد •

ولم يتطور مفهوم السببية ببلاد الهند ، كما حدث ببلاد الغرب مرتبطا بوجه خاص بالناحية المادية • بيد أن « شريعة كارما » لا تنطوى على مذهب الجبرية (*) الميكانيكى ، الامر الذى لم ينج مفكرو الغرب من الوقوع فيه كثيرا • وذلك ان المبدأ الهندى مرتبط ارتباطا قاطعا بالاعتقاد فيامكان تقدم الفرد روحيا وبلوغه في النهاية هدفه •

وللفرد حرية باطنية تتعلق بتاريخه الروحى الخاص • فان هو بذر بطريقة مغايرة حصد بطريقة مغايرة • وربما تمت عمليات البذر في حالات سببها بذار سابق ، ولكنها ليست في حد ذاتها آثارا لأعمال سابقة •

وهذه الحرية الروحية شيء جوهرى • ومعنى الاعتراف بها تقدير مسئولية الفرد الخاصة المسيطرة نحو تاريخه • وسواء أمارس السعادة أم الشقاء من علاقاته بالعالم الفيزيائى وبغيره من الأشخاص ، فذلك شيء يتوقف عليه هو •

ومصطلح التاريخ عند الغربيين يومىء في العادة الى الماضي • وذلك في حين أن الهندوك لا يشغلون أنفسهم كثيرا بالماضي • فالتاريخ عندهم هو من حيث الجوهر واللباب -

---

(*) الجبرية أو الحتمية Determinism .

الحاضر الحى لهذا التجسد مع وجود فكرة الاستمرار فى المستقبل • وبهذا الأسلوب ينظر الى التاريخ فى مفهوم « الأسرامات Asramas » أي اقامات الحياة البشرية [و « سكناها »] فان الفرد من أبناء الطوائف العليا عليه أن يتأمل تاريخه فى فترات أربع • فأما الفترة الأولى ، فترة البراهماتشاريا Brahmacharya ، فتدور حول التربية والاستعداد لما سيحدث بعد • وفيها ينبغى له أن يعنى بصحة بدنه واكتمال نموه ، وباحراز المعرفة وتهذيب اتجاهاته الخلقية والدينية • أما الفترة الثانية المسماه «بالجريهاستها» « Grihastha » ، فهى أوان أداء الواجبات الاجتماعية والاستمتاع بقيم الحياة الاجتماعية والثقافية • والثالثة وهى : الفانابراستها « Vanaprastha » ، وفيها شىء من التحرر من الحياة الاجتماعية والرغبات الدنيوية ، كحياة « ساكن الغابة » ، وتعتبر الى حد كبير اعدادا « للاسراما » « Asrama » وهذه « وهى الرابعة المسماة : « سانياسا Sannyasa » ، وهى فترة الانسحاب التام من المجتمع الدنيوى التماسا للتهذيب الروحى الداخلى • ولن يستطيع الهندوكى بلوغ الهدف من تاريخه دون اتمامه كل مستلزمات هذه الفترات فرادى ومجتمعة ، وهى متطلبات لها شىء من القدر فى حد ذاتها ، فضلا عن أنها تفضى الى ذلك الهدف •

وربما لم يتم عبورالفترات جميعا فى مدة حياة واحدة • وأغلب الظن ان معظم الهندوك فى الماضى لم يبلغوا الفترة الثالثة • ومعظم من يعيشون الآن ربما لم يحصلوا على أكثر من ذلك • فان حدث مع ذلك أن أشبعت الفترتان الأوليان [أو الثلاث الأول] فى مرات الحياة السابقة ، فربما باشر الفرد الثالثة [والرابعة] فى حياته الجديدة •

والهدف الأساسى المقصود من المدة الرابعة ، وهى « السانياسا » ذو اتجاه فردى ، وهو بلوغ الشخص مرتبة « الموكسها Moksha » ، أعنى الخلاص والسعادة •

وتوصف أهداف الحياة البشرية بأنها أيضا « بوروسهارتها « Purushartha » » وهي أهداف « البرافريتي « Pravritti » أي الطراد والمتابعة وأهداف « النيفريتي » ، « Nivritti » أي التخلي •

وربما أمكن اعتبار الأولى احدى « الاسراماتين « Asramas الاوليين ، وتتضمن « دهارما Dhaima » ، اى النعمه والأخلاق واقامة الدين مع التمسك بشعائره « وكاما Kama » وهي الاستمتاع بالحب الجنسي والفنون الجميله والاصناف الاخرى من « النيفريتي » هي المتعلقة « بالاسراماتين » الاخيرتين ، وهما « فانابراستها » « Vanaprastha » وسانياسا « Sannysa » وللتاريخ الفردى والاجتماعي صفات اخرى تعبر عنها مصطلحات «تاماسيك Tamasik » ، و « راجـ..ـ.. Rajasik و « ساتوياك Sattwik » . والتماسيك هي الطبيعة الجامحة المندفعة للفرد والشقاق الاجتماعي « الراجاسيك » هو الضبط والتحكم بالقوة ، كضبط ارادة الفرد او ارادة الحكام والمحاربين في المجتمع •

فأما « الساتويك » فهي السلام الكامل للفرد والانسجام العام في المجتمع الذي يجيء مع الوصول الروحي عن طريق المعرفة الصائبة • وينبغي أن يتجلى في التاريخ تقدم من « التماسيك » عن طريق « الراجاسيك » الى « الساتويك » •

وعلى الرغم من أن الاتجاه من التاريخ عند الهنود فردى أساسا وجوهرا ، فانه لا يتصف بالأنانية • وهي قاعدة تصدق عليهم جميعا ، هندوكيين كانوا أو بوذيين أو يانيين أو من السيخ • ولواجبات الطوائف الهندوكية أهمية اجتماعية ، وان كانت لها أهمية أكبر باعتبار أن أداءها ضرورة لابد منها للتقدم الروحي للفرد نفسه • من أجل ذلك لابد من الاستمساك بالمبادىء الخلقية العامة ، ولابد من

رعاية الصفات الأخلاقية وتهذيبها ، وهي أشياء لها مضامين ونتائج اجتماعية • فشعور الشفقة أو الاحسان ذو قيمة اصيلة للفرد نفسه ، وعن طريق التعبير عن ذلك الشعور يمكن منح الغير الجزاء ، على ما قدموا من فضل واحسان • وتعمل « شريعة كارما » جزئيا عن طريق العلاقات الاجتماعية •

ومنذ عصور انفيدا تواصل القيام بالعبادة الدينية ببلاد الهند ، بكل من المنازل ، وامام مجموعة جمة من المزارات الصغيرة وداخل المعابد • وقد كانت هذه العبادة ، ولا تزال جزءا من معنى التاريخ بالنسبة للهندوك • انها تجارة « حاضرة » متبادلة مع المعبود، وهي ممارسة للاتزان والفرح • وقد يفضي ما شاع من تقديم الهندوكية في صورة نوع من أنواع الفلسفة ، الى نظرة مشوهة وزائفة الى حد كبير عن اتجاهات الهندوك في التاريخ وحيال التاريخ • فمع الاعتراف بمكانة العبادة الدينية ، ربما استطاع المرء التأمل مليا في الدروب الثلاثة التي قد تقود الفرد الى هدفه • ويختلف الترتيب الذي تورد به هذه الدروب حسب الأهمية النسبية التي ينظر بها اليها مختلف الأفراد • فالمفكرون وأهل التأمل يضعون طريق المعرفة Inana — marga أولا ، على حين أن أصحاب النشاط والهمة يجعلون في المقام الأول طريق العمل Karam — marga ، أما العاطفيون فالطريق الأول عندهم هو طريق الاخلاص Bhakti — marga ويمكن الفرد ، بل هو في الجملة ينبغي له أن يحاول تتبع الدروب جميعا ، وان أمكنه تبعا لمزاجه وقدراته ، أن يركز درجات مختلفة من التأكيد عليها • وتتبع هذه الدروب في أثناء التقدم الى الهدف يعد معنى للتاريخ • وفي الامكان تناول المفاهيم : المعرفة والعمل والاخلاص بمعنى أميل الى الضيق أو أميل الى السعة • اذ كثيرا ما حدث في تاريخ الهند أن تلك الأمور تنوولت في معنى ضيق : اذ قصد بالمعرفة ،

المعرفة بالمبادىء الهندوكية ، وقصد بالعمل أداء الواجبات التى تقتضيها الطائفة ، وبالاخلاص أداء مناسك الدين · أما التفسيرات الأشد اتساعا فأعمق كثيرا وأشد اتفاقا وجوهر الهندوكية · وطلب المعرفة بصفة عامة يجلب لصاحبه رضا داخليا ، ويحول التفات الفرد عن التفاهات ويقوده الى الاتزان · والانشغال بجميع أنواع المناشط الجادة ، كما هو الحال فى الزراعة والصناعة والتجارة والفنون الجميلة ـ يجلب للمرء خلاصا وعتقا من قبضة الانشغال الأنانى بالذات ويزيد الحياة غنى · ويؤدى الاخلاص لله فى حدود طرائق العبادة الجمالية ، أى الحب الموجه نحو الناس جميعا ـ الى احساس من عميق الحبور تتحدد فيه النفس الفردة بكل ما هو خير · فمتى فهمت على هذا الوجه الدروب الثلاثة ، المفضية الى الهدف المنشود ، فانها ربما انطوت على كل ما له أهمية فى التاريخ ·

وقد جرت عادة الهندوك بصفة عامة بأداء الصلاة الى الله ، بوصفهم أرواحا فردة تتصل به وتتحد · وذلك يدل بالاضافة الى رمزية الانصاب على الطابع « التأليهى « Theistic » المسيطر الذى طبعت عليه الديانة الهندوكية بوصف كونها شيئا متميزا عن بعض أشكال الفلسفة الهندوكية · على أن « شريعة كارما » وان اعتبرت فى حد ذاتها عملية غير شخصية فى التاريخ ، الا أنها اعتبرت أمرا اقتضته الارادة الالهية · والصلاة عمل حر تعود آثاره على الشخص الذى يصلى · فالفرد يجوز له التماسا للتقدم الروحى أن يصلى من أجل النعمة الالهية التى يعترف بها فى النواحى العملية للهندوكية انها مساعدة من المعبود · وبفضل هذه النعمة من المولى يعان الفرد على اختيار وأداء تلك الأعمال التى تعود عليه بالعواقب الطيبة · وهى تعمل جوانيا محدثة أثرها فى النفس · ويمكن أن يكون الله عن طريق ما يسبغه من فضل ونعمة عاملا يعمل عمله فى تاريخ الفرد ·

والله ، مذكورا بأسماء مختلفة كثيرة فى مختلف أجـزاء الهنـد ، وعلى مختلف آماد تاريخها ــ قد اعتبر خالق هـــذا العالم • وكثيرا ما تصور القوم عملية الخليقة فى الصــورة الرمزية للتفاعل بين الذكر والأنثى • حيث يعد « السهاكتى والسهاكتا » مماثلين من بعض الأوجه لما فى الفــكر الصينى من « ين » و « يانج » • ويحيط شيء من القداسة بالعلاقات الجنسية ، كما أن رموزا دالة على الجنس توجد فى كثير من المعـابد أو بالقــرب منهـا • وذلك فضــلا عن ان المرســم الدينى الخاص بالزواج قد ربطه بالمبدأ العام للتوالد • ثم ان مايلازم الزواج من حبور قد ساعد بدوره على رفع شــأن فكرة الجذل الالهى بالخليقة : « الليلا Lila » ، اللعبــة الرياضية ، الخيال الغنى ، والافتتان لدى الكائن القدسى • وكان تقبل هذه فكرة « الليلا » الالهيــة مضــادا فى مفعوله للميول التشــاؤمية • وهــكذا حدث فى النهــاية كما أورد كتاب « كاما سوترا Kama — sutra » لفاتسيايانا Vatsyayana وفى كتابات أخرى ــ ان تم الاعتراف بحياة الرغبات : حياة الحب والفنون الجميلة ، الغناء وموسيقا الآلات والتصوير والنحت والعمارة • وأقرها الدين • ذلك انه رئى ان شيئا من أهمية التاريخ البشرى ، كما أراده الله ، منبث فيها •

على أن التزام النــاس بالاعتراف بالسيطرة الالهية فى التاريخ وبمحاولة التمشى واياها ــ تعد من التعاليم المهمــة فى « بهاجافادجيتا » الذى له نفــوذ أرحب اتســاعا وأشــد عمقا من أى شيء آخـر أثر فى حيــاة الهنــدوك وفكرهم • ويشير « بهاجافادجيتا « Bhagavad Gita » الى الطريقــة التى يمكن بها معالجة أية معضلة تقابل الناس فى فكرات الهندوكية وتعاليمها : الصراع الظاهرى بين النزاع الموضــح آنفا من « اليوبانيشادات » من أن الهدف ينبغى التوصــل اليــه عن طريق امتناع الرغبات جميعا ، ومن الناحية الأخرى المشاركة

فى خليقة الله والاستمتاع بها فى خبرات الحياة الدنيوية . والهدف من تاريخ الفرد هو حالة من الكمال يكف فيهـا عن أن يتجسد مرة ثانية ، اذ ليس هناك من مزيد من العـواقب يمكن اجتناؤه . ولكن الحسنات تنتج العـواقب كالسـيئات تماما ، ويتمخض اسـتمرارها عن اطالة مـدة التقمص . وهكذا تلوح حالة انعدام الرغبـات كأنما تومىء الى انقطاع كل أنواع العمل . وكأنى بهـذا ينطـوى ضمنا عـلى نفى للمشاركة مع الله فى الأشياء التى من خلقه وفى التنعم بها . ويحل « البهاجافادجيتا » هذه المسألة بتعليمه مبدأ « عـدم التعلق بشىء » . وهذا ليس « عدم المبالاة » على الصورة التى أساء كتاب الغرب فى بعض الأحيان فهمها والتعبير عنهـا . وينبغى أن تؤدى الأعمال المؤدية الى العواقب الطيبة ، عـلى ألا يقترن ذلك بالرغبة « الأنانية فى حصول المرء على الثمار لنفسه » . ولـكن لابد أن تؤدى « كأنما تـوجه الى الله » . « ومهما يكن عملك ومأكلك وموهبتك وزهدك ، فلتجعـل منها قربانا يقدم الى » .. وينبغى أن تعتبر جميع الجهـود المبذولة والخبرة الممارسة فى ميدان الخير فى تفاصيل التاريخ تنفيذا للغرض الالهى ويستهل سفر «البهاجافادجيتا» بوصف لجيشين يواجه أحدهما الآخر ويثار موضوع الحرب ، وهـل ينبغى أن يتقاتل المرء . ووفق مضمون المناقشـة ، يكـون الجواب هو : « اذن فحـارب » . « والقتـال واجب طائفـة المحاربين » ومع ذلك ، فالقتال ينبغى أن يكون « كأنما هـو فى سبيل الله » ، أى دفاعا عن قضية صالحة . ولا تقتل النفس فى القتال . « فان زعم الذابح انه يذبح ، أو خال المذبوح نفسه ذبيحا ، فكلاهما قد خانه الفهم والرشاد . فهذا لا هـو بالذابح ولا هـو بالذبيح » . ذلك ان الـروح وهى الشىء الحقيقى حقا فى الانسـان لا يمـكن أن تذبح . وكما يفعل المحاربون ، فكذلك ينبغى للآخرين جميعا أن يقوموا بصالح الأعمال فى ثنايا التاريخ، كأنما يقومون بها «فى سبيل الله» .

« ٣ »

ويدعى اليانيون أن ديانتهم نشأت قبل نشوء الهندوكية البرهمانية . وهم يزعمون ان معظم المعلمين « تيرتها نكارا » اليانيين الأربعة والعشرين قد عاشوا فى الماضى السحيق . ويرى علماء الغرب أن الاثنين الأخيرين منهم ، وهما « بارسفاناتها » و « ماهافيرا » شخصيتان تاريخيتان . ومع أن العقيدة اليانية ازدهرت فى عصور أبكر ، فانها ظلت قرونا عدة دينا لا تعتنقه الا جماعة صغيرة نسبيا . وهى تعد عقيدة غيبية جوهرا ، باعتمادها على الدفع بأن الاتجاه الصحيح من الحياة ، وبالتالى من التاريخ ، لا يمكن تبنيهما الا بوساطة « المعرفة » بالطبيعة الفعلية للحقيقة . على أنها والحق يقال عقيدة معيبة بصورة خارقة من ناحية المحتوى التجريبى للتاريخ . فهى لا تعطى بيانا مقنعا حول العالم الفيزيائى باعتباره نظاما ، ولا عن انتظام عملياته التى يعيش الناس تاريخهم الأرضى مرتبطين بها . وهى ترفض فكرة الله خالقا للعالم . ومع أن اليانيين قد أنتجوا التماثيل وفن العمارة وجواهر وحليا ذهبية وفضية من أعلى طراز ، فانهم أهملوا بحث القيم الثقافية فى التاريخ البشرى . وهم لم يشغلوا أنفسهم بالسجلات العامة للتاريخ . على أنه لا يجوز الخلوص من ذلك الى أن اليانية ليست لديها أية مضامين تتصل بمعنى التاريخ . أجل ان الاتجاه الياني فردى قطعا . فالتاريخ عندهم هو سيرة حياة الأفراد ، الذين لا يعتبرون بسهولة كمكونات للمجتمع الذى يكمن فى استمراره معناه وأهميته . ويوصف الفرد عندهم غيبيا بأنه « روح بحت » ، لا مصدر له كما انه دائم الى أبد الآبدين وانه ـ وفق « شريعة كارما » ليحصد ما يبذر ، وربما واصل المضى من تجسيدة الى أخرى حتى يبلغ مرتبة الكمال . « والمادة الكارمية » هى التى تحفظ الروح فى حالة من التحديد وعدم

الرضا • وينبغى أن يكون التاريخ هو ايقاف سريان « المادة الكارمية » الى الروح وخلاصها مما تراكم فعلا من تلك المادة • فالهدف من التاريخ لا يوصل اليه فيما يلوح الا عن طريق حيوات أرضية كثيرة ، عندما يبلغ الفرد الى تنبه طاهر الى نفسه بوصفه « روحا نقية » • وبين أحضان التاريخ ينبغى لليانى أن يطابق بين نفسه وبين مبدأ الاهمسا « Ahimsa » أى « عدم القتل » مأخوذا بصورة ايجابية على انه الرقة الشاملة • فكل غيور خبير باليانية يصبح راهبا [أو راهبة] بصورة تنطوى على بث جميع الروابط التى تربطه بمشاغل التاريخ العادى • واذن يكون هدف اليانية هو الفرار من التاريخ •

وتشير الشروح الأصلية للبوذية وانتشارها الأول ببلاد الهند الى تجدد نوع التشاؤم الذى عبرت عنه « اليوبانشاد » فى عصر سابق • وكان العذاب مشغلة أساسية بالنسبة لجوتاما ، البوذا • وكل من تبعوا تعليمه بقلب صادق أصبحوا من الرهبان والراهبات • فلقد صرح البوذا [٥٦٣ ـ ٤٨٣ ق•م•] فيما سمى بالموعظة الأولى بأن : « الميلاد مؤلم • والشيخوخة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والموت مؤلم ، والحزن والعويل والابتئاس واليأس مؤلمة كلها • والاتصال بما لا يسر من أشياء مؤلم ، وعدم حصول المرء على ما يرغب مؤلم » • وبعد تركيز على مساوىء الحياة راح يتأمل سببها ويبسط طريقة الخلاص منها • وسبيلها اشتهاء يؤدى الى ميلاد متكرر عدة مرات فى سلسلة الحيوات• ويحدث « العثور على المتعة هنا وهناك ، ويتركز بالذات فى اشتهاء الشهرة واشتهاء الوجود واشتهاء العدم » • وربما أمكن ازالة الألم « بالتوقف التام بدون باق لهذا الاشتهاء والتخلى والهجران والاطلاق وعدم التعلق » • ومع ان الحالة المنشودة انما هى حالة اتزان كامل ، فان البوذا لم يكن من تعاليمه اتخاذ موقف

سكونى عديم النشاط من التاريخ • وهذا يتجلى فى وصفه للدرب الرفيع المثمن الجوانب الذى ينطوى علــى : « الآراء الصائبة والمقصد الصائب والحديث الصائب والعمل الصائب والتنبه الصائب والتركيز الصــائب • على أنه حدث خلاف فى طريقــة تقبــل تعاليمه بين العلمــانيين فى جانب وبين الرهبان والراهبات فى الجانب الآخر • وقد أشار جوتاما الى تعاليمه ناعتا اياها بأنها « الطريق الوســط » ، بين حيــاة الشهوات وهى « منحطة وسوقية وعادية ودنيئة وباطلة » ، وبين حياة الزهد المنطوى على تعذيب الذات وهى : « أليمة دنيئة باطلة » • وأمكن تفسير منطوق الدرب المثمن الجوانب ـ على نحو ما فعل العلمانيون ـ بمضمون المشاركة فى التاريخ العادى ، مع أعظم قدر ممكن من الاتزان والجهد فى ســبيل الخير فى جميع جوانب الحيــاة • ورغم ذلك ، فان البــوذا نفسه أشار الى « انطلاق من العالم » • واجتمع حوله « عقد » من الرهبان ، ثم ما لبث فى النهاية ان أذن بقيام « عقد » من الراهبات • ومن هنــا يتبين أن الديرية كانت من مظاهــر البوذية على امتداد تاريخها كله • فكأن الهدف النهائى للفرد يمكن اذن أن يقال انه الفرار من التاريخ • ورغم ذلك ، فان مدرسة بوذية فكرية هى الماهايانا (*) التى ظهرت فيما بعد ، أشارت الى أن « السامسارا » ، [وهى مملكة العرضى الزائل • أى التاريخ] تتطابق تطابقا تاما « والنرفانا » •• وذلك بمضمون أن النرفانا لا يمكن أن توجد الا فى نطاق التاريخ •

واتجاه المذهب البوذى فردى، شأن الهندوكية واليانية • فمدار التاريخ هو الأفراد فى مجموعة الحيوات المقدرة لكل منهم ، حتى يصلوا الى هدف اطلاق السراح من جولة الميلادات والميتات المتكررة المتعبة • ولا شــك أن مبــدأ سلسلة العلل

(*) بوذية الماهايانا تشكل من البوذية متأخر فى الزمان ، انتشر بالصين وكوريا واليابان والتبت ومنغوليا ـ (المترجم) •

الذى بسطه البوذا يتفق « وشريعــة كارما » • وليس ثمــة احتمال فرار من عواقب السيئات • ومع ذلك فللفرد القدرة الباطنة أو الحرية لتغيير مجرى تاريخه • وبدون هذا يبدو التبشير كله بالمبدأ كأنما هو عبث باطل • بل الحق ان بلوغ الفرد لهدفه قد قال عنه البوذا : انه يعتمد عليــه وحده • وهو يصرح فيما سمى « بالخطاب الرفيع » بالتالى : « كونوا ملاذا لأنسكم • ولا تحملوا أنفسكم الى أى ملاذ خارجى » • « ومن سفساف القول الحجاج بأن البوذية لم يكن فى مكنتها أن تكون فردية ، لأنها لم تتقبل فكرة وجود نفس حقــة • والواقع أن مبدأ « اللا نفس » أو « اللاروح » قد شاع تعليمه فى البوذية الباكرة • ومع انه ينسب الى البوذا بعض فقرات تدعمه ، فانه يبدو أن موقفه منهــا هــو انه بالنسبة لمرمى تعاليمه لم يكن من الضرورى تأكيد ولا نفى حقيقة النفس الفردة على المعنى الذى أكدت به عند بعض الفلسفات السابقة والمعاصرة • فان اقرارها أو انكارها ربما أدى الى اللبس وسوء الفهم • ولذا ، فانه دفع بأن مسألة الألم انما تنشأ داخل مفيض الخبرة ، ولابد من معالجتها فى ذلك المجال • ويشهد تاريخ البوذية بأكمله على أن الرهبان والراهبات والعلمانيين كانوا يعاملون لديها باعتبارهم أفرادا ، بل لقد بلغ الأمر بأنصار « اللانفس » أن اضطروا الى اســتخدام مصــطلحات لا يمكن ترجمتهــا الا بلفظة مثــل « النفس » • ومن واجب الأنفس الفردة أن تلتمس الخلاص ، أى أن تبلغ «النرافانا» ولا يتناقض ما نيط « بالسنجها » [الجماعة] من أهمية مع المذهب الفردى • فان الراهب الحدث الذى لم يثبت بعــــد يصرح عند ضمه الى الجماعة بالتالى • انى أتخذ ملاذى فى البوذا ، انى آتخذ ملاذى فى « الدهاما » ، [المذهب] ، انى أتخذ ملاذى فى « السنجها » [الجماعة] فالبــوذا والمــذهب والجماعة عوامل مساعدة ثلاثة • ففى السنجها يساعد راهب آخر بالتعليم والنصيحة الخ ، ولكن ليس ثمة فكرة بأن فرض

الأفراد هو بلوغ خير أوفى للجماعة • فالترابط فى الجماعة وسيلة مساعدة •

وقد سميت البوذية المبكرة باسم « هينايانا » ثم ظهر بعد ذلك تطور متميز انتشر بالأقاليم غير الهندية من بلاد الشرق الأقصى وهو « المهايانا » ، ولا يخفى أن العقيدتين تشتركان فى كثير من الأصول الجوهرية ، ولكن الثانية منهما تنفرد بناحيتين لهما أثرهما الواضح فى التاريخ • فبينما وجه الالتنات فى المذهب الأول الى الرهبان والراهبات، فان البوذية فى الفرع الثانى أصبحت أدنى كثيرا الى درب من الدين للجمهرة العظمى من الناس • وكان معناها بالنسبة لتواريخهم خبرات العبادات القائمة على القنوت والعاطفة ، ووجدت مناطا لعبادتها فى البوذاوات و « البوذيساتفات » الذين صار الناس يعدونهم أربابا مثل آلهة الهندوكية • والناحية الثانية ، أن البوذية « الماهايانا » وجهت التأكيد الى فكرة خلاص الآخرين • وقد عبر عن ذلك مفهوم « البوذيساتفات » ، الذى كان مثله الأعلى انقاذ جميع المخلوقات • وهكذا كتب سانتيديفا وهو معتنق للبوذية « الماهايانا » ، ظهر فى القرن السابع للميلاد ، أنه : « متشبع بفكرة أنه يجب عليه مواصلة الدأب من خلل مالا يعد من الميلادات ، لكى يحوز الفضائل التى بوساطتها يعمد ــ فى حضرة البوذاوات ــ الى الدعاء بأن تتيح له تهدئة جميع آلام الكائنات طرا » • وبهذا الاتجاه تم تجاوز الناحية الفردية الأصلية للبوذية • وذلك هو المثل الأعلى للحياة العظيمة ، « الماهايانا » ، كنقيض مباين للحياة الدنية ، وهى « الهينايانا » •

ولا تولى البوذية اعتبارا لصفة العالم الفيزيائى بما انطوى عليه من انتظام فى العمليات التى يعتمد عليها التاريخ الى درجة بالغة • فالبوذية فيما تركزت عليه من مكابدة الانسانية الآلام والفرار منها ، لم توجه القدر الكافى من

الالتفات لفكرة الله كخالق لهذا العالم • كما انهـا بتمسـكها بفـكرة « الانطلاق من العالم » ، أهملت اعتبـار ما يمـكن وجوده من قيم الثقافة فى ذلك العالم • وقد طبقت فيها فكرة « التسلسل العلى » ، لا على العالم ككل ، بل على خبرات الأفراد بوصفهم ذاك • أجل ، ان البوذية نهضت فعلا ببعض أشكال الفن كالتصوير [الدهان] والنحت والعمارة ، ولـكن ذلك كان يتم على الدوام فى خدمة البوذية باعتبـارها دينـا • وأظهر البوذيون اهتماما بتاريخ البـوذا الأسـطورى [أو تاريخه الآخر] فضلا عن تاريخ عظماء من نهضوا بالعقيدة ونصروها ، على أنهم لم يبـدوا الا أقل الاهتمام بالتـاريخ العام • ذلك أن الماضى قد ولى • فأما التـاريخ ذو الأهميـة الحقـة فيقع فى الحـاضر والمسـتقبل مادام يعنى ببلـوغ « النرفانا » •

ومع أن البوذية احتوت على « دهاما » أى مذهب ، وأن اشكالا فلسفية قد تطورت فى ثنايا تاريخهـا ، فانهـا كانت أسلوبا للعيش لا لمعتقد يعتقده النـاس ، وهى حقيقة تتجلى فيما أحدثته من اتقان واحكام للقواعد العمليـة التفصيلية قبل تقدم التأمل الفلسفى • وكانت القواعد تنظيما لأسلوب العيش منقطع الصلة بالتاريخ العادى • ومع أن هدفها يعتبر فرديا ، فان طريقة ذلك الهدف كانت النقيض للأنانيـة • فانها تطلبت بذل المحبة الشاملة لكل من الكائنـات البشرية وما دون البشرية • وربما ذهب المرء الى أن البـوذية كدين أحست حاجة ماسة جعلتها تتقبل فى الماهايانا « فكرة » الأحد المستنير ، وهى فكرة رفعته الى مصاف أسمى المعانى الفكرية حول آلهة الهندوك » • وبهذا أصبحت « النرفانا » ــ وهى التى غالبا ما ظن أقدم الدارسين الغربيين للبوذية أن معناها هو الفناء التام ــ شيئا يرتقب ليس فقط بحسبانها تحررا من تكرار الميلاد ولكن بوصفها حالة من السعادة أيضا • فان معظمهم لم يكونوا يتوقعون بلوغ هدفهم حتى يمروا من خلال

حيوات كثيرة : ومع ذلك فان الكتابات الدينية البوذية تثبت مرارا وتكرارا الى ان « النرفانا » شيء يمكن بلوغه في الحياة الحاضرة ، اذ ربما لم يكن موضع الهدف مستقبلا تاريخيا بعيدا ، بل هو هنا والآن •

ازدهرت البوذية ببلاد الهند أمد ألف سنة تقريبا : ثم عادت فاختفت تقريبا في أمد وجيز فيما يبدو • ولم يتضح لنا حتى الآن أسباب هذا الاضمحلال السريع • فان الحياه الاجتماعية العامة قد تكون أصابها من شديد الفوضى واختلال النظام بسبب مبدأ « الانطلاق من العالم » ، [الى الاديرة] للعدد الغفير من الناس ، بحيث انه مقترنا بانهيار اقتصادى، لم يعد المجتمع يستطيع اعالتهم كرهبان وراهبات • وكان لابد من مقابلة مطالب التاريخ العادى بما تقتضيه : ففي هذا العالم لا يستطيع الناس التخلص منها تماما • وربما أصاب الناس نفور مما حوت البوذية من نواحي التشاؤم • وربما يكون بعض المستمسكين بفكرة الطوائف من الهندوك أصروا على الاعتراف الكامل بها ، على النقيض من تجاهل البوذية لتلك الطوائف • وقد حدث انتعاش للعبادة بالمعابد الهندوكية وعودة الى تقبل قاطع لفكرة الله باعتباره الخالق وباعتباره مهتما بتاريخ الأفراد في انعامه بالنعمة والفضل • أو كأني ببعض العواطف الدينية التي أنهكها التعطش الطويل ، قد أثيرت مرة ثانية •

« ٤ »

وثمة سبب آخر لاضمحلال البوذية ، أغلب الظن انه التطور القاطع الذى ألم بالفكر الهندوكي الفلسفي المنظم • ففي فترة اضمحلال البوذية بالهند تعرضت الغيبيات البوذية للكثير من سهام النقد من المفكرين الهندوك الذين راحوا في الوقت نفسه يبسطون ويشرحون ما لديهم من مذاهب ونظم هندوكية معارضة • ومن هؤلاء المفكرين سنكاراتشاريا الذى

وضع صيغة فلسفة الادفيتا فيدانتا ودافع عنها ، وهى الفلسفة التى صار لها منذ أيامه ، حتى الوقت الحاضر بما فيه أيامنا هذه قبول واسع الجنبات بين الهندوك المتفكرين . وتلقى سنكارا وأتباعه التعضيد والعون من الحكام الهندوك، فأنشأوا بمساعدتهم « الماتهات Maths » أى الأديرة بالمناطق الاستراتيجية بكل أرجاء البلاد . وتنقل الينا البيانات التى تدور حول الهندوكية ، وهى التى يقدمها المعلمون او « السوامى » الهندوك بكل من أوربا وأمريكا وجهة النظر ، وأسلوب التعبير فى الادفايتا فيدانتا على ما صورها سنكارا . والظاهر أننا نجد الفكرات المسيطرة فى الهندوكية المعاصرة حول طبيعة التاريخ مرتبطة بهذا الشكل الفكرى للهندوكية .

والمبدأ الأساسى الذى تقوم عليه « الادفايتا فيدانتا » هو أن الحقيقة شىء مفرد لا ثانى له .. أعنى أنها « تأخذ بمذهب الثنوية » . والبراهمان أى « المطلق » ، « هو » وحده الحقيقى حقا كما « انه » أبدى خالد . بيد أن هناك فكرتين عن البراهمان يجرى تقديمهما : أولاهما فكرة « النرجونا Nirguna » ، أى البراهمان الذى لا كيفية له ، وفكرة البراهمان « الساجونا Saguna » ، أى الحاوى لجميع الكيفيات . ومع أنه ينبغى توجيه شىء منا الى أولى هاتين الفكرتين ، فسيتضح أن الثانية هى التى تمد التاريخ بما فيه من أهمية .

ومع مفهوم « البراهمان النرجونا » أى الذى لا كيفية له ، يركز الالتفات على حقيقة البراهمان ، وعلى عدم حقيقة كل ما قد يظن انه يشكل التاريخ القائم على التجربة . والعالم الفيزيائى ، تلك الكثرة الموفورة من الأفراد الآحاد — كل ذلك يعد « مايا Maya » ، أى ضربا من الوهم الخادع . والحيوات المترابطة للأفراد أشبه شىء بحلم يراه النائم ، وهى بوصفها ذاك ليست ذات قيمة جوهرية . والهدف

المقصود ، شأن هدف عديم الرغبة الوارد فى « اليوبانيشاد » هو الفرار منه • وأخذ العالم الفيزيائى مأخذ الحقيقة والاعتقاد بأن الرضا النهائى قد يجىء مرتبطا به ، يعتبر من أعظم الأخطاء • على أن صعوبات هذه الناحية من نواحى المذهب « الادفايتى لسانكارا » كثيرة وخطيرة • فكيف يمكن بلوغ المعرفة بالبراهمان باعتباره « نرجونا » ؟ لا يمكن حدوث ذلك من خلال خبرة الحواس المباشرة ، وذلك لان ما يعرف عن هذا الطريق ليس حقيقيا • كما لا يمكن أن يتم من خلال الذهن المنطقى ، وذلك لأن المعطيات اللازمة لذلك مصدرها مملكة الوهم الخادع ، فى حين أن الذهن لا يستطيع الوصول الا الى الفكرات المجردة • وليس فى المستطاع معرفة « براهمان النرجونا » الا عن طريق الحدس المباشر (Intuition) لتقمص المرء « له » فى حدود ما يمكن تسميته باسم « حالة النشوة فوق الشعورية » ، التى يمكن بلوغها بممارسة « اليوجا Yoga » • وبقدر ما يسلم الأفراد أنفسهم لهذه النشوة ، يمكن أن يقال عنهم انهم يحاولون الفرار من التاريخ • وليس هناك مع مفهوم « براهمان النرجونا » أى احتمال للانتقال الى معنى أو معان للتاريخ •

واذا كان العالم الفيزيائى ، والأفراد الآحاد ، وخبرات التاريخ وهما خادعا ، أعنى « مايا » ، وجب توجيه هذا السؤال : منذا الذى يكابد الوهم الخادع ؟ ان مذهب « الادفايتى لسانكارا » لا يجد عنده سوى جواب واحد : البراهمان • ولكن لما كان « براهمان النرجونا » لا يتصف حتى بصفة مكابدة الوهم الخادع ، فان الوهم الخادع سيبدو هو نفسه لا شىء فى الحقيقة • وهذا ينطوى على انكار كل ما قد نسميه باسم التجريبى • ومع ذلك ، يقال أيضا : ان هناك وهما خادعا لأن هناك جهلا أى « افيديا Avidya » • وعندئذ ينشأ هذا السؤال : من هو موضوع الجهل بفضل

التنبيه الحدسى عند البراهمان • فالبراهمان الذى هو وحده الجهل ؟ انه البراهمان ، وذلك لانه لا ثاني له ، ولـكى يتم التغلب على موضوع الجهل ، لابد ان يكون خاليا من الجهـل خلوا تاما • ويبدو ان اتجاه مسار الفكر فىالمذهب الادفايتى هو أن البراهمان لا يتأثر ، وذلك لان الجهـل فى حـد ذاته لا شيء • فكأن الجهل اذ يعالج ايجابيا كانما هو اساس لاخذ العالم وحقائق التاريخ مأخذ الحقيقة ، يوضع موضع الانكار فى حد ذاته • وقد جرت العادة بسبب وجود هذه الصعوبات باهمال من يشتغلون بالتاريخ فكرة « براهمان النرجونا » • وان جاز ان تظل مستقرة فى مؤخرة عقولهم ، لكى يتفكروا فيها فى لحظات التأمل •

ويحـذر مبشرو المـذهب الادفايتى سامعيهم كأفراد ، مثلما يفعل مبشرو الشـيع الهندوكية المعارضـون لمـذهب «الفيدانتية الادفايتى»، ذلك أنهم لاستمساكهم الدائم بمذهب « الأحد الذى لا ثانى له » ، يفكرون فى الجميع باعتبـارهم داخلين فى « الأحد » • فالبراهمان هو « الساجونا » صاحب الصـفات جميعا • فما عـولج فى حالة مفهـوم « براهمان النرجونا » على أنه وهم خادع [مايا] ، يعد اذن خلقا الهيـا هو « الليلا Lile » اللعبة الرياضية للروح المقدسة • وهذا ينطوى ضمنا على التاريخ البشرى • وتوجد مع هذه الفـكرة صعوبة ندر أن واجههـا أى فرد من أتباعهـا • فان كلا من جانبى الصراعات من جميع الأنواع ينبغى أن تكون داخـل البراهمان ، بوصفها أجزاء فيما له من كمـال غير محدود • وكل من المعتدين والمدافعين فى الحروب يعدون على السـواء مظاهر له • وفى كل ما ينشب من متناقضات ، تجده « هـو » وحده الذى يؤكد الناحيتين ، و « هو » وحده الذى ينـكر • وربما جاز أن المؤمن بالمذهب الادفايتى يدفع بأنه عن طريق الخلق والاهلاك يمضى البراهمان نحو هدف يضـفى عـلى التاريخ معنى أو معانى على الشاكلة التى يتصورها الغربيون

لهما . ويبدو أن أنصار الادفايتا فيدانتى اليوم بالهند ، يشغلون انفسهم على أساس مدلول « البراهمان ساجونا » المنتشر بينهم ، بما يسميه الغربيون باسم الحضارة . ولكن ما العلاقة بين «براهمان النرجونا» و «براهمان الساجونا»؟ فاذا كان الناس يحرزون شيئا فى العالم وفى التاريخ كما يشير الى ذلك المفهوم الأخير ، فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين تحرير الرقاب من خادع وهم العالم والتاريخ وفقا للمفهوم الأول ؟

هذا وقد دفعت مقتضيات الحياة المعاصرة ، وربما بعض مؤثرات ناجمة عن الاتصال والارتباط بالشعوب الغربية ـ بعض شراح مذهب الادفايتا فيدانتى الى التحول عن الاعتراف الصريح باتجاه الهندوك الفردى جوهرا حيال التاريخ ، والى تقديم الهندوكية فى صورة اجتماعية صريحة . والحجة التى يدلون بها تأييدا لذلك هى أنه مادام كل فرد هو فى النهاية البراهمان نفسه ، فانه يعد متطابقا مع كل فرد آخر ، وان الفرد بحبه للآخرين انما يحب نفسه ، وان المثل الأعلى يكون من ثم اجتماعيا بصورة كلية شاملة . وهذا التأكيد على الناحية الاجتماعية يعتبر ناحية ثمينة ومهمة للتاريخ الدارج ببلاد الهند . على أن هناك على أساس المذهب الادفايتى حجة أخرى لا تقل اقناعا عن هذه ، يمكن تطويرها فى اتجاه أقصى غايات الأنانية . وذلك أنى ان كنت متطابقا والبراهمان متلبسا له ، فان جميع المتع والآلام [ان وجدت حقا] ينبغى أن يخبرها البراهمان أعنى « الأنا » الحقيقى . وعندئذ ربما أمكن القول بطريقة أنانية بحتة : « إن كان جميع الآخرين يعتبرون اياى ، فاننى بسهولة عندما أحب نفسى انما أحب الآخرين جميعا» . «ولا يمكننا أن نتبين من الادفايتا فيدانتا أن أهمية التاريخ بالنسبة للهندوك انما تنحصر فى هدف اجتماعى ، مهما عظمت قيمة الأخلاق الاجتماعية فى التقدم بالفرد نحو خلاصه .

وبعد شرح سانكارا لمذهب الادفايتى بأمد وجيز، وجهت الى ذلك المذهب (١) انتقادات قاطعة ببلاد الهند نفسها ، وبخاصة تلك التى وجهها رامانوجا وأتباعه أصحاب مدرسة « الفسهستادفايتا Vishistadvaita » (وهو مذهب اللاثنائية المعدل) والتى ذهب اليها « مادهفاتشاريا Madhvacharya » ومدرسة « دفايتا Dvaita » ، (أى الثنائية) • وكان أول الذين شرحوا المذهب الأدفايتى ، رهبان اديرة سنكارا، وذلك من وجهة نظر أن طريق المعرفة هو اهم درب نحو الهدف • فأما أتباع « الفسهستادفايتا والدفايتا » فكانوا أشد انشغالا بطريقة العبادة ، ثم بالعمل فى المقام الثانى • وكان السبب فيما وجهوه الى المذهب الادفايتى من انتقادات هو تأكيدهم على وجوب انتهاج طريقة عملية للعيش باعتبارها نقيضا للأسلوب التأملى فيه • وقد احتفظ الأولون بالمذهب الادفايتى فى اعتقادهم بأنه ليس هناك نوعان من الحقيقة ، وانما هو نوع واحد فقط ، هو الروح ، قاصدين من ذلك القضاء على فكرة أن « الله » هو البراهمان النرجونا • واعتبروا الأنفس الفردة حقيقة واقعة ، وكان ذلك بطريقة رفضها المذهب الادفايتى • فان هناك عالما خارجيا (وان لم يكن من حيث الجوهر) ، كما أن هناك أنفسا فردة • فهم قوم لهم نحو التاريخ اتجاه أقل تشاؤما بكثير • والمشاركة فى العبادة ، حين تتم « هنا والآن » ، ارتباط سار مع الاله • وقد تصوروا الهدف البعيد فى صورة حالة زمالة مع الله ، أكثر منها تقمصا له • ولم يزيدوا عن أصحاب المذهب الادفايتى فى شىء حين ظنوا أن الناس يستطيعون الحصول على أتم الرضا فيما يعرض لهم من أحوال دنيوية ، ولديهم اعتقاد راسخ ورجاء حار فى نعمة الله وفضله • والله فى التاريخ قائم فيما يمكن بحق وصفه بأنه علاقة شخصية مع عابديه • ويرى الفرد

(١) ينبغى دراسة هذه الانتقادات فى العمل الجليل الذى ألفه س·ن داس جوبتا "History of Indian Philosophy" وهو : كامبريديج ج ١ ، ١٩٢٢ و ج ٢ ، ١٩٣٢ وج ٣ ، ١٩٤٠ ، و ج ٤ ، ١٩٤٩ •

« الفسهستادفايتاوى » أن الديانة الطقسية والعاطفية تعد معنى حاضرا فى ثنايا تاريخه • فهو يتمشى وما يتطلبه نظام الطوائف • أما عن « البوروسهارتها ; Purushartha » فانه [أعنى الفرد] أشد التفاتا ورعاية لما تعلق منها بالمتابعة منه لما تعلق بالاهمال والنبذ • فاتجاهه فردى من حيث الجوهر ، هو الجهد المتجه نحو مواصلة التقدم نحو هدفه الخاص الذى هو السعادة النهائية • ومع ذلك ، فمن طريق أشكال العبادة استطاع مذهب الفاستهناقيتى بصورة قاطعة تنمية الشعور الاجتماعى وتهذيبه أكثر مما استطاعة أتباع الادفايتى • ومن هنا يستبان أن مضمونات مذهب « الفسهستادفايتا » بالنسبة للتاريخ شديدة المماثلة فى كثير من الأوجه لمضامين الديانات التأليهية غير الهندية التى سنبحثها فى الفصل

وقد أكد الدفايتيون (Dvaitists) حقيقة المادة باعتبارها جوهرا يختلف عن العقل أو الروح • فالأفراد حقيقيون ، وحتى مع بلوغهم الهدف النهائى من الفكاك من التقمص يحتفظون بما بينهم من فروق مميزة • ولعلهم فى هذا الاعتقاد الأخير ، لا يختلفون اختلافا جوهريا عن أتباع مذهب « الفسهستادفايتى » ، ولكنهم يمتازون عليهم بأنهم أكثر تحديدا • وموقفهم من التاريخ يماثل أيضا موقف اتباع مذهب « الفسهستادفايتى » • فأما المدارس الفلسفية الكثيرة الأخرى فى العصر الهندوكى ، فليس منها ما بلغ شأوا بعيدا ولا نفوذا واسعا ، فهناك مدرسة Carvakas (أى الماديين) ولكنهم فئة لا تكاد تعرف الا عن طريق النقد الذى وجه اليها • وربما أمكن استنتاج أن معنى التاريخ لديهم ينحصر بسهولة فى خبرات العيش للمرء ككائن عضوى فيزيائى • ولكن المذهب المادى لم يلق مطلقا أى نجاح ببلاد الهند • وهناك الأشكال المختلفة لفلسفة « السانكهيا Sankhya » ،

وهى على تعددها تعترف على الجملة بوجود فرق بين ما هــو فيزيائى وما هو روحى فضلا عن تعدد فى الأرواح • غــير ان ما يرتأونه حول التاريخ من مضــامين ودلالات لا تختلف عما ترتئيه هذه المدارس التى أسلفنا بحثها فيما عدا سانكارا ومدرسته « الادفايتافيدانتا » • ولا مشــاحة فى أنه قامت بالهند نزعة ضخمة من التشاؤم حول حياة الانسان التاريخية على ظهر الأرض ، غير أن الهندوكيــة والبــوذية واليانيــة والسيخية لم تتصف بالتشاؤم بصورة نهائية • وذلك لأنهــا جميعا علمت الناس امكان بلوغ الاتزان والكمال • فالهدف ليس من أهداف التاريخ الدنيوى ، فأما عند الهندوك فالهدف من التاريخ ليس مجرد التحرر من الوهم الخــادع والجهــل والخلاص من الآلام : وانما هو أيضا سات وكهيت وأناند ، أى الحقيقة والرؤية الســعيدة والسعادة • والهــدف عنــد البوذيين بلوغ سلام « الترفانا » وحبورها • وهــو عنــد اليانيين ممارسة الروحانية الكاملة والخبرة بهــا • وعنــد السيخ النشوة المنتهلة من حب الله • وتعترف الهندوكية ، بما انطــوت عليــه من فكرة « الليلا » بالمشــاركة فى الطيبات التجريبية التى ينطوى عليها التاريخ العادى • وجنح السيخ، وان تنبهوا الى خطر سيطرة الانشغال بشئون الدنيا ــ الى عدم تشجيع الزهد •

ــ ٥ ــ

ان الآراء المتعلقة بالتاريخ والاتجــاهات التى اتخذت حياله عند شعوب الهند قد ألم بها التغير الى حد ما ، وان لم يكن تغيرا جذريا ــ بسبب مؤثرات وردت من خارج الهند • مثال ذلك أن الحكام المسلمين ، خاصة منهم الأباطرة المغــول العظماء تأثروا بدافع الفكرات الاسلامية ، واستطاعوا بتلك الفكرات أن يوجهوا حياة الـكثرة الـكبيرة من الناس الذين أصبحوا فى النهاية بفضل اعتناقهم الاسلام فضــلا عن طرق

عديدة أخرى ـ يشكلون جزءا ضخما من السكان [وان كانوا مع ذلك أقلية بينهم] • والزرادشتيون [الفارسيس] الذين قدموا الى الهند أصلا من بلاد فارس ، كان لهم اتجاه بعيد عن الزهد بعدا تاما • وهم من أوائل من قام ببلاد الهند بتنمية التجارة والصناعة على أسس غربية ، وتمكنوا بما أحرزوا من نجاح من توجيه أنظار الهندوك والمسلمين الى ما فى الطراز الغربى من الحضارة من مزايا • وكذلك أيضا كان زعماؤهم من أوائل من ناصروا الفكرات السياسية الغربية • ومع أن عدد من اعتنقوا المسيحية بين الهندوك المتعلمين نادر نسبيا ، فان تلك العقيدة قد جرى التبشير بها لعدة قرون بالهند بصورة عادت بنتائج وآثار عملية مهمة • فقامت كليات المبشرين بالكثير فى ادخال المعارف الغربية • كما فعل ذلك نفسه وبدرجة أقوى أو تكاد جامعات الولايات التى أسسها رجال الادارة من البريطانيين فى دوائر عملهم من تلك البلاد • ومن المسلم به أن الحكم البريطانى قد اجتلب الشىء الكثير ذا الصبغة الغربية فى أشكال الحكم • فعمت البلاد مدة طويلة من السلم عادت عليها بزيادة التجارة مع أوربا زيادة ضخمة جدا • وأدت كل هذه المؤثرات والعوامل بزعماء الهندوك الى ادخال تغييرات فى موقفهم من التاريخ • وساندهم فى هذه التغييرات تأييد الشبيبة الهندوكية الذين تلقوا العلم بأعداد متزايدة بكل من أوربا وأمريكا • ومن ثم ، فان كثيرا من الهندوك ينظرون الى التاريخ اليوم على أساس التقدم الفردى والاجتماعى الذى يدرج على امتداد خطوط الحضارة العامة ، غير أن من الخطأ الظن بأن الهندوك بعامة قد تخلوا عما ألفوه من فكرات تقليدية عن التاريخ • فانه حتى الزعماء المتعلمين على الطريقة الغربية أنفسهم يتلمسون السبل الى التوفيق بين ناحية اهتمامهم بالحضارة التقدمية وبين طريقة تفكيرهم الهندوكية •

وتمثل هذا الاتجاه بعض الأعمال التى نشرت للمستر س ٠ رادهاكريشنان ، الذى ذاع صيته أمد بضع عشرات من السنين بكل من أوربا والهند ٠ وقد قام رادهاكريشنان بدراسة متقصية ومستفيضة للفلسفة الأوربية ، وهو يعرض آراءه فى الهندوكية مع تأمل واعتبار للمسائل الجوهرية المتعلقة بالحياة المعاصرة فى هذه الدنيا بما رحبت ، وقد صرفنا النظر عن كل مناقشة نقدية نوجهها الى تفسيراته للفلسفات الهندوكية ، اذ بحسبنا بالنسبة لما نرمى اليه من هدف أن نشير الى آرائه المتعلقة بالتاريخ كما تتبدى فى كتابه : « رأى الهندوكية فى الحياة The Hindu View of Life »

ولهذه المناسبة تجدر ملاحظة أنه تجنب فى هذا الكتاب بحث الفكرة الذاهبة الى أن البراهمان هو « النرجونا » ٠ وفى رأينا أن عرضه قد داخله الغموض باستخدامه مصطلح «الله» بصورة يغشاها الابهام ٠ ذلك أن الهندوكية انما هى طريقة للعيش أكثر منها شكلا نوعيا من أشكال الفكر ٠ فهى « حركة وليست موقفا ، وهى عملية وليست نتيجة ، هى تقليد ينمو لا وحى ثابت ٠ وهو بناء على طبيعة الماضى ، يعبر عن ثقته بأن الهندوكية ستستطيع لقاء أى طارىء يحزبها فى المستقبل سواء أكان ذلك فى حقل الفكر أم التاريخ » ٠ فالهندوكية تتصف بالقدرة على الشمول والتوليف ٠ فهى « تعد ما فى العالم المرئى والمؤلف من تنوع لا نهاية له ، شيئا تدعمه وتسانده الروح السرمدية اللامرئية » ٠ وبهذه الفكرة يستطيع رادها كريشنان تشجيع بذل الجهود فى سبيل جميع ما فى الحضارة البشرية من طيبات ٠

ويتجلى اختلاف الوجود فى الأفراد مثلما يتجلى فى الجماعات الاجتماعية ٠ فلكل كائن بشرى ، ولكل أمة ، فردية جديرة بالتوقير ٠ « والهدف من الاصلاحات التقدمية هو

المحافظة على تلك الفردية ودوام استمرار الصلة مع الماضى »
والذين يحاولون اصلاح العالم فى أحد الأجيال وفق برامجهم
التى يستتنونها لأنفسهم يلقون الهزيمة · « فطواحين الله تدور
ببطء فى صنع التاريخ » ، « والهندوكية لا تؤمن باستعمال
القوة القاهرة فى تعجيل سرعة التطور » · ونحن اذ نعترف
بأن كل جماعة تاريخية فريدة فى بابها ، لها قيمة غائبة
خاصة تتسم بها ، « لابد أن نعمل على بلوغ عالم يمكن
الأجناس جميعا أن تمتزج فيه وتختلط، مع احتفاظ كل منها
بمميزاته الخاصة وتطويره خير ما فيه من طوايا » · وأكبر
شاهد على ذلك ، ان المثل الأعلى لهذا العالم ليس قيام
امبراطورية واحدة ذات حضارة متجانسة ونشوء ارادة
واحدة لمجتمع موحد ، وانما هو وجود رابطة أخوية من الأمم
الحرة التى تختلف اختلافا عميقا فى حياتها وعقليتها ،
وعاداتها ونظمها ، وكلها تعيش بعضها الى جوار بعض بسلام
ونظام ، وانسجام وتعاون · وكلها تدلى الى العالم بخير
ما لديها من شىء فريد وخاص ، لا يكن تحويله الى مصطلح
الآخرين وطرائقهم · « ويتجلى فى هذه الفقرة وفى الكثير
غيرها من أجزاء الكتاب اصرار على ما فى الحياة البشرية من
النواحى الاجتماعية · ولكن رادها كريشنان فى صدق
اخلاصه لهندوكيته ينبذ أية نظرة اجتماعية بحتة الى
التاريخ · « ذلك انه ينبغى ألا تخفض مكانة الانسان طبقا
لمتطلبات المجتمع · فالانسان يتبوأ منزلة تفوق كثيرا مكانة
الحارس لثقافته أو الحامى لوطنه أو المنتج لثروة بلاده ·
وكفايته الاجتماعية لا تعتبر مقياسا لرجولته الروحية » اذ
الغرض الجوهرى هو بلوغ الكمال بالفرد كروح ، ذلك
الفرد الذى سيستطيع فى هذا المقام المؤقت رؤية تجلى
السرمدى والتماس طريقه « اليه » · وهو من أجل ذلك
يستمتع بالحرية الروحية · ويؤكد رادهاكريشنان ، انه على
الرغم من ان الماضى حسبما تذكر شريعة « الكارما » هو الذى
يهيىء الظروف التى تمهد للحاضر ، فان المسلك الحاضر

للفرد يمضى فى سبيل الاختيار الحر بين عدة بدائل ممكنة تتراءى له ٠

وقد اسلفنا اليك أن راى رادهاكريشنان فى الهندوكية ينطوى ضمنا على تقدير شامل لقيم التاريخ الانسانى ٠ ولكن لابد لنا من أن نلحظ طريقة عرضه لنواحى الادفايتافيدانتا٠ « آن النشـاط خصيصة مميزة للعمليـة التاريخية » ٠ ومع ذلك ٠ فلما كان الكامل لا ينقصه شيء ، فانه لا يحتاج الى شيء يلزمه النشاط من اجله : وهذا لا يمكن ان يكون تاريخيا ٠ فالهدف الاقصى هو الفكاك والتحرر من التاريخ ٠ « فان لم تكن العملية التاريخية هى كل شيء ، واذا لم يكن محـكوما علينا دائما أبدا بملاحقة مثل أعلى سرمدى خالد ، فلابد لنا اذن من بلوغ الكمال عند احدى نقاط العملية التاريخية ، وسيكون فى ذلك تحويل فرديتنا التاريخيـة ، وفرارنا من الميلاد والموت ، أى ما يسمى « بالسمسارا » ٠ والتاريخ انما هو تحقيق هدف من الأهداف ، ونحن نتقدم ونقترب شـيئا فشيئا من تحقيقه ٠ « والموكسها » هى تحقيق هدف كل فرد٠ وعند بلوغ الكمال ينتمى الوجود التاريخى ٠ وعندما يبلغ العالم كله ذروة وجوده ، يزلف الأفراد المحررون الى سـكون « المطلـق » The Absolute ، ثم اذا هـو يقـول فى مماثلة للفكرة الدورانية التى أشرنا اليهـا فى الفقرة الثامنـة من هذا الفصل : « ان العالم لينجز نفسـه بتـدميره لذاته » ٠ وعندئذ قد « تبدأ دراما أخرى وتستمر عصورا بأكملها » ٠

الفصـــل الثـــالث

معانى التاريخ ببلاد الاغريق وروما

« ١ »

كانت الحياة الاغريقية الباكرة حياة يســيرة من حيث علاقتها بالطبيعة ، التى كانت أجزاء منها تعتبر أن لها كائنا جوانيا [روحا] من النوع الذى يستشعر الناس وجوده فى أنفسهم • وقد تصور الاغريق أن حياتهم مشتبكة جزئيا فى علاقة متبادلة مع تكلم « الأرواح » ، التى أعظمها قدرا يمكن تسميته « بالآلهة » • والديانة كانت عنــدهم وثاقا يربط الحياة الاجتماعية وتعبيرا عن علاقات الناس بالاله • وتشهد الملاحم الهومرية بوجود اعتقاد مبكر فى وجود فى المستقبل، ولكن الفكرة المسيطرة عليهم عن الحياة بعد الموت تغشــاها الكآبة • ومع أنه كانت لديهم بعض فكرات حول تنعم أرواح الاتصال بآفاق سعيدة ، فان الملاحم تمثل شبح أخيل نفســه يقول : « انى لأوثر العيش على ثرى الأرض أجيرا لآخر معدم لا يكاد يملك قوت يومه ، من أن تكون لى السيادة بين الموتى الذين لم يعد لهم وجود » • فقلب الاغريق كان ينطوى على حب الحياة على ظهر البسيطة • والفكرة الذاهبة الى أن هذه الحياة تعد بأية طريقة كانت ، تمهيدا لوجود آخر أفضــل مما نحن فيه ، أو انه سيتم للانسان التسامى فوقها فى ثنايا خبرة أخرى « بحياة أزلية » ، كانت شيئا لا يدور الا فى خلد مفكرين أفراد وجماعات من القلة •

وتشهد الملاحم فضلا عن قدر كبير من الاعتقادات الدينية لدى الاغريق على كر العصور ، باعتقاد القوم بأن تواريخ الناس في هذه الأرض انما تقع الى حد كبير تحت هيمنة الآلهة • وفى بعض الأحيان يبدو كل من الناس والالهة كانما يسيطر عليهم قدر لا علاقة له بأشخاصهم • وطبيعى انه كانت هناك تحديدات قاطعة تغل مجال النشاط البشرى • والصلاة هى وسيلة الناس فى التحدث الى الآلهة ، كما أن وسطاء الوحى من الكهان هم وسيلتهم فى تلقى رسالاتها • وكان أعاظم أبطال الشعب ، يعتبرون فى بعض الأحيان منحدرين بدرجة ما من أصل الهى ، وهو أمر يشير الى الاعتراف بأهمية الأفراد البارزين فى التاريخ • وكانت العلاقات ظاهرية فى جوهرها ، وكان سلوك الناس العملى يعود عليهم بتنفيرها منهم • وتنعم الآلهة بأفضالها فى صورة مزايا ظاهرية خاصة • وكان شعور الاغريق الأوائل بما طبعت عليه الروح من اثم باطنى ضعيفا ضئيلا • وتصور الدراما الاغريقية الجرائم فى صورة أشكال للسلوك ، وتمثل العقاب بشكل خبرات من الآلام والشقاء • وعندهم أن شعور الرعب من الموت انما يرجع الى فكرة فقدان المسرات الأرضية ، لا الى الخوف مما قد يجيء بعد الموت • وآية ذلك أن الخطاب الجنائزى الذى وضع على لسان بريكيس ، لم ترد فيه كلمة واحدة عن حياة مستقبلة ، ولكنه نوه بالتأسى والعزاء بتذكر سعادة « الشطر الأكبر من الأيام » وقلة أيام الأحزان • وقد اشتهر الاغريق بصفة عامة [وذلك بخلاف ما عليه حال أفراد من المفكرين وجماعات صغيرة] ، بالتوفر « بأنفسهم جملة وتفصيلا على فن الحياة ، دون أن تعتاقهم أية موانع أو شكوك حول طبيعة الحياة » • وقد عرفوا بتقدير للموسيقا ، كما أنهم حققوا مستويات عالية فى الشعر والدراما ، وبلغوا فى فنى العمارة والنحت امتيازا لا يقل عما بلغه أى شعب آخر فى التاريخ البشرى

كله • وقد عنوا بالجسم البشرى كل عناية ، وادراكهم لما فيه من جمال تشهد به الأفاريز • ولطالما بحثوا وأظهروا اهتماما ناشطا بالتنظيم الاجتماعي والسياسى ، وما لبثوا مع دوران الزمان دورته ، أن أقبلوا على دراسة الطبيعة والتاريخ والفلسفة • فأما انشغال الاغريق فوق كل شيء بالتاريخ بوصفه هو « هذه الحياة » فشيء ظاهر لا خفاء فيه تشهد به حضارتهم كلها وثقافتهم • أما نواحى الفكر والحياة المتعارضة وهذه ، فهى عارضة نسبيا ، كما أنها فى أقصى شأنها مما اختصت به بعض الأقليات دون غيرها •

وكتاب « الأعمال والأيام » لهسيود [؟ القرن الثامن ق•م•] يحتوى على فكرة مفادها أن للبشرية خمسة أعصر • وأول هذه العصور وهو « العصر الذهبى » ، وقد حكمه كرونوس • وفيه سكن الناس مع الآلهة ، مستمتعين بصحة جيدة لا يشقون بعناء ولا ألم • وفى الثانى وهو « العصر الفضى » الذى حكم فيه زيوس ، اصبح الناس وقحاء بينهم ، وأهملوا الآلهة • والعصر الثالث وهو « العصر البرونزى » كان عهد توحش وهمجية • ولكن من هذا نشأ العصر الرابع وهو « العصر البطولى » ، الحافل بالشجعان وعظماء الرجال• ثم تبعه الخامس وهو « العصر الحديدى » وهو الذى ظن هسيود نفسه أنه يعيش فيه ، وهو عصر فردية تتسم بالأنانية • « فالآن يوجد فى هذه الأيام الأخيرة « الجنس الحديدى » وهم لن يستريحوا بالنهار أبدا من كل عناء ومن كل حزن ، ولن يفلتوا بالليل من قبضة المفسد ، وانها لقاسية تلك الهموم التى ستنزلها بهم الآلهة •• وسيستقر الحق فى قوة اليد •• وان جميع أبناء الانسان المحزون سيقابلون بالشحناء من يساعدهم ـ شحناء غليظة الصوت تتقزز بها سحنة مبغضة تفرح بالشر » • ومع أن هسيود لم يذكر صراحة رأيا قائما على عملية الدور ، فانه ربما يكون

جاء به ضمنا • ألا تراه يقول : « ليتني لم أعش في هـــذا العصر الخـــامس من النـــاس ، واني مت « قبله » او ولدت « بعده » وفي اشـــارته الى الشر ، روى هســـيود الرطازات [الخرافات] القديمة الدائرة حول بروميثيوس وباندورا • ومضمونها أن وزر الشر في التاريخ يستقر في خاتمة المطاف على معارضة الاله وعصيانه •

وشدد هسيود التأكيد على أهمية العمل • فالفقر راجع الى قلة ما يبذل من جهد في العمل ، والثراء والشرف الرفيع لا يمكن أن ينالا الا به • ويخفف العناء المتواصـــل من وقع المصائب • ويجنى الناس عواقب ما عملوا أو ما قدموا من كسل ، وان أبطأت تلك العواقب في مجيئها • « فمن يصنع شرا بأخيه يصنع الشر بنفسه » • ويمضى التاريخ فى سبيله متمشيا مع مبدأ للعدالة • « والعدل يعلو عـــلى الوقاحة فى النهاية ، والأحمق نفسه يعرف ذلك عن طريق ما يمر به من خبرة » • وأخـــيرا ينزل « زيوس » عقـــابه وانتقـــامه عـــلى ما اقترفه الرجل الشرير من أعمال جائرة • وهـــذا التأكيد على العدالة واضح بارز • ومما يميز الانسان عن العجماوات الدنيا تنبهه الى ما فيه من قدرة على العدل • والعدالة نقطة اهتمام اجتماعية أساسية فى التاريخ ، وهى الهية بالفطرة ، وذلك لأنها « ابنة زيوس » • ثم جاء سوفوكليس بعد ذلك ، فعبر أيضا عن ذلك الاقتناع الواســـع الشـــيوع بأن قوانين الفضائل الخلقية « تجيء من السماء » •

وقد عبر بعض أوائل المفكرين الاغريق على نحو قاطع عن رأى يقول بفكرة الدور فيما يتعلق بعمليات الوجـــود • وربما عناها هيراقليتوس حين قال : « ان جميع الأشياء تمر وتمضى ، ســـواء ما كان منهـــا بشريا أو الهيـــا ، فهى تعلو صاعدة أو تنزل هابطة بالتبادل » • ثم ان بارمنيدس ، وقد نظر الى التاريخ فاعتبره مكونا من تغيرات عابرة تستقر فى

« الحقيقة الواحدة » ، يقول : « انه كله شيء واحد عندى متى بدأت ، وذلك لأنني سأعود الى هناك مرة ثانية » · وذهب أمبيدوكليس وقد رمز الى المبدعين الفعالين في صلب الحقيقة برمزى الحب والشحناء ـ الى : « انهما يسودان كل بدوره عندما تلف الدائرة ، وينتقلان الى أخرى ويصبحان كبيرين في دورهما المعين » · « وبقدر عدم انقطاعهما مطلقا عن التغير باستمرار، يزداد الى الأبد استمرارهما فى الدائرة » · وكان الاتروريون [الاترسك] يعتقدون أن لكل جنس « سنته العظيمة » التى قام فيها وازدهر ثم اضمحل ومات ·

غير أن صحة وصفنا لاتجاه الاغريق العام فى التاريخ ربما لقيت شيئا من التحدى اذا نظرنا الى آراء الاورفيين والفيثاغوريين ، وليس فى الامكان التحقق من مكان وزمان ظهور الاورفية ، كما انه لم يقم الدليل على أن معتنقيها تجاوزوا أقلية صغيرة · ومع ان أفكار ذلك المذهب قد أثرت فى بعض ما أعقبها من الفكر الاغريقى ، فانها لم تغير الاتجاهات الاغريقية الجوهرية · ومما يجدر ذكره ايضاحا لهذا ، أن العقيدة الأورفية أصرت على وجوب اقامة تفريق جذرى بين النفس بوصفها شيئا روحيا ، وبين الجسم باعتباره أرضيا · وفى هذه الحياة الأرضية ، تسجن الروح فى الجسم · وأهمية التاريخ الحقة ينبغى أن تلتمس فى الروح ، اذ تحصل على خلاصها من البدنى الفيزيائى · وربما مرت بالروح تجسدات سابقة أو أخرى فى المستقبل لاحقة · ومن شرور أية حياة معينة ما قد يكون راجعا الى الخطيئة السابقة على الميلاد · وربما قضت الروح فى الجحيم فترات تتخلل مختلف ما يمر بها من تجسدات · وقد حدث عند الاورفيين تغيير فى بؤرة الرؤيا ، فتحولوا عن هذا العالم الى عالم روحى يقع بعده ، وصاحبت هذه الفكرة دعوة الى الزهد غريبة عن اتجاه الاغريق القائل بالاعتدال فى حياة نفسية بدنية [سيكوفيزيائية] رائدها الانسجام · وكانت

الاورفية تؤمن بوحدة الوجود ، على النقيض مما شاع ببلاد اليونان من فكرة شعبية حول تعدد الآلهة : « زيوس واحد .. اله واحد فى الجميع » . وربما كان القوم يعتقدون ان الهدف النهائى شىء واحد هو والاحتفاظ بالحقيقة الروحية، وليس مجرد الاندماج فى الاله الأقدس اللانهائى . وربما يكون الفيثاغوريون نقلوا عن الاورفيين فكرة التقمص وبعضا من أشكال القواعد العملية . وقد عمدوا على النقيض من العاطفية الانفعالية التى انتهجها الاورفيون ، الى تهذيب الناحية الذهنية وتثقيفها، ولا شك أن الأسرار الاليوسينية(١) الخفية قد وجهت أيضا نظر بعض الاغريق الى حياة تجىء بعد الموت ، وفيها كان يوعد المريدون الجدد بأن الموت سيقتادهم الى الخير .

وهنا ينبغى لنا أن نلقى نظرة تأمل الى هيرودوت [٤٨٤ ــ ٤٢٥ ق.م.] والى توسيديدس [٤٥١ ــ ٤٠٠ ق.م.] من بين المؤرخين الاغريق . وقد لقى عمل هيرودوت اقبالا عظيما من الناس بسبب سعة مجاله الجغرافى من ناحية ، وشدة اهتمامه بمتنوع أشكال التنظيمات والأعراف المتبعة عند مختلف الشعوب من ناحية أخرى . وفى قدرة على الاحساس بتنوعها ، راح يعلق بأن معظم الشعوب تعد أسلوب عيشها خير الأساليب جميعا . على أنه لحظ مع وجود التنوعات ، أن الناس بوصفهم أناسا لهم فى كل مكان مبادىء للسلوك متماثلة لا يتخطونها ، هى « قوانين يتمسك بها جميع الناس شركة بينهم » . وفى هذه الفكرة ارهاص بفكرة « القانون الطبيعى » التى اعتنقها الرواقيون الرومان والمدرسانيون بالعصور الوسطى . وكتب هيرودوت يقول : ان يندار لم يجاوز الصواب عندما قال : « ان القانون سيد

---

(١) نسبة الى اليوس ، وهى مدينة قديمة باتيكا باليونان . اشتهرت بمعبدها الشهير لديميتر ــ (المترجم) .

الجميع » • وقد رأى انه يجدر به أن يسجل على أهل زمانه كثرة اللجوء الى الوحى ومهابطه ، وبخاصة فى دلفى ، مع اشارات مضمونها أن التاريخ البشرى واقع تحت تأثير الآلهة • وهناك حديث وضع على فم اجزرسيس قال فيه : ان الله يهدينا واذا نحن اتبعنا هدايته وفقنا أيما توفيق • ومع ذلك ، فانه يبدو كأنما يتقبل فكرة القدر النهائى المحتوم : « اذ ليس من الممكن حتى بالنسبة لأى اله ان يفر مما قضى به القدر » • وليس هناك بد من أن يأخذ مبدأ العدالة مجراه فى التاريخ ، ولكن ليس من الضرورى أن يتم ذلك بالنسبة لفرد فى حد ذاته • اذ أن أحفاده ربما جنوا عواقب سلوكه ، شرا كان أم خيرا • والأفراد يشتركون فى المسئوليات ، وفيما يلم بالهيئة الاجتماعية فى أثناء استمرارها من أفراح وأتراح • وهذه الفكرة تختلف عن المفهوم الشرقى « لشريعة كارما » ، من حيث ان مضامينها لا تتجه الى الفردية • وعلق هيرودوت على قصر حياة الانسان، ولكن دون آية اشارة الى العزاء المنبعث عن الايمان بحياة صالحة فى المستقبل • وقد صرح بأنه وان جاز أن يكون الرجال سعداء على وجه الجملة ، فليس بينهم من أحد لم يتمن عدة مرات لو أن الموت أدركه •

ومما يذكر هنا أن مجال كتاب توسيديدس أضيق كثيرا من مجال كتاب هيرودوت ، فانه لم يكن فحسب أكثر تنظيما : بل تجلى فيه كذلك فروق فى الموقف من التاريخ وفى الفكرات المتعلقة بما يستقر تحته من قوى • ومع أنه لم يستبعد صراحة وجهارا كل ما ينسب الى الله [أو الآلهة] من تأثيرات، فانه لم يشغل نفسه بها • بل قال ان : [البعض] ، « عندما تتخلى عنهم البواعث المرئية للثقة ، يلجأون الى النواحى غير المرئية أى الى النبوءات والوحى وما أشبهها » • على أنه أضاف قائلا : « ان هذه بدورها تدمر الناس بما تبثه فيهم

من آمال » • فالأمر كما كتبه الدكتور جودولفين حيث قال : « ويرى ثوسيديدس أن تعددا فى الأسباب مرتبطا بمشكلات الحاجات الاقتصادية والسلطان السياسى ينبغى أن يحل محل « النمائس » ، Nemiesis أى عدالة القصاص عند هيرودوت • « فالأسباب الطبيعية موجودة حتى وان فاتنا ادراكها • ومع ذلك فالتاريخ ليس شأنا ساذجا مستقيما مكونا من عمليات مقدورة » • « وكثيرا ما تكون حركة الأحداث من الشكاسة والبعد عن الافهام مثل مجرى الفكر البشرى تماما » ، وذلك هو السبب فى كوننا ننسب الى الصدفة كل ما يكذب تقديراتنا • ويعترف ثوسيديدس بأن ارادة الانسان من الأسباب التى تصنع التاريخ ، ولكنه اصر على أن مدى قوتها محدود • وهو ينسب الى هرموكراتيس انه قال : « ولست من العناد والحمق بحيث أتصور بأنى ما دمت صاحب التصرف فى ارادتى ، فانى أستطيع التحكم فى الحظ الذى لست له سيدا » • ولا يحتوى شىء من عمل ثوسيديدس على ما ينم عن أن معنى التاريخ ينبغى التماسه فى شىء متسام وخالد ، أو فى حركة تقدمية مطردة المضى نحو حضارة أعلى •

ولكل شىء فى مجرى التاريخ : « أوقات نموه واضمحلاله » • وربما عثرنا فى حديث وضع على لسان بريكليس على بعض آراء ثوسيديدس حول ما فى التاريخ من قيم فى أثناء مضيه قدما • وكان الاثينيون يحبون « كل جميل » وكانوا يهذبون عقولهم دون أن يفقدوا رجوليتهم وأعدوا للجميع على السواء قسطاس عدالة واحدة • وعندهم أن الكثير من معانى التاريخ انما يكمن فى تنوعه • « ويبدو الاثينى الفرد فى حد ذاته كأنما يجمع بين جنبيه القدرة على تكييف نفسه وفق أشد أشكال التصرفات تنوعا مع أقصى ألوان تعدد الجوانب والرشاقة » • وعلى الرغم من أن

ثوسيديدس قد اعترف بوجود المؤثرات البيئية ، الا انه اعترف أن الأساس الرئيسى المتنوع التاريخي هو عقول الرجال قال : « ان اختلاف عقول الرجال هو السبب فيما بين تصرفاتهم من فروق » • وقد أوضح من الخطب الكثيرة التى أوردها فى سفره « التاريخى » ان الاختلافات فى الفكرات انما ترجع الى الغايات التى تنشد والوسائل التى ينبغى استخدامها للوصول الى تلكم الغايات • غير أنه لم يقدم أى بيان قاطع يدل على أن لديه أية فكرة خاصة عن وجود هدف أو أهداف من وراء التاريخ أو فيه •

« ٢ »

ان علاقة السفسطائيين باتجاهات الاغريق من التاريخ، ربما لم تلق تقديرا فى معظم ما دار من الأبحاث حول تلك الاتجاهات • والسفسطائيون لم يمثلوا « مدرسة » فكرية ، ولكنهم يغلب عليهم بالحرى المشاركة في توجيه نقد متشكك لأولئك الذين ادعوا أنهم يقدمون من المعرفة ما يتجاوز الخبرة العادية • لقد كانوا فى جل أمرهم ينصبون أنفسهم للدفاع عن موقف الاغريق من الحياة الذى مداره « هذا العالم » • فأما أن بعض المبادىء التى شرحوها كانت موضع الاعتراض من الفلسفة فشىء يتجلى واضحا فى « المحاورات » الأفلاطونية ، ولكن هذا لا ينهض برهانا على أن مذاهبهم الانسانية والبرجماتية لا ترتبط بالحياة الاغريقية ارتباطا أوثق عرى من الآراء الفلسفية التى تطورت فى مجالات المعارضة لها • وهم وان شغلوا أنفسهم بالحياة التاريخية على ما يمارسها الناس بصورة مباشرة ، فانهم لم يقدروا القيم الدينية بالقدر الكافى باعتبارها من معانى تلك الحياة • وربما كان ذلك أحد أسباب موقف الناس العدائى منهم ، وهو الموقف الذى أدى الى نفى بروتاجوراس واحراق مؤلفاته •

ومن المعلوم أن الذين قرءوا « محاورات » أفلاطون أكثر عددا من الذين قرءوا أى مؤلفات أخرى لقدماء الاغريق • وكانت عاقبة ذلك أن حدث شيء من سوء العرض لموقف الاغريق من التاريخ بسبب أخذهم اياه على انه ــ طبقا لبعض أفكار وردت فى « المحاورات » ــ التماس للخلاص من العالم فى عملية أكباب على التأمل فى السرمدى الخالد • وقد استخدم مصطلح الأفلاطونية للدلالة على نظم مختلفة للفكر اعتصرت من « المحاورات » اعتصارا • بيد أن فلسفة أفلاطون المنظمة ربما قدمت الى الذين أوتوا طاقة على فهمها فى ثنايا محاضراته فى الأكاديمية • وربما كانت «المحاورات» كتابات عرضية كتبت لمن هم فى خارج الأكاديمية ، أى أنها ربما كانت أبحاثا غير منظمة تدور حول نواح شتى للفكر الاغريق • والواقع أن الشكل الأدبى الذى سبكت فيه المحاورات هو صاحب الفضل الكبير فيما لقيت من رواج واسع عند الناس • وكان أفلاطون ، فيما يتعلق ببعض المسائل الخطيرة المثارة فيها ، يلجأ الى الميثولوجيا والى الاساليب الشعرية ، وهما ناحيتان ملهيتان لكثير من العقول بطريقة محببة ، ومن هنا يتجلى أن ما تحتويه « المحاورات » من فلسفة أفلاطونية ينبغي أن يعامل فى حدود درجته الصحيحة من التناسب فى أثناء اجراء أى استعراض للفكر اليونانى : ومن ثم جاء ما تراه فى كلمتنا عنها من ايجاز •

و « **المحاورات** » وان خلت من كل أثر للمعالجة المنظمة لطبيعة التاريخ وأهميته ، فان تلك المحاورات تحوى اشارات ضمنية كثيرة اليهما ، وهى تنطوى على بعض الاشارات الى أن العملية الكونية بمجموعها تعتبر عملية دورية ، كما تجلى ذلك مثلا فى خرافة « عام العالم » • على أن هناك مع ذلك قدرا كبيرا من الغموض يحوم حول هذه « الفكرة » ، بحيث لا يستحق الأمر هنا الا مجرد ذكرها • وفوق هذا ،

فليس واضحا ما يعنونه بمصطلح « فكرة » بوصفها شيئا يتجاوز الزمن ، وانها هى الحقيقة النهائية الوحيدة • فهل « الفكرة » الممتازة الفائقة شيئا ينطوى على محض السكون ؟ وهل « الفكرة الأسمى » وهى « الخير » ، هى نفسها « الله » ؟ أم أن الله عقل فعال يؤثر فى التاريخ ؟ وهل الروح الفردة محض مظهر مؤقت لفكرة خالدة للروح ؟ ان « المحاورات » تنطوى على حجج تؤيد خلود الروح كأنما هى شىء يختلف عن فكرة خالدة ـ وذلك أنها لو كانت فكرة خالدة ما احتاج الأمر الى حجج من هذا النوع • وهل عملية تذكرالذكريات ـ التى لابد أن يتوقف عليها التاريخ بمعنى من المعانى ـ وظيفة لكائنات لها حقيقة منفصلة عن الفكرات التى تتذكرها هذه الكائنات ؟ هذه الأسئلة وكثير غيرها مما يمكن اثارته تشير الى الصعوبات التى تكتنف أية محاولة للحصول على تصور واضح للتاريخ من كتابات أفلاطون ••

وتتجلى فى « المحاورات » آراء متضاربة حول ما هو زمنى ، وبخاصة ما هو فيزيائى ، آراء تتضمن من ناحية قبولا للعالم ومن ناحية أخرى فرارا منه • وتذكر محاورة الثيائتيتوس (Theaétetus) : « هناك نمطان يعرضان على أعين [الناس] دائما أبدا » ، أحدهما مبارك والهى ، والثانى كافر وتعس » • وتصرح محاورة التيمائيوس (Timaeus) بأن الله خلق العالم لأنه خير ، وهو أمر يدل ضمنا على أن العالم خير • وفى محاورة فيليبوس (Philebus) تجد : السرور كما يمارس فى الزمن ، وان لم يكن أعلى صنوف الخير ، يسلم به بوصفه مصاحبا للخير ، أو أحد مكونات الخير التام • وتحتوى محاورة فايدروس (Phaedrus) على صلاة للاله « بان » وغيره من الآلهة : واليكم نص تلك الصلاة : « هبنى جمالا تتحلى به روحى الجوانية وهيىء لى أن يصبح الانسان الجوانى والبرانى منى شيئا واحدا •

وقدرني على أن أحسب الحكماء أثرياء ، وهيىء لى من الذهب القدر الذى يستطيع رجل معتدل وحده دون غيره أن يطيق حمله • « وفى حديث المائدة (Symposium) يقال عن الحب انه يسرى فى كل شىء من أدنى أنـواع الحيـوانات والنباتات حتى أعلى أنـواع رؤى الصـدق التى تسـتطيع الكائنات المحبوة بالعقل بلوغها • وربما ارتقينا الى أعـلى عليين عن طريق العـالم الحسى • ومع أن الحب والجمـال والصدق بوصفها أشـياء متصفة بالكمـال والتمام توجـد وجودا أبديا غير مختلطة بالمـادى والمنتهى ، فانهـا أشـياء تتحقق فى التاريخ فى « الأرواح الجميلة » و « الأشـكال الجميلة » ــ و « العلوم الجميلة » • و « الترتيب الصـادق للعبور » •• الى الحب ومتعلقاته هو فى الابتداء من مظاهر الجمال فى الأرض والصعود الى أعلى من أجل ذلك الجمـال الآخر ، مستخدمة على أنها درجات سلم فقط » • وهذا كله توجد فيه نظرة ايجابية عن التاريخ تتفق اتفاقا جـوهريا والاتجاهات الاغريقية العامة • وفى عالم خير شـكله الله ، يمكن أن يحقق الناس قيم الخير والصادق والجميل، والحصول على مرضاة سارة •

على أن فى الامكان العثور فى محاورات أفلاطون وغير ذلك من كتاباته على مضامين للتاريخ تختلف عن هذه اختلافا تاما • فالزمن ، الذى تقع فيه خبرات التاريخ هـو عـدو الانسان • والجسد سجن للروح • وبدلا من الصعود الى أعلى الدرجات عن طريق العالم المحس مع اسـتخدامه كدرجات سلم ، ينبغى أن يبذل كل جهد للفرار منه • ويخبرنا أفلاطون فى « الجمهورية » أن الذى تعلم كيف ينبذ الأشياء الحسية ، هو وحده القادر على المعرفة الفلسفية • وطبقا لما ورد فى محاورة فايدون (Phaedo) يحتقر الفيلسوف الحق ما يسمى باسم لذات الجسم ، « أن روحه تفر من الجسد » وترغب فى « الوحدة والانفراد » ــ وربما مع التخلص من كل ما يمت

الى التاريخ من شئون اجتماعية « والأعين والآذان » أو بمعنى آخر الجسم كله « تعد عوامل ملهبة تحول بين الروح والصدق • واذا كان الموت هو نهاية كل شيء بالنسبة للناس، سعدوا بالتحرر من أجسامهم » • وتقول محاورة الاعتذار (Apology) انه اذا ظن المرء انه لا شعور بعد الموت وانما هو « نوم من نوع ما يغوص فيه من ينام بلا أحلام ، فان الموت يكون كسبا يجل عن كل وصف » • وهذا الموقف الثاني من التاريخ يتفق والبيان الوارد في محاورة الثيائتيتوس : « والشرور ياثيودوروس ، لا يمكن أن تزول أبدا • اذن، لابد أن يبقى على الدوام شيء معاد للخير • اذ أنها لا تجد لأنفسها مكانا بين الآلهة من السماوات ، فانها تحوم بالضرورة حول الطبيعة الفانية وحول هذه الكرة الأرضية • من أجل ذلك ينبغي لنا أن نطير متباعدين عن الأرض الى السماء بأسرع سرعة نستطيعها ، وان في الطيران لمشابهة « بالله » بقدر ما يكون ذلك ممكنا ، وفي التشابه « واياه » يصبح الانسان مقدسا وعادلا وحكيما » •

...

وقد غادر أرسطو أكاديمية أفلاطون وأسس الليسيوم الخاص به • ومع أن بعض المحدثين من العلماء أكدوا وجود أوجه شبه بين فلسفتي هذين المفكرين ، فان ما تم ادراكه منذ أقدم العصور من الفروق المميزة بينهما أعظم أهمية • ذلك أن أرسطو بالنسبة للحياة العملية أخذ بفكرة « الوجهة الدنيوية » وهي الاتجاه العام لدى الاغريق • فكتب في اشارة واضحة الى « فكرة » أفلاطون عن « الخير » : « وحتى لو كان هناك خير ما واحد ، وهو أمر يمكن على وجه العموم التكهن به بالنسبة لضروب الخير ، أو كان يمكن أن يوجد وجودا منفصلا ومستقلا ، فان من الواضح أنه شيء لا يمكن الانسان احرازه ولا بلوغه » ، ولكننا الآن ننشد شيئا يمكن الوصول اليه • « وقد أصر على خصوصية ضروب الخير • مثال ذلك ، ان الطبيب ليس من اختصاصه « الخير في حد

ذاته » ، وانما هو « بصحة الانسان معنى » « أو بالحرى بصحة انسان بعينه : فهو انما يشفي الأفراد » ·

وقد فكر أرسطو فى خصائص الانسان باعتباره حيوانا ، ولكنه أصر على انه يختلف عن سائر المخلوقات الأدنى من الانسان بما تميز به من عقل · وتشتمل السعادة الانسانية على ارضاء كل من الطبيعة الحيوانية والطبيعة العقلية · ومذهبه فى الأسباب الأربعة يمكن تطبيقه على التاريخ ، فانه اعترف بأن نشاط الارادة يعد سببا فعالا · « والسبب النهائى » أو الغرض الجوهرى من أى كائن هو تحقيق طبيعته الخاصة المميزة ·

والغرض من التاريخ بالنسبة للانسان ، هو ارضاؤه بوصفه كائنا نفسيا بدنيا [سيكوفيزيائيا] ، أو بوجه أخص ارضاء لعقله ·

وقد أكد على موقف الاعتدال ، الذى اعترف به الاغريق بصفة عامة ، ولكنه أصر على أن « الوسط بين متطرفين » ينبغى أن يكون متناسبا مع الفرد والظروف القائمة · ولما كان الانسان بطبعه « حيوانا اجتماعيا » فان تاريخه لم يلبث حتى شمل التنظيم السياسى · واستعرض أرسطو أشكال الحكم السياسى التى أمكن أن تكون واقعية فى التاريخ أو كانت كذلك فعلا ·

وقد بحث فى أشد الطرق توصيلا الى الارضاء الكامل لطبيعة الانسان · ومن المعلوم أن كتاب «السياسة « politics » على ما نجده الآن غير كامل » ·

وربما كانت وجهة نظره أن خير الأحوال هى الحالة التى فيها ينبغى أن يحصل كل ذى كفاية وجميع من أوتوا كفاية للاسهام فى تلك الحالة ، على قدر من الاسهام يتفق وكفايتهم ·

وقد اعتبر بعض الناس كالأرقاء مثلا مجردين من تلك القدرات • ومع أنه ربما اعتبر استخدام العقل فى التأمل الفلسفى أعلى قيمة يبلغها الانسان ، فانه لم يشدد على ذلك الاستخدام بصورة تستبعد أية قيم أخرى • واذ سلم غيبيا [ميتافيزيقيا] بأن العقل ، وهو العنصر الشامل فى الانسان ، يبقى بعد موت الجسد ، فانه لم يعلم مذهبا للخلود الشخصى بطريقة تجعل الحياة المستقبلة هى الدافع للسلوك فى هذه الحياة •

وبعد أرسطو ظهر ببلاد اليونان عدد من الفلسفات المختلفة ، وسنعود الى بحث الابيقورية والرواقية والأفلاطونية الحديثة فى موضع تال من هذا الفصل •

« ٣ »

أما الرومان فكانوا شعبا غلبت عليه النزعة العملية دون النزعة الذهنية ، ومنذ النصف الأخير من القرن الثانى قبل الميلاد تمرست قلة صغيرة بالفلسفة ، نتيجة الدوافع والمؤثرات القادمة من بلاد الاغريق •

والرومان قوم شعروا منذ أقدم العصور بأعظم الاكبار للحياة العائلية التى كان فيها للمنسك الدينى العائلى ، أهمية مستديمة • وفوق هذا ، فان الرومان كانوا شعبا متماسكا كالبنيان المرصوص بوصفهم مجتمعا • وأحس الجميع أن العائلة والمجتمع يتأثران جميعا بقوى فوق انسانية أو قل الهية • ولكنهم لم يتصوروا تلك القوى الالهية على نفس المعنى العصرى لذلك المصطلح (١) ولم يكن

---

(١) يتفق هذا الرأى مع رأى المستر و• وارد فاول فى كتابه Roman Ideas of Deity ، لندن ١٠١٤ ص ٩٢ حيث يقول : « لم تكن الآلهة الرومانية آلهة شخصية ، بل قوى للطبيعة لها وظائفها ، ولها ميل الى تكوين التجريدات » على أن الدكتور بوتيات يميل الى تخطئة هذا الرأى •وشكه هذا يمكن تبريره ، وذلك لان الرومان ربما تجاوبوا مع أربابهم كأنما هم كائنات مثلهم فى حالة نزوع وارادة واعية •

الرومان ميالين بطبعهم الى الأسلوب الميثولوجي من صنع الأقاصيص حول الآلهة . ومع ذلك ، فانهم أوتوا شغفا بالغا بالسجلات التاريخية . ومن بين التواريخ الكثيرة التى كتبوها ، كان أشد تلك التواريخ اتساقا مع هدفنا هو الذى ألفه يونانى هو بوليبيوس (٢٠٤ ـ ١٢٢ ق.م.) .

أخذ بوليبيوس على عاتقه كتابة شىء بدا له فى ذلك الزمان أنه « تاريخ عام » . فانه أصر على أنه لكى يستطاع الحصول على نظرة صادقة عن التاريخ . ينبغى استعراض التاريخ كاملا بكل ما حوى من أجزاء مترابطة . وكان شغوفا بوجه خاص بالبحث فى الطريقة التى تمكن بها الرومان من اخضاع : « المسكونة كلها لحكمهم الوحيد » .

وعالج السجلات التاريخية على أنها ذات قدر برجماتى . وهو يرى « انه ليس ثمة تقويم للسلوك أكبر من المعرفة بالماضى » . أما من ناحيته هو ، فانه أقبل على الكتابة من وجهة نظر البصيرة العادية السليمة ، مع الاعراض عن المعتقدات الخرافية أو نبذها . ولم تكن اشاراته الى الحظ تومىء الى الربة « فورتونا » [الحظ] ، التى كان بعض الرومان يؤمن بها ، مذ كان الحظ عنده هو «طبيعةالأشياء»، هو الظروف الفعلية لأى زمان أو مكان بعينه . والظروف قد تكون مناسبة مواتية أو غير مواتية . فان كانت غير مواتية ففى مستطاع الناس معارضتها أو مقاومتها أحيانا . ويتضح من هذا أن بوليبيوس كان يرى أن أهم شىء فى التاريخ ، انما يرجع الى ما يتصف به الناس من أخلاق وأفكار : أو الى افتقارهم اليها . وليس هناك سوى مستثنيات قليلة فقط من هذه القاعدة يمكن نسبتها « للحظ السعيد أو الصدفة » . وهو لم يعتبر الممتلكات الرومانية الشاملة « مصيرا » قدره الله . « وانما هى شىء يرجع الى ما أخذوا به أنفسهم من دربة على المغامرات الضخمة المحفوفة بالمخاطر» .

وأشــار أكثر من مرة الى ما كان الرومانى يقســمه من أيمان والى الوفاء الذى كانوا يستمسكون فيه بتلك الأيمان. وربط بين ذلك وبين اتجاههم الدينى . « وفى ظنى أن الخلة التى تتميز فيها الدولة الرومانية بأقصى درجات التفوق هى طبيعة اقتناعاتهم الدينية » . فأما بوليبيوس نفسه فيرى ان ما فى الدين من رطازات [ميثولوجيا] ومناســك قد جعــل للعامة من الناس الذين يتأثرون بمظاهر الفخـامة وصنوف الرعب غير المرئية .

وما كانت الديانة لتـكون شـيئا ضروريا « لو ان فى الامكان اقامة دولة مكونة من الحكماء » . وكل ما كان يتمناه انما هو مجرد تفسير سببى للأحداث القائمة فى التاريخ . « فينبغى لنا أن نلتمس سـببا أو علة ، وذلك أن كل حادثة ســواء أكانت محتملة أم غير محتملة لابد لها من سـبب » . « فحاول أن يظهر تسلسلات تتبعها من أسباب بعيدة الى اخر عواقبها » . وبعد أن استعرض بوليبيوس قيام دولة الرومان عاد فتوقع نهايتها اقتناعا منــه بوجــود عمليــة دورية فى التــاريخ . « وتلك هى فى نظره دورة الثورة السياسية ، هى السبيل الذى عينتــه الطبيعة والذى به تتغير الدســاتير وتختفى ، ثم تعود فى النهاية الى النقطة التى بدأت منهــا . أجل ان كل من أدرك هذا بوضوح ، ربما أخطأ فعلا فى أثناء حديثــه عن مســتقبل أية دولة ، فى تقـــدير الــزمن الذى ستستغرقه العملية ، ولكن اذا لم تفسد العداوة أو الحســد عليه حكمه ، فانه قلما أخطأ فى تحديد الشكل الذى ستتغير اليه الدولة .

وستمكننا هذه الطريقة عند استخدامها بخاصة فى حالة الدولة الرومانية من الوصول الى معرفة بطريقــة تكوينهــا ونموها ومضيها الى أعظم الكمال ، وتعرفنا بالمثل بالتغيير الى الأسوأ الذى لابد أن يعقب ذلك فى يوم من الأيام . وذلك

أنه ــ كما قلت ــ تكونت هذه الدولة بصورة طبيعية أكثر من جميع الدول الأخرى ونمت نموا طبيعيا ، وسيمر بها اضمحلال طبيعي ثم تتحول الى نقيض ما كانت عليه » ٠

وثم كاتب متأخر عن بوليبيوس أوتى سلطانا أوسع مجالا منه ، وهو الشاعر فرجيل [٧٠ ــ ١٩ ق٠م٠] ، الذى لم يستسغ ــ وقد أوحت اليه عظمة روما بالالهام ــ فكرة اضمحلالها وسقوطها ٠ ذلك أنه لم ينظر الى تاريخها باعتباره ببساطة طبيعيا محضا بالمعنى الذى ذهب اليه بوليبيوس ٠ فالأصل فى نشوء روما عنده ربانى مقدس ، كما أن مصيرها أبدى ٠ وقد كتب فى « الانيادة Aeneid » مسجلا رسالتها للعالم ٠ وقال وارد فاولر : ان الانيادة عبرت للرومان من أبناء زمانها عن الاقتناع بأن « العناية » أو الارادة الربانية، أو اله العقل عند الرواقيين ، أو كما يعبر السياق الشعرى للقصيدة ٠ جوبيتر ، المعبود الرومانى العظيم الحارس ، تحف به من ورائه « الأقدار » متصورة تصورا مبهما الى حد ما ، قد قادت « الدولة » الى العظمة الامبراطورية، من مدارج طفولتها فصاعدا ، كما أن مواطنى تلك الدولة لابد أنهم جديرون بذلك المصير ان كان لهم أن يواصلوا النهوض بالعمل العظيم ٠ وتسرى هذه النغمة القوية العاتية فى القصيدة من أولها لآخرها » ٠ وتتحكم فى مصير الانسان الى حد ما قوى غير نفسه ٠ ومع ذلك ، فان هناك اعترافا بعنصر ما من الحرية والاختيار ٠

وتقول الروايات ان ديدو وقد « مسه الجنون لصروف المقادير » ــ كان يلفظ النفس الأخير « لا بحكم مجرى القضاء بل لأنه راح ضحية لوثة مفاجئة » ٠ وصرح أبو الآلهة وهو يخاطب مجلسا انعقد على جبل أوليموس بقوله : « لقد نهيت ايطاليا عن ملاقاة الطروادبين (Teucrians) فى صدام الحرب: فأى كفاح هذا الذى يجرى فى تحد لشرعتى ؟ « وتذهب

القصيدة الى أن عظمة روما انما ترجع بعد عون العناية ، الى فضيلة (Virtus) الرومان وتقواهم (Pietas) • وكان التمشى والمبادىء المقدسة لمكارم الأخلاق ضروريا للنجاح فى التاريخ • ان جوبيتر « ملك للجميع بدرجة متساوية » وهو « يرفع موازينه [بالقسطاس] متزنة ومستوية » • « وان مساعى كل انسان لابد أن تجنيه محصول العمل أو الحظ » •

وكان القصد من رحلة آينياس (*) الى الجحيم (Hades) هو تطهير خلقه وتقويته ، كما انها رحلة أثارت الأسئلة حول ما يعقب الموت • والرحلة فيما يرى وارد فاولر كانت تعبيرا عن « حنين فى روح الانسان الى الأمل فى حياة بعد هذه ، والى جعل هذه بمثابة اعداد مناسب لتلك الأخرى » • ومع ذلك ، فان الكتب الستة الأخيرة من الانيادة مدارها مستقبل الشعب الرومانى فى الأرض مع تمكينه من مصير السيادة الدائمة للعالم •

والذى حدث فعلا هو أن روما مسها التدهور والسقوط • ودارت فى أسباب ذلك أبحاث كثيرة بين المؤرخين • منها انغماس البطارقة النبلاء فى حياة الدعة والترف ، وهم الذين كان ينبغى لهم المحافظة لها على قوتها • وربما كان الباعث على هذا النوع من الحياة ، المذهب الابيقورى الذى كان من أوائل الأشكال الفلسفية التى تم ادخالها الى روما من بلاد اليونان • ومع انه ظهرت منذ أقدم العصور اتجاهات نحو الحياة مماثلة لاتجاه الابيقورية ، فان ابيقور [٣٤١ ــ ٢٧٠ ق• م] هو الذى خولها دفاعا فلسفيا • فهل كان المذهب الأبيقورى موضع القبول ببلاد اليونان من مجموعة تتجاوز قلة صغيرة من الأثرياء ؟ ــ ذلك ما يصح الشك فيه • على انه

(*) اينياس : هو فى الاساطير الكلاسيكية امير طروادى اصبح البطل السلفى للرومان ــ (المترجم) •

ربما زاد عدد أتباعه بين الرومان الذين أمدهم ما أحرزوه من نجاحات سياسية بوسائل الاستمتاع ٠

ويمكننا ذكر مضامين الابيقورية بالنسبة للتاريخ فى أيسر صورها ٠ فهى تصور الانسان تصورا فيزيائيا بحتا : فما يسمى بالشعور [الوعى] يتوقف عند الموت ٠ والتاريخ الذى له قيمة حقة لأى انسان انما هو له فى أثناء فترة حياته ٠

ومن العجب أن ابيقور سلم بالاعتقاد بوجود الآلهة ، ومع ذلك فانه اعتبرهم على بعد سحيق ، ولم يعترف لهم بأى انشغال بتاريخ الناس ٠

وهناك خوفان عظيمان كان الناس يرون فيهما العائقين الكبيرين للسعادة البشرية ، واذا هما بذلك يعتبران بغير أساس عند الابيقوريين وهما : الخوف مما قد يعقب الموت ، والخوف من غضب الآلهة ٠ وذلك أنه ليست هناك حياة شعورية مستقبلة تجىء بعد الموت ، كما أن الآلهة لا يأبهون بالناس ٠ وتقول قصاصة تنسب الى ابيقور : عندما نكون لا يكون الموت ٠ واذا ما جاء الموت لا نكون ٠ « وكأن هذا الفكاك من أسار الخوف من المعاني الضمنية التى احتوتها قصيدته » عن طبيعة الأشياء ، (Dererum natura) للوكريتيوس [٩٩ ــ ٥٥ ق٠م٠] ٠

وربما فات كثيرا من الرومان ، كما حدث من غيرهم فيما أعقب ذلك من أيام التاريخ ــ فهم تعاليم أبيقور على وجهها الصحيح ، معتبرين اياها منطوية على اباحة اللذات الجسية الشهوانية ٠ بيد أن الافراط فى هذا الاتجاه ربما أدى بالمرء الى الألم ، وهو شىء ينبغى تجنبه بقدر ما تلتمس المتعة ، أما المثل الابيقورى الأعلى فهو فى الحقيقة مثل للقناعة اليسيرة مع الامتناع عن الرغبات المتعددة ، ولم تدع

تلك الفئة الى الزهد ، وانما دعت الى كبح جماح الرغبات التماسا لحياة حافلة بالراحة · اذ من الممكن أن يتجنب الناس الألم بشكل أحسن بانتاجهم سلوك الفضيلة · وهم يحصلون على اللذة من الشفقة بالغير · واذ يعتبرون التاريخ مجموعة طبيعية من العمليات ، فانهم نظروا الى السجل التاريخى نظرة برجماتية · بوصفه شيئا يوضح الأسباب التى أدت الى حياة رصينة سارة ، والتى أفضت الى العناء والمكابدة ·

ولم يكن لديهم اهتمام جدى بالتاريخ المستقبل للمجتمع ، ولم يبذلوا أى جهد للوصول الى حضارة أعلى تستطيع الأجيال التالية الاستمتاع بها · وكان معنى التاريخ بالنسبة لكل منهم ، بلوغ حالة لذيذة منالاتزان مدة حياته · وتثير قصيدة لوكريتيوس سؤالا له شأنه : فهل شاع فى زمانه بين الرومان خوف مما قد يجىء بعد الموت ؟ لقد أشار أصحاب المذهب الفيثاغورى الذى ظهر بجنوب ايطاليا بما وضعوا من تمييز بين الروح والجسم ، الى امكان تنعم الروح بالسعادة فى حياة مستأنفة ·

ومما يجدر ذكره هنا أن الاتزان المتعادل كهدف مرموق قدمه أيضا جماعة الكلبيين طليعة الرواقيين ، ولكنهم افتقدوا الفطنة الذهنية التى وهبها شراح المذهب الرواقى ، الذى وضعت صيغه عند نهاية القرن الرابع وبداية الثالث قبل الميلاد ، نقلا عن تعاليم زينون وكريسيبوس · وذلك المذهب وان كان عقلانيا (Rationalistic) ، فان الدافع فيه أساسا كان عمليا · وقد ساعد على تهذيب الخلق الرومانى من حيث تشجيع قوة الارادة والعمل على تدريبها ، « بارشاد العقل » ، أى من حيث التحكم فى الاندفاعات والشهوات · واهتمت الرواقية بالتاريخ على ما يمارس بصورة مباشرة ، كما أنها لم تحض على الفرار منه ، فاتفقت بذلك واتجاهات اليونان والرومان العامة من الحياة · ولعل ذلك هو السبب

الأكبر في أن الاقبال عليها بين الرومان ذوى الميول التفكيرية كان أشد منه على مذاهب نبذ العالم التي توحي بها بعض « المحاورات » الأفلاطونية ٠

واعتبر الرواقيون ما في العالم الفيزيائي من اتسقات مظهرا للعقل ، فلقد تصوروا الله في صورة عقل عام وشامل متأصل في « المجموع » كله ٠ وعلى الرغم من ان لغتهم ربما أوجدت ضمنا في بعض الأحيان بكائن شخصي أعلى مثل معبود العقائد التأليهية ، فان « العناية » كانت هي ذلك العقل المتأصل ٠ « وتهتم العناية » باعتبارها عقلا شاملا بما في الحياة من أحداث فرادى ، وخاصة من حيث علاقاتها في داخل « المجموع » ٠ والأحداث جميعا من وجهة نظرة فكرة « المجموع » ستبدو « ضرورة » ، أعني انها جبرية ٠ ومع ذلك ، فلقد حاول الرواقيون الاعتراف بالجدارة الخلقية والمسئولية الخلقية مع تضمين ذلك وجود « حرية عقلانية » لدى الأفراد ٠ على أنهم وجدوا شيئا من الصعوبة في التوفيق بين مبدءين الضروري والحرية وجميعهما في صعيد واحد ٠

وكانوا من الناحية الكونية يؤمنون بفكرة الدورات العالمية ٠ ذلك أن العالم كما نعرفه قد قام ، وهو في النهاية سينتهي ، وعندئذ يبدأ الدور من جديد ، ويمضي في مجراه ثم ينتهي وهكذا يتكرر الى الأبد ٠ ولم يدر بخلد معظم الرواقيين على الاطلاق ان هذه الحياة زمن اعداد لحياة مستقبله في عالم آخر ٠ ففي رأيهم أن قيمة هذه الحياة لابد من العثور عليها في هذه الحياة ٠

وقد حبس شيشرون [١٠٠ ـ ٤٣ ق٠م٠] كثيرا من كتاباته على شرح الفكرات الفلسفية الاغريقية ٠ وبعد مقارنة بين النظريات المتناحرة التي وصفها في كتابه : عن طبيعة الأشياء De natura deorum أبدى اعتقاده بأن المذهب الرواقى أقرب الجميع الى الصدق ٠ على أن ما يقدمه شيشرون يغلب عليه طابع المذهب التأليهي أكثر من مذهب

وحدة الوجود الرواقى • فالعالم والكائنـات البشرية انما ترجع الى « عقل » يتولى باعتباره « العناية » رعاية الناس فى التاريخ • فالدين بوصفه صورة اتصال الناس بالاله ناحية دائمة للتاريخ •

وتعرض بعض فقرات من كتابه « عن الشيخوخة » على أسـماعنا اتجـاها من التـاريخ يماثل اتجـاه ماركـوس أوريليوس ؟ فان للطفولة اهتمامات وأعمالا معينة ، فهل يحن الشباب اليها ؟ وللفترة الباكرة من الشباب محبباتهـا التى تسعى اليها • فهل تحتاج اليها مرحلة الحياة الناضجة أو التى يسمونها بالنصف والاكتهال ؟ ثم ان مرحلة النضـج أيضـا لها من مجالات المساعى المحببة مالا ينشد فى السن العالية ، وأخيرا تجىء الاهتمامات المناسبة للسن العالية • وبناء عـلى هذا ، كما تتساقط مسرات ومساعى الفترات الباكرة من الحياة ، فكذلك تفعل مثيلاتها للسن العاليـة ، ومتى حدث ذلك يكون الانسان استوفى كامل قسطه من الحياة ، وآن له أن يذهب • ولابد من التماس الأهميـة والدلالة فى تاريخ الفرد فى أثناء مضى ذلك التاريخ قدما • « وتمر الساعات والشهور والأعوام تباعا ، والماضى لا يرجع أدراجه البتة ، وما سيكون لا سبيل لنا الى علم به • ومهما يكن ذرع الزمن الذى نعطاه لكى نحياه ، يجب علينـا من ثم أن نقنع به » ، « وذلك انه حتى لو كان النصيب المقسـوم لنـا من العيش قصيرا ، فانه من الطول بحيث يجعلنا نعيش عيشة شريفـة طيبة • « ومع ذلك ، فان شيشرون عاد بعد ذلك فأخذ يحس بأنه لابد أن يكون هناك شىء معد للناس بعد هذه الحياة » • وكتب قرب اختتامه كتابه فى المنازعات التسكولية : « ذلك أن ميلادنا وخلقنا لا يرجع الى الصـدفة العمياء أو الحادثة العفوية ، ولـكن من المؤكد أن هنـاك قوة ترقب البشرية ، لا قوة تنتج وتصون جنسا بشريا ، يعود بعد استنفاد عبء الأحزان الكامل الذى يثقـل كاهله ، فيقع فى الشر الأبدى

وهو الموت» : فلنعده مرفأ أمينا وملجأ كريما قد أعد لنا كى نلوذ به : على أن من المحال علينا أن نقطع مع التأكد فى مدى انتشار هذه الفكرة ومشاركة الرومان المتعلمين من أبناء عصره ·

ولكن محور الاهتمام المسيطر على المؤرخ اللاتينى انما هو تاريخ روما : أصلها وأحوالها الداخلية ، وحياة كبار زعمائها وامتداد رقعة سلطانها · وجرت العادة فى الجملة ألا تذكر الشعوب الأخرى الا من حيث علاقتها بالتاريخ الرومانى · وهنا نستطيع أن نوجز الاشارة الى اثنين فقط من المؤرخين ، هما ليفى [٥٩ ق · م ــ ١٧ للميلاد] وتاكيتوس [ح ٥٤ ــ ح ١١٧ م] · ويغطى كتاب « تاريخ روما » الذى وضعه ليفى مدة طويلة من الزمن · كما أن معالجته لموضوعه تفصيلية مسهبة · كتب فى مقدمته يقول : « ذلك هو الشيء الذى يتصف بوجه خاص بالمنفعة والثمرة الناجعة فى دراسة التاريخ ، وهو أن تشهد أمثلة من كل ضرب ونوع فى حركة ظاهرة للعيان ، بحيث تستطيع أن تنتقى منها لنفسك وبلادك كل ما تستطيع محاكاته واتخاذه أسوة لك ، ومن ثم فانك تلحظ كل ما يشين عمله فتجتنبه وكل ما تزرى بالناس نتيجته فتتوقاه » ، واقتناعا منه بأن سجايا الشعب الرومانى هى التى بوأت روما مكان العظمة ــ حاول الاشارة الى الفضائل التى أفضت بها الى ما أحرزته من صنوف النجاح ، والرذائل التى عادت عليها بالكوارث ·

ورغم ذلك ، فانه فى كل ثنايا كتابه [كما هو عليه الآن] راح يصف النذر والأعاجيب بأنها تنطوى على مؤثرات خارقة للطبيعة · فالرومان يمتلكون ما شاء فضل الآلهة أن يهبه لهم · « ومع ذلك ، فهناك فى النهاية ضرورة قاضية « لا يستطيع أحد التغلب عليها حتى الآلهة أنفسها » · وهو يصرح فى مستهل كتابه : « فى رأيى أن الأصل فى مدينة على

مثل ذلك العظم ، وتأسيس امبراطورية هى التانية لا جرم لامبراطورية الآلهة ، يعد من عمل الأقدار » • على انه رغم هذه التأكيدات والبيانات ، فان رواية ليفى توضح آن التاريخ الرومانى تم على يد الشعب الرومانى بعون من الآلهة •

أما كتابات تاكيتوس فهى انما تدور حول فترة وجيزة من التاريخ الرومانى ، وهى فترة « طفحت بما فيها من كوارث وزخرت بالحروب الرهيبة وتمزقت بالنزاع المدنى • بل انها مترعة بصنوف الرعب حتى فى زمن السلم » ، ومع أنه كثيرا ما استخدم عبارات مثل « غضب السماء » ، فانه لم يلتمس للتاريخ أى تفسير لاهوتى ولا دينى •

ومع أنه سجل بعض الحوادث التى اعتبرت نذرا ، فانه هو نفسه اعتبر الأسباب شيئا « عرضيا وليد المصادفة أو طبيعيا » • فبعد أن أشار الى نذر شر اعتقد الناس بوجودها فى احدى الحالات ، عاد فقال : « ان أشد المناظر نذيرا بالسوء هو مشهد فيتيليوس(*) نفسه » • وتنحصر أهمية « تاريخه » و « حولياته » فى معالجته التاريخ باعتباره شيئا يعتمد قبل كل شىء ، والى أقسى حد ، على ما يتصف به الرجال من صفات شخصية ، أى على قوة أخلاقهم أو ضعفها ، ومجال بصيرتهم وبعد نظرهم أو جهلهم • فضائلهم أو رذائلهم •

والى جوار ما صدر عن الأباطرة وغيرهم من الزعماء من شرور ، أقبل يذكر ما اتصفت به الدهماء من تقلب أهواء وافتقاد للنظام • كان مؤرخا « خلقيا » يبين للناس نتائج الخلق فى التاريخ ، وهو يمضى فى مسيرته • غير أنه لا يكاد يمس موضوعات لها مضمون فلسفى أعمق • وهو يقول :

(*) فيتليوس ، أولوس : (١٥ ـ ٦٩م) امبراطور رومانى انتصر على أوتو ثم هزمه فسباسيانوس وقتله ـ (المترجم) •

« انى أمتنع عن ابداء حكمى على دورات الشئون البشرية » وهل الذى يتصرف فيها هو القدر والضرورة القاهرة التى لا سبيل الى تغييرها ..

والحق انك لتجد بين أحكم الاقدمين وبين تلاميذهم وحوارييهم نظريات كثيرة شديدة التناحر . فمنهم كثير يعتقدون بعد ذلك بأنه ــ رغم أن هناك انسجاما بين القدر نهايتها ، أو بعبارة موجزة ولا حتى بالبشرية على الاطلاق ، وانه جرى بناء على هذا ان كانت الأحزان على الدوام نصيب الطيبين والسعادة « قسمة المسيئين » على حين أن آخرين يعتقدون بعد ذلك بأنه ــ رغم أن هناك انسجاما بين القدر والأحداث ، فانه لا يعتمد على النجوم السابحة ، وانما اعتماده على عناصر الطبيعة الأولية وعلى مزيج من الأسباب الطبيعية . ومع ذلك ، فانها تترك لنا القدرة على اختيار نوع حياتنا ، فاذا اعتمدنا ذلك الرأى فان الاختيار ما أن يتم ، حتى نرى هناك تعاقبا ثابتا للأحداث .

والخير والشر ليسا على ما يحسبه الرأى السوقى : فان كثيرين ممن يبدون كأنما يكافحون الملمات هم فى الحقيقة سعداء ، كما أن كثيرا ممن يملكون ثروة طائلة يمكن أن يقال عنهم انهم تعساء » . « وربما كان هناك ضرب من الدور Cycle فى الأشياء جميعا ، كما أنه من الممكن أن تجرى دورات خلقية مثلما تحدث تغيرات الفصول على حد سواء » .

والواقع انه فى نهاية كتابه « حياة أجريكولا » قد أشار فعلا الى حياة مستقبله ــ « ملاذ تسكن اليه أرواح من تجملوا بالفضائل » ــ ولكن ذلك جاء على صورة احتمال فحسب . وترتبط أحكامه على الرجال بأحوالهم الدنيوية دون غيرها . ولا تحتوى أعمال ليفي وتاكيتوس على أية اشارة الى أن الرومان كانوا يعتبرون أو وجب عليهم أن يعتبروا الهدف

المسيطر على الناس فى التاريخ هو الخلاص من الخطيئة ، ولا انهم كانوا يهتمون أو يتحتم عليهم أن يهتموا بأية فكرة تدعو الى الفرار من العالم ، بوصـفه شـيئا عابرا يؤدى الى مملكة متسامية سرمدية •

ـ ٤ ـ

عمد الامبراطور دوميتيان فى ٩٤ للميلاد ، وقد خشى على الأرجح من حدوث تنبيه واثارة للتحـرر الفـكرى بين رعاياه ــ الى اصدار مرسوم أبعـد به الفلاسـفة من روما • وكان من بين هؤلاء ابيكتيوس وهو عبد عتيق • ويشف ما وصلنا من كتاباته عن اتجاه رواقى من التاريخ • « تذكر أنك ممثل فى تمثيلية ، تقـوم بدور اختـار مدير الفـرقة اسناده اليك ، وهو دور قصير ان هو اختار لك دورا قصيرا ، ودور طويل ان وقع اختياره لك على دور طويل » • وسـواء أكان الدور بالمصطلح البشرى قصيرا أم طويلا ، فانه على كل حال وجيز • « وذلك أنى لست «خالدا» ، وانما أنا انسان ، أنا جزء من مجموع الأشياء ، مثلما أن الساعة جزء من يوم • فأنا مثل الساعة لابد أن أجىء ومثل الساعة لابد أن أنقضى» •

وذهب أبيكتيتوس الى اعتبار الرجال متصفين بالتعقل ، مشتركين فى عقل عام يشملهم جميعا ، فراح يحضهم وزين لهم أن يعتبروا تاريخهم مسـتظلا بظـل الهيمنـة المحسـنة « للعناية » • وبهذا الاعتقاد ينبغى لهم الاسـهام جميعـا فى الثناء بابتهاج على الله • « لو أننى كنت بلبلا ، لسرت وفق طبيعة البلبل ، ولو أنى بجعـة ، لتمشيت وطبيعة البجعة • ولكننى مخلوق عاقل مفكر ، وينبغى لى التغنى بالثنـاء عـلى الله : ذلك واجبى وذلك ما أعمله ، كمـا أنى مـادام ذلك ممنوحا لى لن أتخلى بتاتا عن ذلك الموقع • وأنتم أيضا أنا أدعوكم الى الانضمام معى فى نفس الأغنية » •

وأروع ما كتبه رومانى من تأملات تتصل بطبيعة التاريخ وأهميته ، تأملات « ماركوس أوريليوس » (١٢٠ — ١٨٠ للميلاد) ، وهو رجل له دور بارز فى التاريخ الرومانى فى أثناء توليه القصير لمنصب الامبراطور . ويعبر كتابه « التأملات » عن كل من مزاجه الرومانى وتفسيره الرومانى للأفكار الرواقية . ولو أصدرنا حكمنا بناء على عدد الكتب المختلفة التى يشير فيها الى اقتناعه ، نجد أنه كان على اقتناع راسخ عميق بأن الكون كمجموع ، متضمن فى عملية «دور» . فطبق هذه الفكرة على التاريخ . « ان خط سير الطبيعة » ظل واحدا لا يتغير منذ الأزل بأجمعه وكل شىء يظهر فى دائرة . « ان هذا العالم نفسه يعيش بالتغيرات المستمرة التى لا تلم بالعناصر فحسب ، بل بتلك الأشياء التى تتكون من تلك العناصر فى دورة مستديمة من تعاقب التولد والتحلل » . « ويحدث التكرار دائما فى ثنايا تغيرات التاريخ ، والتاريخ هو هو لا يتغير على الدوام من حيث طبيعة محتوياته .» «فمن شهد العصر الحاضر فقد رأى كل شىء كان أو سيكون الى اخر الأبد كله ، وذلك أن الأشياء مضت على الدوام فى سبيلها وستمضى دائما ، على طريقتها المتسقة المتماثلة » « وعلى الجملة ، لو أنك قلبت الفكر فيما يجرى حولك ، وجدت ان جميع أحداث العصر الحالى ، هى نفسها التى تمتلىء بها تواريخ كل عصر . فلا جديد هناك ... » « استعرض ببصيرتك بلاط هادريان بأكمله أو بلاط أنطونيوس أو فيليب المقدونى أو كرويسوس ، وذلك أنك ستجد أنها جميعا تماثل ما لديك من دراما ، وان اختلف الممثلون فى كل دراما » . فكان طول الحياة اذن مسألة غير ذات وزن فى الحقيقة . وذلك ، « لأننا سواء أشهدنا ذلك المشهد مدة مائة سنة أو مائة ألف سنة ، فان نهاية كل شىء واحدة بلا تغير » . « وبمثل هذا الاعتقاد لم يكن يتهيأ لفكرة الحياة بعد الموت الا أقل القبول . اذ لم يكن من المستطاع استخدامها

لفرش فرشة من الأمل في وجه شرور الحياة الراهنة ، وذلك لأن الحياة المستقبلة لن تكون اذن سوى تكرار لخبرات هـذه الحياة .

ولم ينكر ماركوس أوريليوس انكارا مطلقا احتمال استمرار الوجود الشخصي بعد الموت. فالانسان جسم وروح. فاذا حان الموت، « تحول الاطار البدني الى عناصره الأصلية. » وذلك على حين ان » الجزء الروحي أما ان يخمد أو يتحول الى حالة ما أخرى للوجود». ويبدو أن الفكرة المسيطرة عليه هي أن : « الكائنات الروحية جميعا تذوب سريعا في روح الكون ، كما أن ذكرى الأشياء جميعا تدفن بنفس السرعة في خضم الزمن » .

ولا يجوز التماس دلالة التاريخ في حالة أرضية مستقلة يمكن اعتبار الحياة الحالية بالنسبة اليها وسيلة وأداة ، ولا باعتبارها اعدادا لحياة أعلى بعد الموت . فان لكل فرد مدته الزمنية . « اذ الكائن الأعلى يقسم لكل مخلوق نصيبا مناسبا من الزمن » . وبذا تكون « الآن » من مدته الخاصة ، هي التي ينبغي أن نبحث فيها عن معنى التاريخ بالنسبة اليه والى كل فرد . وقد ركز ماركوس أوريليوس التفاته على « الآن أي اللحظة الراهنة . واذن فان تلك المزايا جميعا (أي حالة الكمال والسعادة) التي تريد بلوغها مخترقا دورة طويلة من الزمن والنصب ، فانت مستطيع الحصول عليها الآن ان لم تكن عدو نفسك . وهو شيء سيتم لك ، ان أنت ، وقد أصبحت لا تفكر بتاتا في الزمن الماضي ، وتركت المستقبل «للعناية» ، ــ استخدمت الوقت الحالي وفق ما تمليه التقوى والعدالة ، فتخضع لما تمليه التقوى بالخضوع برضا وحبور لما قسم لك ، اذ أن ذلك سيقودك الى خيرك في النهاية ، كما أنك مقدر عليك ذلك النصيب ، وستخضع لما تمليه العدالة ، اذ مع الحرية وبلا مراوغة ستنطق بالصدق

وتتصرف فى جميع المناسبات حسب قانون العقل وطبق أهمية الشيء » . والخير الذى فى التاريخ كما نعيشه لا يمت الى المذهب اللذى بأدنى سبب . اذ يمكن العقل ـ بل ينبغى له ـ أن يكون غير آبه بلذة ولا ألم . والأساس الجوهرى للسعادة هو احترام الذات . « فتدثر بفضائلك وكن مستقلا . وذلك أن العقل المتحلى بالتعقلية الذى يعمل على الدوام بهداية العدل والنزاهة قمين ببلوغ السعادة وسيسعد بالهدوء الدائم » .

ومع أن هذه النزعة الفردية تعد شيئا جوهريا لدى ماركوس أوريليوس ، فانه اعترف اعترافا تاما بطبيعة الانسان وواجباته الاجتماعية . فكل مكلف بالقيام بنشاط « خلق لأدائه » ـ بما فى ذلك ما ينطوى عليه مركزه فى المجتمع من نشاط . « وكل ما أنا تواق اليه ، هو رجائى أنا نفسى ألا أقوم بأى شيء يناقض طبيعة الانسان ، ولا أن أتصرف بأية طريقة ولا فى أية مناسبة تصرفا لا يتواءم وواجبى أو مركزى » . « ولما كنا مواطنين زملاء فى دولة واحدة ، فان أول واجبات الانسان وأهمها جميعا تهذيب المجتمع » . على أنه هو بالتخصيص كان له مكانه كروائى ، ولكن نزعته كانت عالمية فهو يقول : « بالنسبة لى أنا أنطونينوس ، فان مدينتى هى روما ، ولكن موطنى باعتبارى انسانا هو العالم كله » .

والعقل فى حد ذاته شيء « لا سبيل الى قهره » : « ولا سبيل الى اجباره على غير رغبته » ، والعقل « سيادة مطلقة » فى فلكه . « والقدرة على العيش مستقرة فى عقلك بأقصى غاية السعادة » . وقد سلم ماركوس أوريليوس بآراء ثلاثة محتملة حول الأسباب النهائية (القصوى) لأحداث التاريخ :

(أ) أن كل شيء وليد الصدفة المحضة ٠

(ب) أن كل شيء تحدده « ضرورة محتومة » ٠

(جـ) أن كل شيء باستثناء ما يعود الى حرية الانسان ـ يرتكن الى « عناية » شفوقة رحيمة محسنة ٠ فتبنى الرأى الأخير ٠ فكل ما خرج عن متناول يدك وهيمنتك ينبغى تقبله مع الاتزان والهدوء ٠

ويرفض الاعتقاد « بالعناية » كل فكرة لذية عن التاريخ ٠ وذلك أن المرء المقتنع بفكرة لذية سيضطر الى « الاكثار من بث شكواه حول تصرفات العناية » ، قولا منه بأنها انما توزع أفضالها على المسيء الشرير والمتحلى بالفضيلة دون اعتبار لما عليه كل منهما من استحقاق ، حيث كثيرا ما تتوافر المسرات للشرير المسيء فضلا عن وسائل احرازها ، على حين أن المتجمل بالفضيلة ترهقه الآلام وغيرها من الظروف الأليمة » ٠ ومع هذا ، فان مما يتضمنه الاعتقاد فى « العناية » ، أن « جميع الأشياء انما تعالج بأقصى قسطاس وعدم تحيز » ٠ وهذا يؤدى بنا الى وجهة نظر ماركوس أوريليوس حول الشر فى التاريخ ٠ فان موقفه من هذه المسألة يغشاه شيء من الغموض ومع أنه أعلن أن : « العالم بأكمله نظام يؤلف بينه الانسجام » ، فانه غالبا ما أشار الى الآذى الشرير ٠ أما عن مصاعب الحياة وآلامها : « فان شيئا منها لا يقع على أم رأس انسان الا ماله القدرة على تحمله » ٠

والفقرة الأخيرة من « التأملات » كلمة رائعة حول كون حياة الانسان مسرحية درامية ، وهى مماثلة للفكرة التى يعبر عنها ايكيتوس ٠ « آه يا صديقى ، لقد عشت مواطنا فى هذه الدولة العظيمة ، العالم ، فما الجدوى التى عادت عليك من انك لم تعش فيها سوى بضع سنوات ؟ ٠٠ وهل

هناك أدنى مشقة فى انك لم تطرد من العالم ، على يد طاغية أو قاض ظالم ، بل يد ذلك « الـكائن » الذى أدخلك فيـه لأول مرة ، كما يفعل الوالى الذى يستخدم ممثلا للعمل عـلى المسرح ، اذ يطرده ثانية حسبما شاء ويهوى ؟ » •

« على أنى لم أمثل من المسرحية سوى فصول ثلاثة ولم أتم الخمسة بأكملها ! » •

« وهذا حق صراح ، ولكن الحياة قد تتم فيها المسرحية كلها فى ثلاثة فصول فقط • والذى يحدد ما فى التمثيليـة من حركة وعمـل ، هـو الذى طلب تأليفها أولا ويأمن الآن باختتامها • ولست مسئولا عن أى من العملين • فارحل اذن عن طيب خاطـر ، وذلك لأن الذى يطردك « كائن » كـريم ومحسن » •

ـ ٥ ـ

ثم جاءت قرون عديدة حـل فيهـا الانهيـار بالتنظيم السياسي الروماني ، ومع قدر كبير من الفوضى والتشويش الاجتماعى ، أصـيبت بالتفـكك طرائق العيش الرومانيـة العتيقة ، كما حدث ذلك بالمثل لحياة الاغريق • وظهرت فى ظل هذه الظروف المترعة بالآلام والتحرر من الأوهام ، عدة مذاهب مختلفة عن الافتداء وطرائق الخلاص ، وتنادى بهـا الناس فى طول أقاليم البحر المتوسـط الشرقى وعرضـها ، ومنها ما نبت بكل من مصر وفارس • على أن الأيام لم تلبث فى النهاية أن حققت للمسيحية السيطرة • وحدث فى عصر النهضة بايطاليا عودة الى بعض اتجاهات الاغريق من الحياة • وقد نقـل كل من القديسـين أمبروز (٣٤٠ ـ ٣٩٨) وأوغسطن (٣٣٤ ـ ٤٣٠) كثيرا مما احتواه الفكر اليونانى من الأشياء الصالحة • وكانت آخر حركة قوية فى ذلك الفكر هى الأفلاطونية الحديثة التى وضع أسسها أفلوطين (٢٠٧ ـ

٢٧٠ م) والتى أفضت فى أثناء القرون الباكرة من الحقبة المسيحية الى ظهور أشكال من الاغنسطية [اللامسيحية] والى فرق الهرطقة والبدع بين المسيحيين •

كتب و • ر • انج : « أن النظر والتأملات التى اتمها الاغريق فى مدى سبعمائة من السنين قد لخصتها الأفلاطونية الحديثة • على أن فى الامكان تحدى ذلك الرأى تحديا قاطعا • والبيان الذى أوردناه هنا مؤسس على كتابه « فلسفة أفلوطين » The Philosophy of Plotinus فى جزءين • والأفلاطونية الحديثة وان قدمت باعتبارها شكلا من أشكال الفلسفة ، فان أنصارها لم يعتبروها ثمرة التأمل العقلانى فحسب • وانما هى بالحرى تعبير رمزى عن المعرفة التى زعموا أنه تم الحصول عليها بالخبرة المستيقية • «فالحقيقة» القصوى هى « الأحد » ، وهو « المطلق » المنطوى على كل شىء ، والذى له الكمال • ومع انه قيل : ان « الروح ••• هى كل ما يوجد حقا » ، فان « الأحد » يوصف أحيانا بأنه « وراء الروح » • ولا يجوز الظن بأن الروح والنفس شى واحد ، وذلك لأن الروح « فوق الشعور » •

وقد تحدث أفلوطين عن « الروح الشاملة » ، وتحدث عن « الأرواح الفردية الخاصة » وعن « النفس الفردة » • « والأحد » هو أساس الجميع بوصفه بنيانا ذا مرتبة فى حد « ذاته » • وهو ليس سببا من حيث معنى الانتاج الوقتى • وذلك لأن « الأحد » أبدى خالد ، والخلود ليس تعاقبا عابرا متسلسلا يجىء من الماضى الى المستقبل من خلال الحاضر •

وهو ينطوى بالحرى على طبيعة « الآن » الحاوى لكل شىء • وعلى الرغم من هذا الوصف ، فان انج كثيرا ما استخدم مصطلح « يخلق » بطريقة تدل على أن الزمان ينطوى على تعاقب من التغيرات ، وأنه يعتبر صفة جوهرية من صفات التاريخ • ولم يبذل أفلوطين أية محاولة لتحليل الزمن تحليلا

يبرره أو أن يصوغ حوله أية نظرية تصورية • وتراه على العكس من ذلك تقبله كحقيقة من حقائق الخبرة • فهو يقول : « الزمن شيء طبيعي » وتحوم بعض الشكوك حول رأيه فيما يتعلق بعلاقة الزمن بالخلود • على أن أنج اعتبر أن رأيه هو أن الزمن انما هو « صورة الخلود » • فالزمن يماثل الخلود بقدر ما يستطيع •

ففي كل ما هو زمني مؤقت شيء من الأبدى الخالد • ولذلك القول مضمون قاطع بالنسبة للتاريخ البشرى • واستنبط انج من ذلك أن هناك شيئا أبديا فى كل شيء قيم بين المناشط البشرية • (وربما سأل متسائل : ولماذا لا يوجد ذلك أيضا فى كل شيء غير قيم ؟ ــ اذ أن ذلك أيضا يقوم فى الزمان) •

والعالم في نظر أفلوطين يعد «سلسلة حية من الكينونة ، مجموعة متصلة الحلقات من القيم والوجودات الصاعدة والهابطة » ، التي تؤلف « الكل » المنسجم • وأرسلت المخلوقات المحبوة بالنفس الى العالم لكي « تشكل بشكل أقرب قليلا الى الصورة الالهية بما يغمرها من تحرق وحنين الى الوطن الذى تركته» • «وهذا الأمل المترقب الذى يرقد وسنان حتى فى الكائنات اللا واعية ، هو الباعث الأكبر لحياة البشر الخلقية والذهنية والجمالية » • ولكل نفس زمانها ومكانها وعملها فى « الكل » « الجامع » • ويتوقف تاريخ العالم على عدد لا نهائى من المخططات الضخمة المحدودة العدد ، التي لكل منها بداية ووسط ونهاية » • على أن طبيعة الأشخاص الأفراد فى مثل ذلك التاريخ تحيط بها سحائب الابهام • ويقول انج : ان أفلوطين كان حريصا على الاحتفاظ بالفردية البشرية • « فان كل فرد ينبغي أن يكون هو نفسه » ، وكل فرد « فكرة اصيلة » ، وان لم تصبح سيدة نفسها تماما الا متى خرجت من الجسم » • ورغم أن فوق

الشعورى فى الأفراد المعنيين أوتى حقيقة « الروح » ، فانهم كما هم معروفون فى التاريخ ليسوا حقيقيين حقا . وربما لم يوجد للإنفس البشرية آى مستقبل له وعى ذاتى . كما أن الهدف من التاريخ لا يجوز التماسه فى خلود شخصى مستقبل . وينبغى ان يكون التاريخ بالنسبة اليهم هو اسهامهم في قيم « الآن الخالدة » أى فى الفترات الخاصة المتعلقة بحيواتهم الأرضية .

وتحتوى الأفلاطونية الحديثة على نفس الرايين المتصارعين ـ المتعلقين بالاتجاهات التى على الناس اتخاذها فيما يتعلق بالجسم الانسانى والعالم ، تلك الاتجاهات التى سبق لأفلاطونية « المحاورات » أن أشارت اليها .

والتاريخ على ما نعرفه له علاقة جزئية بالمادة . غير أن ما أدلت به الافلاطونية الحديثة من بيان عن المادة يغشاه الابهام : فهى موجودة كائنة ، وهى غير موجودة ـ لا كائنة . وكتب انج مفسرا : « نحن اذ ننكر أن للمادة وجودا حقيقيا ، لا نؤكد انها غير موجودة باطلاق . فالمادة عنصر منحط من « الكل الجامع أقل فى القيمة » وأقل فى « درجة حقيقتها » ، [مهما يكن معنى هذا القول] » وقرر فرفوريوس [٢٣٣ ـ ح ٣٠٤] (*) أن أفلوطين يبدو خجلا من الوجود « فى الجسم » ، « ومن ثم وجب علينا مفارقته ، وأن نباعد بين أنفسنا جهد الطاقة وبين هذا الجسم ، الذى ترتبط به لسوء الحظ ... » « وحياتنا فى هذا العالم ليست سوى شرود عن الجادة منفى . « فالنفس » ينبغى أن تزيل من ذاتها الخير والشر وكل شيءآخر حتى تستطيع استقبال «الأحد بمفرده»» . أما ما يلم بالنفس من ارتفاعات وانخفاضات فيقال عنها رغم هذا بأنها تشكل « أجزاء ضرورية وصحيحة فى الانسجام الشامل » .

(*) فرفوريوس : عن صلة هذا الفيلسوف بالمسلمين ، انظر للمترجم كتاب « حضارة الاسلام » تاليف جرونيباوم (الألف كتاب) ـ (المترجم) .

وقد حدث في بعض الأحيان أن أفلوطين عرض نظرة أخرى ، ترى الارض « نسخة حسنة من الجنـــة » • « فكيف يمكـــن فصـــل هذا العالم •• من العـــالم الروحى • فمـــن يحتقرون ما يكاد يماثل العالم الروحى تقريبـــا ، يظهرون انهم لا يعرفون عن العالم الروحى شيئا عدا اسمه » • وكل ما هو أرضى ، وما هو زمنى ، له اهمية وقيمة ايجابية ، وذلك لأنها مقـــومات للكمال الذى يتصف به « الأحد » الابدى • وقد حاول انج أن يواجه صـــعوبة التوفيق بين الاتجـــاهين المختلفين من العـــالم اللذين سلفت الاشـــارة اليهما • فكتب يقـــول : انه ينبغى لنا ان نتذكر أن الحقيقة عند أفلوطين تكمن فى « حياة الروح الفنية المجيدة التى يرد فيها ــ كل ما تنبذه فى عالم الحس ويحول ويرفع الى منزلة النبل» • وعندى تعليقـــا على هـــذا البيان أن فى امكاننا القـــول بأن عبـــارة « يحول ويرفع الى منزلة النبل » ، « يعوزها الوضوح •وقد سلم انج بأن مبدا الحقيقة باعتبارة مملكة للقيم ليس واضحا فى كـــتابات أفلوطـــين ، ثـــم قدم الى معنى التـــاريخ عند الأفلاطونية الحديثة فوصفه بأنه الخبرة بالقيم الأبدية لـــكل من « الحـــق » والخـــير ، « الجميـــل » • « ادخـــل الى دخيلة نفسك وافحص عن نفسك • فان أنت لم تجد بعد الجمـــال هناك ، فافعل ما يفعله المثـــال ، اذ لا يبرح ينقر ويســـوى ويصقل ، حتى يجمل تمثاله بكل منـــاقب الجمال • وهـــكذا تزيل عن نفسك بالنقر والحفر كل زائد عن الحاجة ، وتقوم كل ما هو أعوج وتنقى وتنير كل ما هو قاتم ، ولا تكف عن العمل فى تمثالك حتى يشع ضياء الفضيلة منه أمام عينيك بكل ما فيه من بهاء الهى ، وحتى ترى الاعتدال متربعـــا فى صدرك بكل ما وهب من نقاء مقدس » •

وقد أعلن انج ، وهو قسيس مسيحى ، أنه يعد نفســـه « من تلاميـــذ » أفلوطين • ومن نافلة القـــول ، انه كان

بالضرورة من المؤمنين بالأفلاطونية الحديثة ، ولكنه تجنب تماما التعبير عن المبادىء المسيحيه بلغة الافلاطونيه الحديثه · وانتهى بان قدم الافلاطونيه الحديثة باعتبارها « فلسفة حيه » يصبح النظر فيها فى عصرنا الحاضر · ومن منبرها راح ، وقد اتخذ وجهه نظرها ، يوجه اعنف النقد الى الفكرة الغربية الشائعة حول التقدم البشرى ، فانه عاد فى مقدمه الطبعة الثالثة من كتاب « فلسفة افلوطين » فأبدى التوجع من ان « الروح العصرية » أبعد ما تكون عن العطف على أفلوطين ، الذى أظهر « أعمق الاستهانة بالشئون الدنيويه ومشاكل الحضارة » · ثم اخذ يقلب الراى فى تصور أفلوطين للتاريخ ، وانه فى رأيه مكون من عدد لا نهائى من الخطط المحدودة المؤقتة ، واذا هو يحاج قائلا : « ان هذا الراى متفوق من جميع النواحى أبلغ التفوق على النظريات المحلولة الفضفاضة القائلة بالتقدم الدائم والتى تلقى قبولا عاما بكل من أوربا وأمريكا · فالهدف اللانهائى يعد فى نظره تناقضا بين المصطلحات · ومثل هذا الهدف لم يكن فى الامكان تكوينه أبدا ، كما لم يكن من الممكن بلوغه قط · وربما أمكن وجود هدف واحد ··· ، فى النظام الحالى للعالم مأخوذا بأكمله ككل ، ولكن ذلك لا يتم الا على شريطة الاعتراف بأن النظام العالمى الحالى كانت له فى الماضى بداية وستكون له فى المستقبل نهاية · وبدهى أن العلوم الفيزيائية على دراية تامة بالمصير المخبأ لهذا الكوكب · فان ما حصلته البشرية من منجزات لابد يوما أن تمحى كما يمحى الخط من لوح الاردواز ··· فمن رفض هذه الفكرة بناء على ايمان بعالم روحى ، هم قوم يسقطون مثلهم العليا على مستقبل أرضى لا نهاية له ، وهم قوم تتحطم سفينتهم بكل من الفلسفة والعلوم · ولابد للانسان من أن يجد العزاء والسلوى عن المصير المحتوم لجنسه ، اما فى غير مكان أو فى جنة يحتفظ فيها بجميع القيم احتفاظا أبديا » ·

الفصل الرابع

تصورات التاليهيين (*) للتاريخ

١ ــ المفاهيم الزرادشتية واليهودية والاسلامية

ــ ١ ــ

شاع اسم الزرداشتية ببلاد العرب للدلالة على شكل من أشكال الدين والفكر نشأ بأرض فارس القديمة • على أنه لم يعد بفارس نفسها فى هذه الأيام سوى قلة ضئيلة نسبيا من الزرادشتيين • فأما المجتمعات الكبرى لهذه العقيدة فتقيم الآن فى الهند ، البلد الذى شرع أجدادهم يهاجرون اليه منذ حوالى ألف عام • ومع أنه وجدت أوجه مشابهة كثيرة بين عقيدة الفرس فى أيامها الأولى وبين عقيدة أسفار « الفيدا » (Vida) الهندوكية ، فان الزرادشتيين ببلاد الهند حافظوا على اعتزالهم واحتفظوا بدينهم وفكرهم سليما نقيا لم يتخلله الا أقل القليل ، من التعديل الذى تسرب اليهم نتيجة لمؤثرات الهندوكية المحيطة بهم • ومن ثم يستطاع القول بأن الزرادشتية ظلت واضحة التميز من أشكال الهندوكية التالية • ويشيع اليوم ببلاد الهند عامة اطلاق اسم البارسيين على الزرادشتيين ، وهم قوم يؤلفون مجموعة من أعلى رجال الهند تعليما • فهم الرواد السباقون فى تكوين الهند الحديثة ، وذلك يرجع أساسا وقبل كل شىء الى آرائهم حول التاريخ وموقفهم منه •

(*) التاليه : كما ورد بمعجم الوسيط : « القول بوجود اله مدبر الكون » ا•هـ• والتاليهيون (Theists) أو الالوهيون « : المؤمنون بذلك ــ (المترجم) •

على أن تاريخ ظهور زرادشت أو زرواستر مؤسس الزرادشتية غير معروف لنا بالضبط ، ويعتقد علماء البارسيين أنه عاش حوالى عام ١٠٠٠ ق٠م٠ ، وان كان بعض رجال الغرب يحددون ذلك فى تاريخ متأخر هو القرن السابع قبل الميلاد ٠ وأهل الرأى يعتبرون أسفار الجاثا (Gathas) وهى أقدم ما ظهر من المؤلفات الزرادشتية معبرة عن تعاليمه ، وهى تعاليم احتفظ اتباعه باهم ما فيها من مبادىء طوال التاريخ الزرادشتى بأكمله٠ والفكرة المركزية فى تلك التعاليم هى فكرة «الله» ٠ والاسم الذى يطلق عليه فيها وهو « آهورا مزدا » ، يعترف اعترافا مطلقا بحكمة الاله ٠ ويتمشى مع هذه الفكرة ، التأكيد الذى ركز على العقل لا على الناحية الجسمية باعتباره أساس الوجود كله ٠ فيوصف أهورا مزدا بأنه الكامل والأبدى والكلى السيطرة والمطلع على كل شىء والكلى الخير ٠ وما العالم الفيزيائى والكائنات البشرية الا خليقته ٠ بيده العون للناس والحكم عليهم وهو الموجود على الدوام فى تاريخ البشر ٠

وهناك اتجاه رئيسى للزرادشتيين من التاريخ ، وهو يتجلى فيما ورد فى الأسفار الجاثية من وصف لما فى خليقة الله من خير وطيبة ٠ وهو يقيم الأرض والقبة الزرقاء ويقيهما شر السقوط ٠ وبأمره يزداد القمر ويذوى وتحدد مسالك الشمس والنجوم ٠ وهو الذى يدفع الريح فتجرى سراعا ٠ ويكسو جنبات السماء بما يملؤها من الضياء ٠ وهو الذى خلق لنا ما نقربه عينا من الانعام والنباتات والماء ٠ وهو خالق البشر وبارىء أرواحهم وأجسامهم وواهبهم حرية الارادة ٠ وهو الذى أوقد جذوة المحبة بين الأب وابنه ، ومنح الناس النوم واليقظة وغير ذلك من النعم الكثيرة ، والعالم الفيزيائى هو المسرح الذى يجلى عليه التاريخ البشرى ، الذى شاءت « حكمته » تقديره لهم ٠ ومن أجله أقام النظام الخلقى الذى عليهم أن يعيشوا تاريخهم مستضيئين بمبادئه ٠

وباختيارهم ربما خرقوا تلك المبادىء . على أن أسفار الجاثا لا تجعل تاريخ الفرد ينتهى عند حياته فى هذه الأرض ، فان زرادشت كان ممن يؤمنون بالخلود . وكان من ثم يصلى التماسا لما فى الحياة الأرضية من خيرات ، ولكى يتهيأ له فى النهاية الأخذ بنصيب فى الحالة النهائية من السعادة والنعيم يوم يستأصل الشر نهائيا من كل مكان .

والشرور المنتشرة فى حياة البشر من أشد ما يشغل زرادشت فهب يحرض الناس على اشعال حرب لا تنتهى على تلك الشرور ، وأدى ذلك الى ظهور اتجاه أساسى ثان اتخذه الزرادشتيون حيال التاريخ : هو بذل الجهود الجبارة لمقاومة تلك الشرور بجميع أشكالها . وتشير أسفار الجاثا الى الشر بأنه العدو أو الفرد الشرير المسىء أهريمان أو أنجرا ماينيو (Angra Mainyu) ومعناه [المدمر] . والشر هو فى جوهره « الكذب » و « الخداع » ، (Druj) وهو النقيض لحكمة « الله » . ولم يحاول زرادشت وأتباعه التهوين من شأن الشر وتبريره بأنه شىء وهمى باطل . اذ لم يصدر عنه ولا عنهم أية دعوة الى الفرار من الحياة العادية ، أى « الانطلاق من هذا العالم » . ذلك أنه ركز بؤرة اهتمامه على أشكال الاخلال بالأخلاق : كالكذب والقتل وعدم الأمانة والكسل ، كما ركز على الآلام والأمراض والمصائب التى تصدر عن الكائنات الأدنى من الانسان قدرا ، كتلك التى تدمر المحاصيل . وقد أدى استخدامهم لاسم علم يطلقونه على الشر وهو أهريمان [الانجرامانيو] الى نشوب الكثير من النقاش والجدل فيما اذا كانت الزرادشتية تؤمن بثنائية مطلقة ، تجمع بين أهورا مزدا « الكلى الحكمة » ، وبين [انجرا ماينيو] أى اهرمان متصف بالشر ، لم يخلقه الله . غير أن الثقات من علماء الزرادشتية السلفية الصحيحة

يرفضون هذا الرأى . فلفظة « الروح » حين تطبق على الشر انما يراد لها فى ثنايا استخدامها الاشارة الى نزعة عقلية .

وحدث في الفترة التى أعقبت عهد زرادشت مباشرة ، وهى الفترة الافيستانية التي تمتد من حوالى القرن السادس ق.م. الى الثانى الميلادى ـ أن عادت نواحى الديانة « السابقة للجاثية Pre gathic » فوجدت لسانا يعبر عنها من جديد . فان تلك الديانة قد دفعت الى حين نوعا ما الى الخلف بتأثير زرادشت وتعاليمه . وهنا أصبحت الخرافات الاولى (Mythology) والفكرات المتعلقة بالآلهة الايرانية والمراسم والشعائر التقليدية تعتبر جزءا من الزرادشتية . على أن التعاليم الجوهرية التى خلفها زرادشت ظلت مسيطرة على العقول بين قادة الفكرة والدين . فالعالم جرى خلقه على يد الحكمة الالهية ، وهو ينتهى عن طريق تلك الحكمه ، وأعلن بصورة قاطعة مؤكدة التمييز الجذرى بين الخير والشر . وقد عبر عنه باعتباره فرقا بين عالمين : هما « عالم البررة الصالحين » ـ و « عالم الفجرة الشريرين » . وهذان العالمان مجموعتان متعاديتان ذواتا ميول متصارعة فى التاريخ البشرى الذى يتشكل الى حد كبير من الصراعات التى تنشب بينهما . وظهر فى هذه الفترة الانسانية تغير فى الاتجاه صحبه توجيه قدر أكبر من الالتفات لفكرة الحياة المستقبلة . وكان للبر أهميته العظمى مرتبطا ببلوغ الفرد منزلة الخلود المترعة بالسعادة ، وتتضح الأهمية الكبرى للتاريخ فى علاقته بهدف نهائى . ومع ذلك ، فان القوم لم يبرحوا يرون أن التاريخ الأرضى شىء له قيمته فى حد ذاته . وقد أطلقت على أهورا مزدا (هرمزد) أسماء « السعادة كلها » و « اله السعادة » . فهو الذى خلق « الأراضى التى تغمر البشر بالبهجة » . و « لما كان هو نفسه » الحبور الموفور ، فانه يحبو الناس بالسعادة ، ويجهر أرباب البيوت بصلواتهم ملتمسين كل ما فى الحياة الأرضية

من طيبات النعم وألا تتخلى السعادة عن دورهم أبدا • وقد دعي كل فرد من الناس ليتحمل نصيبه ويقوم بدوره في الكفاح ضد الشر • وهنا يتبدى أنه بالمقارنة الى العهد الجاثي ، حدث شيء من التغيير في التركيز يتجلى في الاصرار على أن كل جيل يستفيد مما أنجزه الماضي ، وعلى ضرورة أداء واجب العمل من أجل خير الأجيال المستقبلة • وينطوى انتصار الاخيار على مضمون اجتماعي • وتمسك الكل بفكرة أن في النصر النهائى تجديدا للعالم • واعتقد الفرس فيما يروى « بلوتارك » أنه بفضل هذا التجديد تتكون للدنيا دولة بشرية واحدة ولغة للتفاهم واحدة •

وعلى الرغم مما حل بالفرس من نكبات ، منها تدمير الشيء الكثير من الآداب الزرادشتية وانهيار نظام كهانتها ، فقد انتعشت الزرادشتية من جديد بعد قيام أسرة بني ساسان حوالى ٢٢٤ للميلاد • ومع انه حدث اهتمام بالغ بالطقوس والمراسم ، كما أن الفكرات الميثولوجية (الرطازية) قد اتسع انتشارها ، فان ما عرف عن زرادشت من المفاهيم والمواقف الجوهرية كانت لا تزال تستمتع بأهميتها المطلقة وتحظى بما هى جديرة به من اهتمام • وأخذ ماني يبشر بمذهب اعتبرت فيه المادة رأسا للشر • ولكن اعتبرت هذه الآراء بدعة وهرطقة فأعدم في ٢٧٤ م • على أن العقيدة المانوية انتشرت انتشارا واسعا بمنطقة البحر المتوسط • فقد أصر المتمسكون بالمذهب السلفى من الزرادشتيين على أن الجسم بوصفه شيئا فيزيائيا ليس فى حد ذاته شرا ، كما أنه ليس بالضرورة هو مصدر الشر ، وعلى النقيض مما قام به مانى من تزيين العزوبة والذود عنها ، قاموا بتشجيع الزواج وانتاج الأطفال ونعتوهما بالفضيلة • وذهبوا الى أن الصوم يؤدى بالجسم الى الضعف فيخفض بذلك من فاعليته فى صراعه مع الشرور وفى جهوده المبذولة فى سبيل الخير :

كما أنه يعد فى نظرهم اهمالا للمتع التى يسرها الله للناس، والكيان الروحى عندهم أهم وأفضل من الطيبات الدنيويه ، على ان يبذل الجهود فى سبيل الشراء شيء له قيمته • ثم ظهــر مزدك الذى توفى فى [٥٢٨] وله تعاليم شيوعية ذات علاقة مباشرة بالتنظيم السياسى والاجتماعى ، ولــكن تلك الآراء لقيت معارضة من المفكرين الزرادشتيين عــلى اعتبــار أنها مناقضة لمقاصد « الله » فى تفريقــه بين النــاس فى اختلاف الخليقة •

وظهر فى الشطر الثانى من العهد البهلوى (*) الممتد من القرن الثالث الميلادى حتى التاسع ، عمل عنوانه « سكيكاند جــومانيك فيجــار » Skikand Gumanik Vijar وهــو يدافع عن شكل من الثنائية يختلف عن ثنائية الروح والمادة التى بسطها مانى • فان لم يكن هناك خصم مستقل لله ، الذى هو فى حد ذاته قادر على ان يخلق كائنات متحررة من النكبات ، فلماذا لم يخلقهم الله ؟ وان « هو » أراد أن يفعــل ذلك فلم يقدر ، فانه يكون عندئذ غير قادر على كل شيء • وان هــو استطاع ذلك ولم يفعله ، فليس بكامل الرحمة • لقد كان مدار الجدل هو مسألة الشر بالشكل الذى يهم المشتغل بالمذهب التأليهى ، والــواقع أن حجة المؤلف النهائيــة تكاد تســتقر بكليتهــا فى طبيعة « الله » بوصــفه الحقيقة المــركزية فى الزرادشتية : فالله كامل فيما اتصــف به من خــير وطيبة ، ولذا فانه لا يصدر عنه الا الخير • فان شاء الله الخير ، فان كائنا آخر لابد أن يشاء الشر • ويحاج المؤلف قائلا : « ان من السخف الظن بأن الله قد خلق الشر حتى يستطيع الناس تقدير الخير بموازنته به ، وخلق الفقر والألم والموت حتى يتهيأ لهم أن يعرفوا قدر الثروة والصحة والحياة • فانه بما

(*) البهلوى اى الفارسى الأوسط او الايرانى الأوسط ، وهما مصطلحان يطلقان على اللهجات والخطوط وانواع الكتابة المستخدمة باقليم فارس وايران فى حكم الأوشــكيين والساسانيين ــ (المترجم) •

جبل عليه من حكمة لا يمكن أن يخلق كائنا يعارضه ويناقضه : كائنا يعرف بسابق علمه أنه سينقلب عليه . فلابد اذن أن الشر قد انبثق أصلا من كائن آخر له وجود مستقل عن الله . ولا يمكن وصف الشر بأنه يرجع أصلا الى الانسان ، وذلك لأن الانسان مخلوق من صنع الله ، ولكن الانسان بما فطر عليه من حرية ربما وقع أسير اغراء الكائن الشرير . واعتقاد المؤلف بأن الله هو القادر على كل شيء ، يعد مشاركة منه للعقيدة الزرادشتية فيما تؤمن به من أن الشر لابد من أن يمحق فى النهاية . ولم يفت المتمسكين بالعقيدة السلفية السليمة أن ينبذوا هذا الكتاب هو وجميع النظريات الأخرى التى تأخذ بنظرية الثنائية المطلقة فى الوجود .

ومن المحقق أن زرادشت كان من تعاليمه أن للناس حرية الاختيار والكفاح فى سبيل الخير أو الخضوع لمغريات الشر . وأهمية تواريخهم ترتكن من ناحية على استخدامهم لحريتهم تلك . ومع ذلك ، فقد شاع مذهب الجبرية بين الناس فى أثناء الشطر الأخير من العهد اليهاوى ، وكان ذلك فى الغالب نتيجة للكوارث السياسية التى قاساها الفرس من ناحية ، ونتيجة لانتشار التنجيم من ناحية أخرى . ويذكر كتاب يرجع الى العهد البهلوى أن : « القدر هو الغالب لكل شيء والمسيطر على كل فرد » . فلا جدوى اذن من الكفاح فى سبيل بلوغ أية غاية ان كان « القدر » قد كتب ما يخالف ذلك . وبذلت محاولة توفيق بين فكرة القدر والعقيدة الزرادشتية ، بالنظرية القائلة بأن « القدر » لا يتحكم الا فى الشئون الأرضية الدنيوية على حين تتوقف رفاهية الناس الروحية فى الحياة الأخرى المستقبلة على ما يتخذونه من مواقف وما يبذلونه من جهود . ومن الجلى أن هذه النظرية لا تتمشى والزرادشتية التى تقرر بصراحة حرية الانسان فى مكافحة

كل ما هو شر والسعى فى سبيل كل ما هو خير ، ويتضمن هذا كله فعلا الشئون الأرضية ·

والأدب الزرادشتي يعرض علينا نظاما للفكر جيد التشكيل ، ولكنه من حيث الجوهر أدنى أن يكون تحليلا وشرحا منه الى نزعة فلسفية ناقدة · والزرادشتية لا تركز أى تأكيد على « نهج المعرفة » بوصفه السبيل الرئيسية المؤدية الى المثل الأعلى ، كما هو الحال فى اليانية وغيرها من النظم الهندوكية · ومع اعترافها بأهمية المعرفة ، فان النزعات المسيطرة عليها كانت على الدوام ، ولا تزال حتى اليوم ، نزعات العمل والعبادة · ولم يجد الزرادشتيون صعوبة فى تقبل عقيدة الاسلام من الناحية المذهبية دينا ، وذلك لما لهم من فكرة مركزية عن الله ، واعتقادهم بوجود حياة أخرى مستقبلة وادراكهم أن القيم الممكنة فى هذه الحياة انما أرادها الله لمتعة الانسان · ولا يخفى أن الغالبية من سكان فارس قد اعتنقته فعلا · ومع ذلك ، فان الزرادشتية ليست لديها حول أسفارها المقدسة اعتقاديات (Dogma) كالتى لدى المسلمين عن «القرآن» · وكانت نتيجة ذلك ، ان البارسيين، وخاصة فى العصور الحديثة بلغوا منزلة من التطور الفكرى أحفل بالحرية ، وأوتوا تقديرا أرحب لكل ما حصلت عليه الحضارة من ألوان التقدم · ولا يجد زعماء البارسيين ببلاد الهند اليوم صعوبة فى الاحتفاظ بالأسس الجوهرية لعقيدتهم القديمة مع اطراح الأفكار الخرافية [الميثولوجية] وبعض الطقوس التى أصبحت مرتبطة بها · وان تقبلهم المطلق للأهمية الايجابية للتاريخ وصفته التقدمية المحركة ليتم وفقا لتلك العقيدة ·

ويعد السيد م · ن · دهالا ، وهو الكاهن الأكبر السابق بمدينة كراتشى ، بباكستان ، رجلا عالما ضليعا جمع بين الدراسات الغربية والشرقية · وقد قدم الينا ذلك الأستاذ

تعبيرا رائعا عن رأى حديث وعصرى حول التاريخ من وجهة نظر العقيدة الزرادشتية • وقد جعل عنوان كتابه : « عالمنا الكامل : طريقة العيش عند زرادشت [١٩٣٠] • وهو كتاب يشير الى الاتجاه المسيطر عليهم نحو التاريخ واساسه ، كما يراهما المؤلف فى تعاليم زرادشت • وهو يحاج فى كتابه بأن الزرادشتية ليست طريقة فكرية مهجورة ، ولا هى سبيل حياة عفا عليه الزمن • وأدمج الدكتور دهالا فى صلب كتابه الشىء الكثير من فكر الغرب المعاصر ومناهجه ، وان لم يفته على الدوام أن يربطه بالمبادىء الزرادشتية • وسنحاول أن نقدم الى قرائنا بيانا عن مؤلفه متوخين اتباع طريقته فى ترتيب العرض • وانه ليضع مبحث الشر فى مستهل ما درس من الموضوعات ، ويقول فى مقدمته : « لو درسنا التطور الانسانى فى أثناء عملية تحليله النهائية لوجدناه يجزى على أساس المقاومة للشر » • ثم أتبع ذلك القول مباشرة بتأكيده ما اتصفت به الزرادشتية من تفاؤل • والهدف الذى قصده من اصدار كتابه هو : « أن أظهر للناس أن عالمنا يتفتح متجها نحو هدف معلوم ، وأن حياة الانسان وهى مجردة من الكمال فى كل أدوارها ، ظلت طوال فترة التاريخ البشرى بأكملها تتقدم تقدما وئيدا أكيدا نحو الكمال عن طريق كل صارم من قوانين التعاون مع الخير والصراع مع الشر » • ذلك هو مضمون « رسالة الأمل » الذى اجتلبه زرادشت للبشرية •

أما القسم الثانى من الكتاب فقد خصص لدراسة « الدين فى تطوره » • وقد استهل المؤلف بحثه بفصل تمهيدى عن الديانة البدائية ، ومضى يدرس موضوعه عبر المراحل التاريخية وديانات الأنبياء فى جميع العقائد القائدة ، حتى عهود الشكلية الصورية والاضطهاد ، الى عهد الصدام بين العلم والدين ، ثم الى عهد التباعد عن الأديان ، فالى العودة اليها ، ثم يختتم القسم بفصل جعل عنوانه : « من

أديان [متعددة] الى دين [واحد] • « ورأى الدكتور دهالا من خلال هذه المراحل وما صحبها من حركات تمضى الى الأمام آنا والى الخلف آنا ، تقدما قويا مسيطرا للدين بوصفه ناحية أولى من نواحى التاريخ البشرى ، فالأديان « ستذاب على تبادل التمثل والامتصاص لخير ما ينطوى عليه كل واحد منها » • « ولا شك أن تشكيلة تؤلف بين خير ما فى جميع الاديان من عناصر هى التى ستشكل دين الانسان فى المستقبل ، وستجد البشرية أنها لن تستطيع التفكير على أساس هذه الديانة أو تلك وانما فقط على أساس «الدين» • ويتفق بحث الدكتور دهالا أولا فى الدين ، وما لدى الزرادشتيين من مذهب تأليهى • فان أهورا مزدا ، الرب الحكيم القدوس ، وهو وحده الأصل فى كل شىء يجعل التاريخ ممكنا » •

وذلك الأصل المقدس « عقل » : ومن ثم جاء عنوان القسم الثانى « العقل فى دور التطور » • وقد تعقب الدكتور دهالا ذلك التطور مع مراعاة ما حدث فى اللغة والفكر من تطور معقد وغنى ، ثم واصل بحثه متحدثا عن منجزات التربية الحديثة وأهدافها • وفى هذا فضلا عن الديانة ، لمس تقدما نحو نظرة عامة وتعاون عام يشمل الناس على اختلاف أممهم • والمعرفة [عنده] لا تعرف حدودا قومية ، ولا هى تعترف بأية فوارق بين الطوائف ولا العقائد ، كما أن المثقفين فى العالم من رجال ونساء أخذوا يؤمنون بالشمولية الفكرية • ذلك بأن التربية الشاملة التى هى الهدف الذى ترمى اليه جميع الشعوب الممدنة فى زماننا هى اقوى عون على النهوض بالتفاهم المتبادل والثقة والتعاطف ، المؤدية الى هدف الاخاء الشامل بين البشرية جمعاء •

ولم يحدث قط فى عمر الزرادشتية أنها صورت معنى التاريخ بأنه يقوم بوجه خاص فى المجتمع بوصفه مجتمعا • فالفرد وحده هو الذى عليه عبور الشنفات (Chinvat) أعنى

الجسر لكى يمثل للحكم النهائى عليه • ومع ذلك ، فانها أبرزت أهمية العلاقات البشرية وأكدتها على الدوام : فالخبر بوصفه ذاك عامل على الوحدة ، وانتصار الخير فى العالم لا يمكن أن يتم الا مع وجود التعاون الاجتماعى • ونتيجة لهذا قام الدكتور دهالا فى القسم التالى بمعالجة موضوع « الحياة الاجتماعية فى دور التطور » • وللعائلة كجماعة اجتماعية قيمها المميزة • بيد أن الدكتور دهالا لم يظهر تفاؤلا حول العائلة فى زماننا • اذ قال : « ان العائلة تتفكك فى أيامنا » نتيجة للظروف الاقتصادية وغيرها • وتمتدح الزرادشتية الحياة العائلية السليمة على الدوام وتسأل الله لها البركات • ثم انه يحس من ناحية أخرى بوجود تقدم فى القانون والتشريع وفى تطبيق العدالة وفى الحكم السياسى • وقد أخذت دائرة تبنى الديمقراطية فى الاتساع ، وهى خير ما أنتجه الذكاء البشرى من أشكال الحكم » ، اذ تزايد اقبال الناس على استخدامها • ويحتمل أن يجىء الأوان الذى تتسامى فيه الأنفس على عصر القومية • « واذن فليس من أضغاث الأحلام التافهة أن يكافح الناس راجين أن يتنفس فى مستقبل بعيد فجر يوم لا يعرف فيه الانسان أمة ولا جنسا بشريا ، وانما يمضى مستضيئا بالفكرة الرواقية عن المواطنة أو الممادنة العالمية (*) فينشد البشرية وحدها ، يوم تستطيع البشرية أن تدعى أن الدنيا كلها وطن لها • « وتعترف الزرادشتية اعترافا تاما بضرورة شن الحرب على العدوان ، وان تزايدت فيهم على الأيام المعارضة للحرب • ولكن لم يفتهم ادراك أن المعاهدات والاستعداد للحرب ونظرية توازن القوى والدبلوماسية والامبريالية ، قد أخفقت دون القضاء على الحرب • وقد كتب الدكتور دهالا فى ١٩٣٠ ، فعبر عن

(★) اذا نسب المرء الى وطن فهو مواطن ، وان نسب الى مدينة فهو ممادن كما كانت الحال ببلاد الاغريق القديمة • وكما يرجو الفيلسوف الانجليزى ويلز أن يحدث فى العالم (انظر معالم تاريخ الانسانية) لويلز - (المترجم) •

اعتقاده بأن هناك تقدما فى التعاون الدولى يرجى أن يقضى على الحرب ٠

ثم انتقل الدكتور دهالا من وجهة نظره الزرادشتية عن الاله وأنه خالق العالم والبشرية الى دراسة الحضارة ٠ فتعقب العلاقات بين الشرق والغرب فى سالف التاريخ ، واستعرض اختلاطهما الحاضر ، وأشار الى اسهام كل منهما فى المستقبل فى تشييد حضارة وثقافة تشمل العالم أجمع ٠ « ان ما أنجزته البشرية من منجزات فى غضون ما يقارب سبعة الآلاف من سنى ارتقاء الانسان ثقافيا لا هى من خلق الشرق ولا الغرب وحده ٠ فكل منهما قد أسهم — لا جرم — بميراثه الخالد للبشرية ، حيث أدلى كل منهما بما قدر عليه حسبما مكنته مواهبه الخاصة وعبقريته المميزة ٠٠٠ ويتوقف التطور التقدمى الذى تحرزه البشرية على الخدمات المجتمعة التى يؤديها الشرق والغرب معا ٠٠ فكل بمفرده ناقص أبتر لا يقدر على نهوض بالعمل الجبار الذى يواجه البشرية ٠ وبعد أن استعرض المؤلف التطورات الاقتصادية فى التاريخ وألوان التقدم المتصلة بما أصابه الناس من حسن كيان فيزيائى ، انتقل فى فصله الختامى الى اجالة الفكر فى « الحضارة التقدمية » ، وهو يرى أن ما ظهر فى التاريخ من مختلف الحضارات لم يقم بينها تعارض جذرى ٠ وانما كل واحدة منها ، تعد على الأصح تعبيرا عن أجزاء مما يصدق عليه ضمنا مفهوم الحضارة مأخوذا بكامل معناه ٠ فالتاريخ يعتبر الى حد ما سيرا الى الأمام يمضى الى الحضارة الشاملة ٠ « فان حدث فى عصر ذهبى ثقافى بعيد ستأتى به الأيام مستقبلا ، ان اعتنقت البشرية حضارة عامة واحدة ، فلن تكون تلك الحضارة منسوبة لأى جنس واحد بعينه شرقيا كان أو غربيا ، بل ستكون خليطا من خير ما تحتويه الحضارات البشرية مجتمعة من عناصر ٠ وبيان الدكتور

دهالا عن رأى الزرادشتية فى التاريخ يقرر أنه فى نظرها يعد تقدما شاملا ، يلهمه الايمان ، بأنه بفضل سيطرة الله ، وهو الاله الحكيم • سيتم فى النهاية بلوغ الهدف النهائى : النصر الكامل للخير •

ـ ٢ ـ

أما أفكار اليهود حول طبيعة التاريخ وموقفهم منه ، فتعبر عنها الكتب العبرانية المقدسة • وبدهى ان ما غلب من طابع تاريخى على معظم تلك الكتابات خير شاهد على مدى أهتمام اليهود بتاريخهم • ولا يدور بحثنا هنا حول مسألة تواريخ كتابة مختلف الأسفار • فان الترتيب الذى جمعت على أساسه يشير الى تتابع تاريخى بدأ بما اعتبره القوم بداية البشرية • وتدل محتويات الاسفار التاريخية وطريقة عرضها على أن اليهود كانوا على اهتمام بشىء أعمق من مجرد تسجيل الأحداث • اذ الشىء الأهم فى نظرهم من ذلك هو تفسير الأحداث من حيث اتجاهات من ورد ذكرهم فيها ، وما يدخل تحت ذلك من علاقات ضمنية بالاله • أما الأسفار غير التاريخية فلها أهميتها من حيث الأفكار الجوهرية فى ذلك التفسير وفيما تقدمه من أوصاف لخير أشكال الاتجاه من الله وأصوبها وسردها للمبادىء الخلقية التى ينبغى للناس أن يعيشوا وفاقها •

ونظرة اليهود الى التاريخ تقوم أساسا وفى أوسع شمول على المذهب التأليهى •• فالطريق الى فهم التاريخ هو فكرة السيطرة الالهية • ومع أنه جاء عليهم أوان ربما سار فيه اعتقاد بأن للشعوب المختلفة أربابا متفرقين ، فالذى حدث منذ عهد مبكر هو أنه نشأ بينهم اقتناع بوجود اله فقط • ومع أن الاصحاحات الأولى من سفرهم الأول وهو سفر « التكوين » ، ربما اعتبرها بعضهم أسطورية ميثولوجية ، فان تلك الكتب تنطوى على فكرة جوهرية هى أن بداية

التاريخ البشرى انما ترجع الى الله • فهو الذى خلق الأرض بكل ما لها من خصائص تجعل التاريخ ممكنا على ظهرها • وهو الذى خلق الكائنات البشرية فى صورة سيكوفيزيائية أى أرواح لها أبدان • وهو الذى أدخلهم فى رفرف من السعادة والحبور : « جنات عدن » • ولكن التاريخ يحتوى على الشر ، كما أن قصة « سقوط » آدم وحواء ، وهما أول الكائنات البشرية ، تقدم الينا تبيانا لأصل ذلك الشر • وتنطوى القصة ضمنا على فكرتين دامتا بقوة فى نظرة اليهود الى التاريخ • وأولى هاتين الفكرتين أن للانسان مطلق الحرية فى طاعة الله أو عصيانه • وابتعاد الانسان عن الله عن طريق المعصية هو أصل الشر وأساسه ، كما أن جميع أنواع الشرور الأخرى تتوقف توقفا مطلقا عليها • ومع ان الله قد طرد آدم وحواء من جنة عدن ، فانه لم يباعد بين ذاته وبين البشر • اذ ذهب اليهود الى أن الله ظل دائما على اتصال بالناس فى التاريخ • ومع أن سفر « التكوين » يرى أن من اللعنة أن يكتسب الانسان خبزه بعرق جبينه ، فان الكتب المقدسة تعود بعد ذلك فتعالج الحاجة الى العمل باعتبارها بركة ونعمة • وقد منح الله الانسان « حكمة القلب ليقوم بجميع أصناف الأعمال » • على أن الكتب المقدسة لم تعطنا أية اشارة عن اقتناع القوم بوجود أى تقدم متواصل فى التاريخ • وانما هناك ، على الأصح تعاقب للحركات : أمامنا وخلفنا ، وأوقات الرخاء وأوقات الشدائد • وقد تدخل الله فى ظروف معينة فى التاريخ • الشر وان وصف بأنه يهبط على الانسان أصلا بسبب مغريات الشيطان [وهو روح شريرة] ، الا أن ما ورد فى الكتب المقدسة العبرانية من اشارات الى الشيطان قليل •

وتصور اليهود لله يعتبر ذا أهمية قصوى بالنسبة لرأيهم فى التاريخ • فالله روح ، ولا يمكن أن تمثله صورة مرئية • ومع ذلك فان الله خلق الانسان « على صورته ومثاله » • وبذا

يكون الانسان روحا أيضا ، وبهذا التماثل في الوجود ، تستخدم عن الله مصطلحات مماثلة لما يستخدم عن الانسان . وانه صاحب حكمة وارادة ومشاعر كالمحبة والغضب في سبيل البر والحق . ولم يخلط اليهود بين الله وبين خليقته ولا أدعوا انهما شيء واحد : فلا العالم الفيزيائي ولا الكائنات البشرية بأجزاء من الله . وقد تمشي حاخامات اليهود وفق مذهبهم التقليدي عندما رفضوا الأخذ بفلسفة اسبينوزا(*) .

وانتقل الاسرائيليون الى الاعتقاد بأنهم « شعب الله المختار » اذ سجلت الأسفار التاريخية ما فعله الله بهم وما أتاه من أجلهم . ولم يكن ذلك الاقتناع مجرد كبرياء ، أو فخر عنصري ، وانما هو ذو فحوى دينية قاطعة . اذ أخذ الله ميثاق ابراهيم ، « فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك ... وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض » . تكوين ١٢ : ٣ . « وقد تجلى الله في بعض الأوقات حتى رآه أفراد معينون . فتجلى لابراهيم في سهول ممرا ، وأظهر وجوده لموسى في الشجيرة المحترقة على جبل سيناء . ثم انه منح الشريعة لموسى في حادثة محددة في التاريخ . وهو أمر تضمن بالنسبة لليهود مبدأ يعد جوهريا من حيث وجهة نظرهم حول التاريخ . والفضائل والأخلاق لم يخترعها الانسان ، فهي لم تكن مجرد نتاج اجتماعي يرتبط بالظروف المتغيرة للحياة . والأخلاق هي التمشي وفق ارادة الله ، ومبادئها صحيحة دائما وفي كل مكان . والله هو الذي كشف الفضيلة الخلقية للبشر : اذ أنهم لم يكشفوها بأنفسهم . وتلك هي ناحية رئيسية لهدايته البشر لكي يدركوا غرضه من خلقهم وخلق العالم الذي يمكن ادراكه ، والله حكم عدل وبر ، أشارت الكتب المقدسة الى بعض أحكامه في التاريخ .

(*) اسبينوزا ، باروخ : (١٦٣٣ – ١٦٧٧) فيلسوف هولندي الأصل فلسفته هي أن جوهرا واحدا (الله) متمثل في كافة المخلوقات .... الخ (المترجم) .

وفكرة اليهود عن التاريخ ليست ولم تكن قط فى أى يوم من الأيام ذات نزعة فردية . فهى فكرة تدور حول « شعب اسرائيل أولا » ثم حول البشرية عامة . والملوك كنواب لله فى الارض عليهم العمل على زيادة رفاهية شعب الله المختار ، ودعا الأنبياء الناس الى البر والتقوى والاخلاص لله . ولم تدع الكتب العبرانية الى « الفرار من العالم » فى أية صورة من صور حياة الدين القائمة على الزهد . وركز على الزواج تقدير كبير وعلى الوصية لهم «بالتزايد والتكاثر»، وطيبات الحياة الدنيا هبات من الله ينبغي قبولها بالشكر والاستمتاع بها . والاتجاه المفهوم ضمنا هو النازع نحو « هذه الحياة الدنيا » ، ومما له دلالته أن الأسفار العبرانية الأولى لم تتحدث الا قليلا عن الخلود في معنى كونه حياة شخصية مستمرة بعد الموت . اذ أن الاشارات الى عالم أخر بعد الموت توحى بحالة من الخراب .

ولم يتأت التعبير عن اتجاهات اليهود من الحياة فى أى مكان بشكل أغنى وأوفى مما عبرت عنه المزامير . فان « المزامير » توضح تلك الاتجاهات فى صورة ليست خلقية فحسب، بل دينية ايضا فى ثنايا خبرة عاطفية من نوع جديد . والاعتقاد الأساسى فى « المزامير » هو الايمان بالله . « قال الجاهل فى قلبه : ليس اله » مزمور ١٤ : ١ . « فالله هو الذى خلقنا ، ولم نخلق نحن أنفسنا » . « رأس الحكمة مخافة الله » . والزمن يجرى بأمر الله ، فالليل والنهار ملك يديه ، وهو موجود على الدوام فى جميع ما فى التاريخ من الأماكن والأزمان . «أين أذهب من روحك؟ ومن وجهك أين أهرب؟» مزمور ١٣٩ : ٧ ، وأين المفر من حفرتك ؟ « الله يورد أهل الشر موارد الدمار ، ولكنه يعفو عن التائب المنيب ، لأنه ذو رحمة . والله يمهل المسىء ولا يهمل ، فالنجاح الظاهر الذى ينعم به المسىء الشرير لا يدوم الا أمدا قصيرا ، ولكنه فى سريرته لا يحس بأية سعادة . « كنت فتى وقد شخت ولم أر

صديقا تخلى عنه ولا ذرية له تلتمس خبزا » ... ، « قد رايت الشرير عاتيا وارفا مثل شجرة شارقة ناضرة • عبر فاذا هو ليس بموجود والتمسته فلم يوجد » • (مزمور ٢٧) •
« ويكاد يكون من العسير في كل ما خلفت لنا الديانات من أدب أن نعثر على تعبير في مثل عمق الندم الصادق الذى ورد على لسان داود فى المزمور الحادى والخمسين : « لأنى عارف بمعاصى » ـ « ومن خطيتى طهرنى » ـ ، « قلبا نقيا اخلق فى ، يا الله وروحا مستقيما جدد فى داخلى » ـ « رد لى بهجه خلاصك » وليست الخطايا مجرد خرق للعادات أو الشرائع الاجتماعية ، وانما هى زيغ عن الله • ولبلوغ الرضا فى التاريخ يحتاج الانسان الاتصال بالله • « كما يشتاق الإيل الى جداول المياه ، هكذا تشتاق نفسى اليك يا الله • عطشت نفسى الى الله » مزمور ٤٢ • « ان روحى لتظمأ الى الله » •
« والمستعان الأكبر هو الله لا الناس ، ومع التقة » به « لا ينبغى أن يخالجنا أى خوف من الناس » • « فالله لنا ملجأ وقوة » مزمور ٤٩ • « ان لم يبن الرب البيت، فباطلا يتعب البناءون ، وان لم يحفظ الرب المدينة ، فباطلا يسهر الحارس » • (مز : ١٢٧) « وأخيرا هو الذى » يحكم الامم « ويمكنهم من بلوغ الخير الذى يستحقون • وكل من صلحت صلاته بالله ، فصلحت بالتبعية صلاته باخوانه وبالعالم المادى ، فحالته غبطة ومسرة تؤدى الى ثنائه على الله » •
« باركى يا نفسى الرب » • وآخر آية فى المزامير بترتيبها الحالى هى : « كل نسمة فلتسبح الرب » • ولكن حياة الانسان على هذه الأرض قصيرة • فأيام الانسان كالعشب الذى يذبل بغاية السرعة ، « فهى كالدخان يظهر قليلا ثم يضمحل » ، ومع ذلك ، فان المزامير لا تركز التوكيد على أية فكرة تتعلق بالدار الآخرة ولا الحياة المستقبلة • أجل انها تصبح مرة :
« انما الله يفدى نفسى من يد الهاوية لأنه يأخذنى »
« مز • ٤٩ : ١٥ » •

-- وتستمسك الكتب المقدسة العبرانية فى كل جزء منهـا بأن الآلام تجيء نتيجة للخطيئة • ولكن هـل يمـكن تعليـل جميع ما ينزل بالناس من آلام بهذه العلة ؟ تلك هى المشكلة التى يدور حولها « سفر أيوب » ، وهى ذات أهمية من ناحية النظرة التأليهية اليهودية الى التاريخ • فان أيوب كان رجلا متمتعا بأجـود صـحة ويعيش هانئا بالسـعادة بين زوجتـه وأولاده ، وقد أوتى ثروة طائلة وأودعت نفســه الفضيلة الكاملة والاخلاص لله • وبدت طيبته الروحية ورخاء حاله فى الدنيـا كأنما يمضيان معــا • ثم شاءت ارادة الله فأذن بحرمانه من سعادته الأرضية وبانزال آلام السقام ببدنه • والقلة القليلة التى ذهبت للتحدث معه أصرت على أنه مادام العذاب والخطيئة متلازمين ، فلابد أن يكون آثما قلبه • ولم يستطع أيوب تقبل ذلك الرأى على اعتبار انه يشمل الحقائق كلها • فانه لم يكن على استعداد لاعتبار آلامه عقابا بصورة مطلقة • فانه وقد رأى الخير والطيبة الخلتين الغالبتين عليه، امتلأت نفسه بالحيرة ووقر فى نفسه اليأس المبين • ومن ثم تقبل الفكرة الذاهبة الى انه وان يكن مستمسكا بالفضيلة ، فان ارادة الله شاءت له أن يكابد الآلام • فاستمسك بما جبل عليه من بر وصلاح : وأخذ يسعى نحو ربه : « من يعطينى أن أجده فآتى الى كرسيه » • وقد رأى وهو غارق فى حالات يأسه أن : « الانسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعبا » ، فهو « يولد للمتاعب » • ويعرض لنا « سفر أيوب » الرأى القائل بأن الانسان فى التـاريخ يكابد آلاما لا ترجـع الى خطيئته • فان المتحدثين مع أيوب استمسكوا بتلك الفـكرة لكى يطعنوا فى عدالة الله ، وكان التمسك بها هـو بالذات خطيئة أيوب • ومع ذلك ، فقد ظهر خطؤهم حين رد الله أيوب الى رحاب السعادة • ويتضمن « سفر أيوب » رفضا قاطعـا لكل من طريقة تصور التاريخ عند الانسانيين واللذيين على السواء • ففى التاريخ يوجد الألم الذى الهـدف منه تقويه

الخلق وتحويل وجوه الناس نحو الله · وتتناقض هذه النظرة اليهودية والمبدأ الهندى المتمثل فى « شريعة كارما » · وتثار المسألة على هذا الوجه : « اذا مات انسان ، أهو سيعيش حياة أخرى » لا يمكن الانسان أن يقدم جوابا مؤكدا عن ذلك ·

على أن « سفر الجامعة » أو « الواعظ » ربما عبر عن فكرات مفكر فرد ، وربما أمكن وضع تفسيرات مختلفة لافكاره تلك ، وربما لم يشاركه فيها معاصروه أو كثير ممن أعقبهم بعد ذلك من اليهود · لقد صرح « الجامعه » بان « الكل باطل » فأطلق هذا الوصف على تفاصيل الحياة الدنيوية · وربما أخذ ذلك على أنه تعبير عن أن جميع ما يمر فى تاريخ الناس من خبرة زائل · فهو ـ شأن ماركوس أوزيليوس ـ يعتبر التاريخ واحدا لا يتغير على الدوام · « ما كان فهو ما يكون ، والذى صنع فهو الذى يصنع ، فليس تحت الشمس جديد » · « وينبغى ممارسة التاريخ على اختلاف أنواعه وأحواله فى أثناء مضيه قدما » · « لكل شىء زمان ولكل أمر تحت السماوات وقت » · « وينزل العقاب بالمسىء الطالح » · وتنزل الآلام والموت بالصالح المستمسك بالفضيلة أيضا » · وقد سن « الجامعة » نغمة من التشاؤم العميق حين قال : ان يوم الموت خير من يوم الميلاد · فالكل تراب والكل يؤول ترابا · ومن هذا ، فان القارىء السطحى هو وحده الذى يمكنه فهم الكتاب على أنه متشائم تماما فيما يتعلق بهذه الحياة · ولكن « الجامعة » لم يدع الى « حياة زهادة » تنكر الدنيا أو يدافع عنها · ومع أن متاع الحياة غرور وطيباتها باطلة بمعنى أنها زائلة ، فانها شىء يجوز بل ينبغى الاستمتاع به ، فانها هى الجزاء على الفضيلة كما أنها هبة من الله ، « إذهب كل خبزك بفرح امض فى طريقك ، واشرب خمرك بقلب طيب » · « وأيضا كل انسان اعطاه الله غنى ومالا وسلطة عليه حتى يأكل منه ويأخذ نصيبه

ويفرح بتعبه فهـذا هـو عطيـة الله » ، الجامعة ٥ : ١٩ ، « وينبغى للانسان التماس الاتصال بالله الدائم الأبدى . والاخلاص لله يستطيع منح الانسان رضا مقيما » . «فلنسمع ختام الأمر كله » : « اتق الله واحفظ وصاياه ، لأن هذا هو الانسان كله . لأن الله يحضر كل عمل الى الدنيوية عـلى كل خفى ان كان خيرا أو شرا » ، (جامعة ١٢ : ١٣) وأخيرا ، « فيرجع التراب الى الأرض كما كان ، وترجع الروح الى الله الذى أعطاها » . (جامعة ١٢ : ٧) .

على أنه حتى التاريخ المبكر نفسه لشعب اسرائيل كان حافلا بالحروب والنكبـات وكان الأنبيـاء يفسرون تلك الأحوال على أنها نتائج عدم الاخلاص لله ، وعـدم العمـل وشريعته وعدم جعل عبادته المحور المركزى للحياة . وكان الدفـع بأن ما يكابدونه من آلام ، انما يرجـع الى الاثـم والخطيئـة ـ يطبق عليهم كشـعب ولا ينطبق عـلى أفراد مخصوصين الا بدرجة أقل . اذ الرأى السائد أن الآلام كانت شيئا لابد منه لهم لكى يدركوا أنهم « شعب الله المختار » ، وان لهم رسالة شاملة . فان أشـعياء الثانى لفت أنظارهم الى ذلك : « أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم ، حتى تكون خلاصى الى نهاية الأرض » . وربما جاز لنـا أن نرتاب فى أن اليهـود بعامة قد جاهدوا جهادا واعيا فى سبيل جعل تلك الرسـالة الهدف المسيطر على تاريخهم . وقد آمن كثير بمجىء مسيح « مسيا » بشخصه . وهم يعتقدون أن الهدف من التاريخ هو انشاء مملكة مسيانية ، مملكة لو أنهم ماتوا قبـل قيامها ، لتبوءوا فيها أماكنهم بوسـاطة بعث أجسامهم . هـذا وان أصول العقيدة اليهودية على ما صاغها ابن ميمون (١١٣٥ ـ ١٢٠٤ للميـلاد) وهى المقبـولة بوجه عام بين اليهـود السلفيين منذ زمانه ، لتتضمن هاتين الحقيقتين : (١) « ان

المسيا وان تأخر سيجيء دون ريب » • (٣) « سيكون نشور الموتى فى الوقت الذى يشاؤه الخالق » •

وقد تضمن الاعتقاد المسيانى شيئا من التغير فى موقف اليهود فيما يتعلق بالتاريخ : حيث أصبح المستقبل يلقى التفاتا أكثر • اذ أصبحت الأهمية الرئيسية للتاريخ لا تنحصر فى خبراته الحاضرة ، بل تنحصر فى المستقبل الذى سيترتب على المملكة المسيانية • ولا شك أن من المسائل الممتعة تعرف الوقت الذى بدأ فيه اليهود بأن يهتموا اهتماما قاطعا بفكرة حياة مستقبلة والمؤثرات التى دفعتهم الى ذلك • على أن ما أصابهم على الدوام من كوارث ، وربما أيضا عدم ظهور مملكة المسيا ربما اقتادت البعض منهم الى الاعتقاد بأن تلك المملكة ستكون فى عالم آخر • ورغم ذلك فانه حتى فى الوقت الذى أخذ فيه اليهود يكثرون من التعبير عن الاعتقاد فى الخلود • كان لديهم مع ذلك اصرار على اضفاء التقدير التام على طيبات هذه الحياة • وقد أشار كاتب سفر الحكمة (Ecclesiasticus) (*) من الأسفار المحذوفة الى أنه فى الامكان الاستمتاع بالتاريخ الدنيوى ، مع الحكمة والطيبة • ومع أنه لم يعالج فكرة الحياة المستقبلة الا قليلا فانه كتب : « ان المعرفة بوصايا الرب هى شرعة الحياة ، وكل من عمل بما يرضيه سيتلقى ثمرة شجرة الخلد ، وورد فى « حكمة سليمان » : « وذلك ان الرب خلق الانسان ليكون خالدا ، وجعله صورة من سرمديته » • وعلى هذا النحو نفسه • يصرح سفر اسدراس الثانى بأن : « الحياة الحاضرة ليست هى النهاية •• ولكن يوم القيامة سيكون نهاية هذا الزمان، وبداية ما سيأتى من خلود •• » وفى ١٧٩٩ صرح دافيد فريد لاندر فى جمعية من اليهود المثقفين فى برلين بأن

(*) هو احد الأسفار الستة عشر المشكوك فى صحتها فى العهد القديم ، وتسمى بالأسفار المحذوفة — (المترجم) •

اليهوديةليست فيها الا ثلاثة مبادىء جوهرية : مبدأ الله ومبدأ خلود الروح ، ومبدأ رسالة التقدم نحـو الكمـال والتطلع اليه • والتأم فى بتسبرج مؤتمر لليهود فى ١٨٨٥ واتخـذ موقفا مماثلا لهذا ، ولكن مع اعادة التأكيد على رسالة اليهود العامة الشاملة فى التاريخ » • « نحن نتمسك بأن العقيدة اليهودية قد حافظت بين مالا آخـر له من صـنوف الكفـاح والمحن • وفى ظروف العزل المفروض عليها ــ على فكرة الله هذه ، حفظتها ودافعت عنها بوصفها الحق الدينى المحـورى للجنس البشرى » • « وأعلنوا أنهم يؤمنون بدلا من الاعتقاد بمجىء مسيا بشـخصه : « برجاء مسـيانى فى اقامة مملكة الصدق والعدل والسلام بين الناس » • ثم راحوا وقد رفضوا مبدأ البعث بالجسد ، يعلنون ايمانهم بخلـود الروح • وقد اعتقد كثير من اليهود أن أكبر كارثة حلت بهم فى تاريخهم جاءت يوم فقدوا استقلالهم نهائيا كاملة وأصبحوا مشتتين من أرضهم الأصلية ، ورأى بعض اليهـود العصريين أن تشتت اليهود لم يسمح به الله فحسب، بل جاء منه قصدا رغبة منه لهم فى أن ينفذوا رسالتهم الدينية باعتبارهم «الشعب المختار» • وفى ظنهم أن استمرار اليهود البـارز أمد ما يقارب الألفين من السنين رغم حرمانهم من كل سلطان سياسى ، يعتبر حقيقة مهمة فى التاريخ • فان نفـوذهم الدينى الواسـع والعميق واضح معلوم • وقد نشأت المسيحية بين أكناف اليهودية ، وقياسا على ما ورد فى القرآن الكريم ، فان الاسلام ربما كان مدينا لليهودية أكثر مما هو مدين لأية عوامل أخـرى فى بيئة محمـد ﷺ • وقد بلغ اليهـود حـين تقبلوا بالايمان فكرة أن هذا العالم من صنع الله ــ بلغوا القمة فى كل نواحى الثقـافة •

ويعدالكاتب كلود مونتيفيورى، من أشهر علماء اليهود فى العصر الحديث • وقد أورد ذلك الكاتب دلائل تدل عـلى

نظرة الى التاريخ ، ان كانت عصرية فانهـا يهـودية روحا وأساسا ، وذلك فى كتابه الذى أسـماه « معـالم اليهـودية المتحررة » Outlines of Liberal Judaism [١٩١٢] .
وقد تقبل ذلك الكاتب التصـور السـلفى التقليدى عن الله بوصفه روحا شخصية ، ولـكنه ذهب الى انه « يتصرف فى تاريخ الانسان وله فيه هدف » . « فالتاريخ الدنيـوى له قيمته فى حد ذاته ، كما أنه يعد أيضا تمهيدا لحياة مستقلة .
وهو يكتب أيضا : « نحن نعتقد ان الجنس البشرى قد تقدم ولا يزال يتقدم بصورة ان كانت وئيدة فهى عـلى كل حال أكيدة ــ من بر هزيل الى بر دسـم غنى ، ومن فكرات أدنى وأشد فجاجة وأكثر خطأ حول الله ، الى فكرات عنـه أعـلى وأنقى وأصدق . ومن أجل نفاذ أهدافه فى التاريخ ، يهب الله شعوبا وأفرادا معينة قدرات مختلفة وينوط بهم أعمالا مختلفة . وهكذا كان اليهود « شـعبا مختـارا » ، لم يجـر اختياره ليحرز النجاح والغنى أو القوة أو وفرة العدد ، ولم يجر اختياره من أجل الفن ولا العلم ولا الفلسـفة ، ولـكن جرى اختياره ليتعلم ويساعد على نشر المبادىء والخبرة الحقة عن الله والبر، وعن علاقة الانسان بالله وعلاقة الله بالانسان.
« وكان مونتيفيورى ممن يعتقـدون بأن « بقـاء الجنس اليهودى » ليس وليد الصدفة : « فانه لم يتم دون ارادة الله ونيته » . وذلك أن جوهريات الأخلاق والدين كما تعبر عنها الديانة اليهودية أصول عامة شاملة . ولكن اليهود جنس مثلما أنهم أنصار دين ، وهو يبدى أسفه لأن بعضهم أشد انشغالا بالمسألة الأولى : وهى الجنس ، منهم بالمسألة الثانية : وهى الدين . وبهذه الخلة يظهرون انهم لم يقدروا بدرجة كافية ما لديهم من صفة الشمول . وقد عبر عن رأيه بأن اذاعـة جوهريات الدين اليهودى تمت على يد المسـيحية والاسـلام أكثر منها على يد اليهود . ومع ذلك ، « فان المسيحية لا تبدو

لليهود سوى مرحلة فى اعداد العالم لتقبل يهودية نقية مضفاة متطورة ومتجهة الى الشمولية والتعميم » .

- ٣ -

نشأ الاسلام ببلاد العرب فى القرن السابع الميلادى بين مجتمعات لها نحل دينية محلية . ويعتقد المسلمون السنيون بأن الأصل فيه وحى أنزل من الله رأسا الى النبى محمد ﷺ وقد يكون لبعض العلماء الغربيين آراء شتى حول ما ورد من قصص آدم ونوح وابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود فى القرآن الكريم ، فضلا عما ورد فيه من اشارات الى بعض المبادىء المسيحية . وربما استطاع المؤرخ أن يعتقد فى هذا الشأن ما يعتقده . بيد أن المسلمين السنيين يعتقدون أنه أوحى به بأكمله من الله ، وأنه الوحى الكامل المنزه وخاتم الأديان للناس أجمعين . ولا يعتقد المسلمون أن النظرة الاسلامية الى التاريخ قد تم التوصل اليها عن طريق التأمل فى حقائق التاريخ الفعلى . ولكن الطريقة التى ينبغى للناس أن ينظروا بها الى التاريخ على ما هو متضمن فى أثناء نزول القرآن واذاعته على الناس . ولكى يؤكد القرآن ما انطبع فيه من اتجاه من التاريخ ، تجده يقدم أمثلة من التاريخ الحقيقى ليبين أن التاريخ يتطابق مع ما جاء به تنزيله : « **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين** » . [٦٩ : النمل] .

« والله » فى الاسلام هو المركز والأساس . والمفهوم الذى يتصوره الاسلام عن التاريخ يقوم على مبدأ التاليه . فالله ذات ، هو روح فردية ، وعبارتهم المأثورة أن : « لا اله الا الله » لم يقصد منها أن تكون مجرد اعلان بالمعارضة لأى شكل من أشكال الشرك ، بل ان تكون أيضا معارضة لوضع أى شىء أو أى فرد آخر فى مثل منزلته الرفيعة فى حياتهم . ومع أن من كتبوا عن الاسلام من علماء الغرب قد أكدوا ما لله

من قوة مسيطرة تماما ، فان كل « سورة » من سور «القرآن» تقع فى راسها عبارة : « بسم الله الرحمن الرحيم » · ومن الصفات الكثيرة المنسوبة اليه [تعالى] ثلاث آبرزهن جميعا : رحمته وقوته وحكمته · وهو موجود لا موجد له ، ابدى ازلى موجود فى كل مكان ، كريم ذو جلال ومجيد حميد · والهدف الرئيسى من القرآن هو جمع النـاس الى التنبه الى علاقاتهم بالله · فالانسان لا يستطيع مطلقا الفرار من الله فىالتاريخ، ولكنه تعالى لم يجىء فى التاريخ فى صورة كائن جسدى · وينكر القرآن انكارا قاطعا المبدأ القائل بأن يسوع هو الله متجسدا ، بل لقد ندد بذلك أكثر من مرة · فقد خلقالله عيسى « من التراب » ، « **ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل** » · وقد أرسل الله النبيين وأنزل الكتب المقدسة لهداية الناس : فموسى وعيسى نبيـان ، كما كانت الـكتب المقدسة العبرية والمسيحية تنزيلا ، كل فى مرتبته · ومحمد هو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين · ومنذ الساعة لا يجوز أن تحصل البشرية على هدايتها فى التاريخ الا من القرآن ، ويتم الاتصال الشخصى بالله فى الصلاة · ومن ثم فنقطة الدوران الرئيسية فى التاريخ هى نزول القرآن ·

وقد خلق الله العالم الفيزيائى بكل ما حوى من نواميس مطردة ومن خصائص أخرى تيسر حدوث التاريخ البشرى ، وتضفى عليه دلالته وأهميته · فالعـالم الفيزيائى لم يخلق عبثا « **وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين** » ، ولكن لغاية جادة «**الا بالحق**» وعالم الطبيعة ليس ثابتا بصفة نهائية : فالله قادر أن يخلق باستمرار · « **يزيد فى الخلق ما يشاء** » · والله حين خلق الليل والنهار وأوجد تعاقبهما قد جعل الحياة مؤقتة للبشر · والوقت عـلى ما يعرفه النـاس جميعا حقيقة صادقة عندهم وعنـد الله · وقد خلق النـاس أرواحا وهبها الأجساد في هذه الحياة · ويشـير القرآن الى أن الله قد فضل الناس تفضيلا خاصـا · فاختـار الله آدم :

« ان الله اصطفى آدم » ثم اتجه اليه وهداه . وجعل الانسان خليفة له فى الأرض . وربما إتصل الناس بالله فى قلوبهم بعلاقات روحية . وقد دار جدل كثير حول مذهب « الاختيار » وهل هو مما يعلمه القرآن أم لا يعلمه . ولكن ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن القرآن كتاب دين ، وأنه ليس كتابا يجمع مباحث نظرية فلسفية خاصة . فهو يحتوى على الاعتراف بكل من سيطرة الله وحرية الاختيار عند البشر ، ولكنه لا يبحث بطريقة تأملية ، كيف يمكن الجمع فكريا بين هذين الأمرين . فهو يؤكد ان الله يسيطر على كل شيء : ونفخ فى الروح سجيتها : « **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** » ولكن القرآن من أوله لآخره يؤكد استخدام « الاختيار » تأكيدا كبيرا . وليس الله بظلام للمذنبين : « **ولكن أنفسهم يظلمون** » . « **ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون** » .

ورعاية الاسلام للفرد واهتمامه به بالقدر الوافى شيء واضح تماما . وهو يصر أيضا على الاهتمام بالجماعة الاجتماعية بوصفها ذلك . والله يصدر حكمه على الأمم . ويشير القرآن فى مواضع كثيرة الى القرى التى ازدهرت أو أهلكت بما قدمت يداها من طاعة أو عصيان للسنن الخلقية التى يعبر عنها القرآن . ونذكر هنا عبارة تنقلها عن الأنانية تنطبق على الاسلام نصها : « ان تاريخ العالم هو حكم العالم على الأمور » . « فكل شعب يحصل فى النهاية على ما يستحق ، وذلك لأن الله يحكم بين الناس بالبين . وكثيرا ما اتهم المسلمون بشن الحرب لنشر دينهم . ولكن مدى صدق هذه الدعوى أمر يرجع الفصل فيه الى المؤرخين المحترفين . ومع ان المتعلمين من المسلمين العصريين يحاجون ان الاسلام يدعو الى الحرية فى اعتناق العقيدة ، فان القرآن يدعو الى معارضة كل من تتعارض عقيدتهم مع الاسلام وهو يحض أتباعه على القتال « فى سبيل الله » ، أى فى سبيل ما يتطابق

مع تعاليم القرآن • ولابد من محاربة الشر • ويعتبر القرآن بأن بعض الشر يرجع الى الناس أنفسهم ، وان بعضه الآخر يرجع الى أرواح شريرة من غير الناس • وكبير هؤلاء هــو ابليس ، الذى خلقه الله ، فارتد عنه باختياره « **ففسق عن أمر ربه** »• وصرح ابليس بأنه سيغوى الناس بالشر ويضلهم عن الصراط المستقيم • وغواية الناس هذه يستخدمها الله الى حد ما على الأقل للنهوض بأخلاقهم • اذ يقــول القرآن : « **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** » [٣٥ الأنبياء] • فلولا ذلك الاغراء لم يمكن حصول الانسان على أى منجز خلقى ذاتى • كما ان الله يبتلى بعض الناس « بالمحن والكوارث حتى يذلوا أنفسهم » •

واتجاه الاسلام من التاريخ ، اتجاه يقوم على المــذهب التحسنى (Meliorism) فمتى تزايد اقبال الأفراد والشعوب على الطاعة لارادة الله ، تحسنت الأمور ، ويتمسك المسلمون بأنهم فعلوا ذلك فى الماضى ، وسيواصلون فعله فى المستقبل ، وذلك لأن الاسلام هو الذى سـيفوز بالظفر فى النهــاية • والله يأمر بالعدل والقسطاس ، كما أن التاريخ أوضح فعلا أن الظالمين لن يفلحوا فى نهاية الأمر • والاسلام دين شمولى جعل للناس كافة •• « **ولله المشرق والمغرب ، فاينما تولوا فثم وجه الله** » • ولا يقاس الحــكم عــلى وجود التقدم أو عدمه بظواهر المدنية ، ولكن بأحوال نفوس النــاس ، وأخــلاقهم واتجاههم من الله • وتدريبا على تلك الغاية ، يطالب القرآن المسلمين بالصوم ؛ فهو أحد أشــكال ضبط النفس ، وهــو يقوى الخلق ، ويحول الناس عن فرط الانشغال بمتاع الحياة الدنيا • ولما كان بلوغ الغــاية الاسـلامية ليس من الأمور الســهلة المــرام ، فان القرآن لا يبرح يحض عــلى الصبر ويمتدحه • « **ان الله مع الصابرين** » • ولما كان المذهب التحسنى فى الاسلام متأصــل الجــذور عن عقيدة تأليهية ، فان ذلك

الدين يصر على أن عون الله شيء لابد منـه لبلوغ التحسن • وربما لم تكن الذنوب القديمة عائقا يحول دون التقدم فى المستقبل ، وذلك لأن الله سيمنح مغفرته للتائبين ، ويعينهم فى جهادهم فى سبيل الخير • ومع ذلك ، فان الهدف النهائى ليس دنيويا : فان حياة أخرى فى الآخرة مفتـوحة الأبواب أمام الانسان • وعلى النقيض من بعض المعتقدات الشرقيـة الأخرى ، فان الروح ليست فى حد ذاتها أزلية عند الاسلام ، بل كانت لها بداية ، كما أنها لم تعش حيوات أخـرى تسبق مولدها الوحيد على الأرض • وبعد الموت يحتفظ الانسـان بوجوده كفرد شخصى • فكل آراء أخرى حول حالة النفس بعد الحياة الدنيا ، كما هو وارد فى كتابات بعض الصوفية ، تعتبر مروقا وهرطقة فى الاسلام • والمؤمنون متأكدون من الحياة فى الدار الآخرة : فهى شيء يعد به القرآن الذى هـو وحى من الله وتنزيله • وقد خلق الله الفرد ، وهـو تعـالى القادر على المحافظة على روحه بعد الموت • وخلق الله للناس أبدانا ووضعهم فى العالم الفيزيائى ، كما أن الحيـاة فى هذه الأرض قد تكون طيبة ، كما ينبغى الاستمتاع بهـا • ولكن الذين يقنعون بهذه « الحيـاة الدنيـا » ، يقعون فى النهاية فى الخسران المبين • فالدار الآخرة « **خير وأبقى** »•

وأقبل المسلمون على كتابة التاريخ بوفرة • ذلك أنهم قد شاقتهم حياة زعمائهم ، الدينيين منهم والدنيويين ، كمـا أعجبتهم حـروبهم وتأسيسـهم لقوتهم السياسـية • وأهم مؤرخى المسلمين وفاء لغرضنا ابن خلدون [١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ للميلاد] • وقد أسماه بعضهم مؤسس علم التـاريخ ، لأنه ذهب الى أن التاريخ فرع نوعى من المعرفة يهتم بكامل مجال الظاهرات الاجتماعية للتاريخ الفعلى ، ويكشـف المؤثرات المختلفة التى تعمل فيه ، وباستمرارات الأسباب والنتائج ، وبالمكونات الفيزيائية والنفسية ، ولم يكن التاريخ بالنسبة

اليه مجرد تسجيل للحوادث ، بل وصفا للعلاقات الاجتماعية الداخلية والخارجية • وشهد القرن الرابع عشر فى العالم الاسلامى انحطاط الفلسفة عن المستوى العالى الذى شغلته في القرون السابقة • اذ انتشر بين الناس ضرب من عدم الثقة فى التأملات العقلانية • وكان ابن خلدون ممن أسهموا فى هذا الارتياب ولم يبحثوا عن أى عون يلتمسونه فى الفلسفة التقليدية • بل تراه قد التفت الى ما اعتبره حقائق التاريخ التجريبية • وقد ظن الناس في بعض الأحيان انه ممن آمنوا « بالمذهب الطبيعي » ، وان اشاراته الى القرآن بعيدة عن الاخلاص ، وان القصد منها وقاية نفسه من اضطهاد المؤمنين المتحمسين • ولكن الأرجح أن هذا غير صحيح • فان ما كتبه كان المقصود منه أن يكون بيانا عن المادة التاريخية ، يكون من الدقة الواقعية بالمنزلة التى يمضى فيها فى « ظل الله » •

وقد لاح أحيانا أن ابن خلدون يشير الى أن مجرى التاريخ يعتمد على ظروف البيئة ، أكثر مما يعتمد على المناشط الحرة للأفراد • ولكنه لم يظهر فيما كتب بأنه شديد التمسك بالحتمية (Determinism) • فانه اعترف بالأدوار التى يقوم بها الأفراد • كما ذهب فى بعض الأحيان الى أن وجود نمط أو نموذج متكرر فى مجرى حياة الامبراطوريات [الدول] ، انما يرجع الى طبيعة الاستجابات البشرية • فالدولة قد تأسست بفضل قوة بأس أحد الأجيال، وجاء الجيل الثاني فشد أواصر بنيانها واستمتع بقيمها ، مع الانغماس فى اللذات • فأما الجيل الثالث ، فانه هبط الى درك الضعف حتى قهر وسقط • وقد تعقب ابن خلدون ما يقوم بين تواريخ مختلف الشعوب من فروق ، وأرجعه الى بيئتهم الطبيعية ومناخهم وطبيعة أرضهم الى غير ذلك من العوامل • وهو يرى أنهم على نحو مرتبط ببيئة كل منهم الخاصة تقدموا قليلا أو كثيرا من حالة ساذجة الى حال المدنية [التى يسميها العمران] ، وطوروا ما اختصوا به من أنواع

الصفات العنصرية أو الاقليمية . وقد اضطر كل شعب ، التماسا للمحافظة على بقائه ورخائه ، إلى استثمار كل ما أمدتهم به أرضهم وزمانهم . وأبدى ابن خلدون تقديرا عظيما لاستمرارات الأشياء آمادا معينة من الزمن . ومثل هذا النوع من التكهن الذى رأى انه ممكن بالنسبة للمستقبل ، كان بالنسبة للأحوال التاريخية مماثلا بدرجة كافية لأحوال الماضى والحاضر كما عرفهما . وقد أكد ابن خلدون النواحى الاجتماعية للتاريخ ، وعالج الأفراد ، وما أصابهم من حظ سعيد ومحن ، بوصفهم داخل حياة المجتمع الجماعية والمشتركة . ولم يستطع بداهة أن يغفل حقائق الدين فى المجتمع ، فأعار النبوة التفاتا كبيرا ، كما أعار اهتماما لتأثيرات من أوتوا خبرة دينية ناشطة من الأشخاص . على أن معالجته للتاريخ لم تقم صراحة على أساس وجهة نظر « التأليهية » الاسلامية ، فانه لم يشر الى أن فى التاريخ عرضا الهيا ، كما لم يشغل نفسه بفكرة تدور حول هدف أقصى .

على أنه يمكن استنتاج طبيعة التاريخ ومعناه كما يتصورها مسلم معاصر ، من كتاب ألفه محمد اقبال ، وهو هندى درس العلم ببلاد الغرب ووضع فى اعتباره فلسفاته وطرائق حياته . واسم الكتاب « اعادة تكوين الفكر الدينى فى الاسلام (*) » [١٩٣٠] .

ومع أن المؤلف لم يسم نفسه بالمثالى ، وهى كلمة قد تكون مضللة بما لها من متعددالمعانى ذاتالظلال والتضمينات فى بلاد الغرب ، فانه رفض الفكرة القائلة بأن المادة جوهر مميز ، وتمسك بأن الحقيقة روحية محضة . وللمعرفة ثلاثة مصادر ، تؤدى كلها الى الله . فهناك المعرفة بالعالم

(★) اقبال محمد (١٨٧٣ ـ ١٩٣٨) شاعر فيلسوف باكستانى تعلم فى جامعات الهند وانجلترا والمانيا (المترجم) .

The Reconstruction of Religious Thought in Islam.

المادى عن طريق الحــواس ، والمعــرفة بحقــائق التــاريخ التجريبية ، ومعرفة الله عن طريق الكيان الباطنى للانسان فيما يمكن تسميته بالخبرة « الدينية » أو « الصــوفية » ٠ وإخر هذه المعارف شيء طبيعي للانسان ، وهى اهمهن جميعا لديه ٠ والهــدف والقيمة الرئيســيان فى التــاريخ ، هما الاتصال الدينى بالله ٠ والغرض من القرآن هو : « ايقاظ ما فى الانسان من مشاعر سامية عن علاقاته المتعددةالجوانب بالله والكون » ٠ ومع ذلك ، فليس هناك تعارض أساسى بين ما هو دينى ، وما هو دنيوى ٠ « ففى الاسلام ، ليس الزمنى ولا الروحى بفلكين متمايزين ، كما أن طبيعة أى عمل مهما تكن فحواه دنيويا ، انما يحددها الاتجاه الفكرى الذى يغلب على القائم به فى أثنــاء قيامه بعمله » ٠ غــير أن الحقيقة القصوى حسبما يذكر القــرآن ، حقيقة روحيــة ، كمــا أن حياتها انما تقوم فى نشاطها الزمنى فالروح تجــد فرصها فى الطبيعى والمادى والدنيوى ٠٠ وهذا المقدار الضخم من المادة يشكل للروح مجالا تدرك فيه ذاتها ٠ فكلها أرض الله ٠ أو كما عبر النبى ﷺ عن ذلك بأجمل عبــارة : حيث قال : « **جعلت لى الأرض مسجدا** » ٠

ويصر اقبال على أن الفكر الاسلامى يتصف « بالمناهضة للمذاهب الكلاســيكية » ، وذلك عــلى الرغم من تأثر بعض فلاسفة الاسلام بالفكر الكلاسيكى اليونانى والرومانى ٠ ذلك ان طريقة مقاربة الاسلام للمسائل الفكرية ، تجريبية أو اختيارية ، كما انها تتعارض والتجريد الفكرى ٠ وأهم من ذلك أو يكاد ، رفض الاسلام للمحاولات الفلسفية اليونانية ، التى تتجه الى المعارضة فى حقيقة الزمن ٠ اذ ينطوى التاريخ على الزمن ٠ ويتقبل الاســلام الزمن ، باعتبــاره حقيقة ٠ ويؤكد اقبال مضــمون ما ورد فى القرآن من قوله تعــالى : « **وهــو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا** » [٦٢ : الفرقان ٢٥] ، وهو يتناول بالبحث

ما كتب في الغرب حول الزمن ، يصف مختلف الاراء التى ذهب اليها المفكرون على طول تاريخ الفكر الاسلامى ، ولكنه عاد في النهاية فوافق على النتيجة التى وصل اليها عالم من علماء الاسلام ، درس جميع النظريات التى بسطت قبل زمانه • فان فخر الدين الرازى (*) كتب يقول : « لم أستطيع حتى الآن أن أصل الى أى شىء حقيقى فعلا فيما يتعلق بطبيعة الزمن » • ذلك أن العقل العربى ، وهو عقل واقعى ، لم يستطع أن يعد الزمن شيئا غير حقيقى مثلما فعل اليونان•

والتاريخ شأن من شئون الأفراد • « والحياة معناها امتلاك نطاق معين ، أى فردية محسة » • والانسان بما له من كيان ذى وعي ذاتى مضطر أن يخاطر بالصراع مع الغير • وقد أصر اقبال على التلقائية الفردية • وليس « للخليقة » من معنى لدينا الا لأنا نحن أنفسنا أوتينا القدرة على المبادأة بالأعمال • « فان كان التاريخ يعد مجرد صورة فوتوغرافية تعرض أمامنا بالتدريج ، وتمثل ترتيبا للأحداث محددا من قبل ، فلن يكون فيه مجال للجدة والمبادأة • « ويتسم التاريخ فى تصور الاسلام بالديناميكية قطعا • فالله له قدرة خلاقة لا انقطاع لها • فكل نظرية عن سابق علمه تحدد حريته ، نظرية مرفوضة • ومع ذلك ، فقد كثر على طول التاريخ الاسلامى قبول الناس لما يسميه اقبال باسم « مذهب [الجبرية] (**) وهو الاستسلام المخزى للقضاء والقدر » • ولا مراء أن اتباع الناس لمبدأ « القسمة » هذا وذيوع انتشاره بينهم ، انما يرجع كما كتب اقبال الى أمور : « منها الفكر الفلسفى ، وضرورات الأوضاع السياسية ، ومنها ما أصاب دافع الحياة من تناقص تدريجى فى قوته ، ذلك

(★) فخر الدين الرازى : (١١٤٩ ـ ١٢٠٩) متكلم وفيلسوف ومفسر للقرآن معارض للمعتزلة ـ (المترجم) •

(★★) الجبرية : (Fatalism) مذهب من يرى أن كل ما يحدث للانسان قد قدر عليه أزلا ، فهو مسير لا مخير (المترجم عن المعجم الوسيط) •

الدافع الذى كان الإسلام فى الأصل هو صاحب الفضل فى بثه بين أتباعه » .

على أن اقبال لم يعر شرور التاريخ فى كتابه من أوله لآخره الا أقل قسط من عنايته ، كما لم يجر البتة أى تأمل منتظم في مشكلة الشر . وقد ناقش ما ورد فى القرآن عن سقوط الانسان ، وذهب الى أن ذلك « لا يعنى أى فساد خلقي » . وكانت قصة عصيان آدم لأمر ربه أول أحداث الاختيار والحرية ، وذلك هو السبب ـ فيما يروى القرآن ـ فيما قوبلت به تلك الخطيئة من غفران . وفوق هذا فان القرآن لا يعالج « سقوط » آدم كأنما هو حادثة معينة من أحداث التاريخ ، وانما هو على الأصح يمثل عاملا فى حياة البشر . « فلم يكن الزج بآدم فى بيئة فيزيائية أليمة » عقوبة أنزلت به : فالأرض ليست « قاعة عذاب تسجن فيها بشرية بدائية شريرة من أجل خطيئة أصيلة ارتكبت » . « وانما الأرض خليقة الهية يتجلى فيها مجد « الله » » . وقد كيفت وفق تطور قدرات البشر الفكرية وصفاتهم الخلقية . والفكرة الاسلامية عن جهنم تنطوى على « خبرة اصلاحية » ، قد تجعل بعض الناس ذوى حساسية نحو الله . والمعنى الضمنى هو أن بعض ما يكابده الناس من آلام فى التاريخ البشرى قد جعله الله لصالح البشر من الناحيتين الخلقية والدينية .

وبعد بعد تأمل اقبال بعض التطورات السياسية العصرية بالأقطار الاسلامية ، ونبذ الفكرة القائلة بوجوب وجود خليفة واحد للعالم الاسلامى ، ذهب الى أنه على نقيض الامبريالية العربية التى قامت فى قرون الاسلام الأولى ، بزغ فجر مثل أعلى دولى . فالاسلام دين شمولى . فمبدؤه هو الولاء لله ، وليس لأية حكومة بشرية ، اللهم الا فى المرتبة الثانية . فالرجال من كل جنس وقطر ومن كل مستوى اجتماعى ، قد يقفون كتفا الى كتف فى وقفتهم أمام الله

للاشتراك فى الصلاة فى المسجد . ولم ير اقبال فى التاريخ بوجه عام أنه تقدم نحو هدف ثابت محدد مقدما . إذ أنه اعتبر مثل هذه الفكرة مناقضة لاستمرار حرية الله فى قدرته على الخلق ، بل يناقض نظرة القرآن أكثر من الفكرة القائلة بأن العالم هو التنفيذ الزمنى المؤقت لخطة تم تصنوزها مقدما . « والشىء المهم فعلا هو الاعتقاد بأن « الحكمة الالهية » مستمرة دائما فى عمليات الخلق وأن فى الامكان قيام توافق روحى للانسان مع طيبة الله . ولتاريخ حياة الفرد شىء من الوحدة ، كما أن ما فيها من قيم ليست مرتبطة فحسب بهدف أسمى لابد من بلوغه فى حياة مستقبلة . اذ تنحصر القيم فيما قد خلقه الله وما يخلقه ، وفى خبرات ذاتية الفرد الروحية نفسها ، وفى الاتصال الصوفى بالله .

ولا تستطيع الغيبيات [الميتافيزيقا] أن تثبت أن الناس سيكون لهم استمرار روحى بعد الموت . ولو رجعت الى حجج الفيلسوف «كانت» الخلقية فى اثبات ذلك ، لوجدتها لا تؤدى الا الى قضية « مسلمة » فضلا عن أنك تجدها غير قاطعة . ورد اقبال على نظرية نيتشه فى التكرار الأبدى المعاود، وحاج فيها بقوله : « كل ما نستطيع التطلع اليه هو الشىء الجديد جدة مطلقة هو ما لا سبيل الى التفكير فيه على أساس راى نيتشه الذى لايعد الا ضربا من [الجبرية] أسوا مما اجتمع في لفظة « القسمة » . ومثل هذا المبدا ، بدلا من أن يستثير الكائن البشرى ليقوم بالقتال فى سبيل الحياة ، يتجه نحو تدمير ما لذلك الكائن من ميول ناشطة كما يفل من توتر الذات أو ما يسمونه « الأنا » . واذ يذهب اقبال الى ان القرآن يعلم بأن كل « أنا » محدود يعتبر شيئا فذا لا سبيل الى «احلال غيره فى مكانه » . فانه يتقبل الاعتقاد فى خلود البشر . « ومهما يكن المصير النهائي للانسان ، فانه لا يعنى فقدان الفردية » ، « ومن الأمور المستبعدة كثيرا ، أن كائنا

استغرق تطوره ملايين السنين ينبذ نبذ شيء لا فائدة ترجى منـــه • « فأهمية التاريخ انمـــا توجد فى هذه الدنيا وفى الآخرة • والقرآن يهدى البشر اليها ، وهى معرفة بجميع الأسس الجوهرية المؤدية الى بلوغ البشر الخير بكامل تمامه • وبالنظر الى الفكرة الأساسية للاســلام ، لايمكن أن يكون هناك تنزيل آخر يقيد الانسان » •

الفصل الخامس

تصورات التاليهيين للتاريخ

٢ ـ المفاهيم المسيحية

ـ ١ ـ

من المؤكد المقطوع به أن المسيحية تهتم بالتاريخ من جهتين • فهى تعد أحداثا معينة ، ربما كانت حقيقة أو مجرد أشياء مزعومة ـ أمورا جوهرية ، كما أن لديها مضمونات مرتبطة بأهمية التاريخ بوجه عام • ويربط أتباع المذاهب السلفية التقليدية ربطا خاصا بين النوعين • وتعد المسيحية مختلفة عن غيرها اختلافا مميزا من حيث اعتبارات الأحداث المفردة المعينة • وتقدم المسيحية التاريخ في صورة ضرب من الدراما المسرحية • والفصل الأول فى المسرحية هو « سقوط آدم » ، بما أعقبه من استمرار الخطيئة ، التى هى تباعد عن الله ، بين ذرية آدم • والفصل الثانى هو دخول الله فى التاريخ متجسدا فى صورة بشرية ، فى «يسوع المسيح» • وتضمن هذا الفصل ما يلى :

(أ) تأسيسه الكنيسة المسيحية بجمعه التلاميذ بتأثيره الشخصى وأسلوب حياته وتعاليمه •

(ب) تخليصه البشرية بوفاته على الصليب •

(جـ) بعثه وصعوده الى السماء معطيا البشر تأكيدا بخلودهم • والفصل الثالث هو تبشير العالم بالانجيل تبشيرا

مضى مع اتساع نطاق الكنيسة المسيحية . ولا يزال هذا الفصل مستمرا . فأما الفصل الرابع والنهائى فهو عودة المسيح للمرة الثانية الى العالم جالبا معه « يوم الحساب » وافتتاح مملكة السماء الموسومة بالكمال والمقرونة بأتم البركات . فأما فيما يتعلق بحياة المسيحيين وانتشار المسيحية فى التاريخ ، فان « الله » حاضر فى صورة « الروح القدس » . وبهذا المفهوم تصورت المسيحية الله صورة ثالوث فى واحد : الأب والابن والروح القدس . وهم يرون ان الأب يعد بصورة سامية لا تلحق ، خالق الدنيا وبارىء البشر ، وانه بذلك قد طوع ظهور التاريخ ، ويرون فى « الابن » مخلصا قصد به أن يرد التاريخ الى هدفه الذى أراده الله منه ، ويرون أن « الروح القدس » هو الذى يطهر الناس فى أثناء عملية التاريخ . وهناك نقطة جوهرية فى هذه النظرة المسيحية التقليدية ، هى الاعتقاد بأنه بعد تلوث البشر بالخطيئة التى جرت على يد آدم ، صار من الضرورى أن يجىء الله الى التاريخ فى صورة بشرية . ومبدأ تجسد « الله » يمثل مرة واحدة والى الأبد الفرق الأساسى بين المسيحية والتصورات التأليهية عن التاريخ التى بحثناها فى الفصل السابق .

غير أنه قياسا على مناهج ما يمكن أن يسمى باسم التاريخ « العلمى » ، لا يمكن اثبات أن الأحداث التى تعد أساسية فى المسيحية قد حدثت فعلا . وليس فى الامكان اقامتها ولا دحضها على أسس فلسفية . فهى أمور يمكن تقبلها بل يجرى تقبلها فعلا عن طريق الايمان . ومع أن علماء اللاهوت المحدثين ، كثيرا ما يستخدمون المناهج النقدية فى دراسة العهد الجديد وتاريخ المبادىء المسيحية ، فانهم جميعا وبغير استثناء يواصلون الاستمساك بقوانين الايمان ، كما تعبر عنها العقائد . وبذا يتحصل أنه على الرغم من أن هناك بعض أفراد يعتنقون ، فى الزمن الحاضر

وفي الماضي ، شكلا من أشكال المسيحية ربما انطوى على نبذ بعض قوانين الايمان في العقائد ـ فان النظرة والرأى السلفي التقليدي السليم هو وحده الذي ينبغي أن يعالج هنا باعتباره الرأى الذى يعطينا التفسير المسيحي النوعي للتاريخ ٠

على أن تركز المسيحية التاريخية حول شخص المسيح لم يقلل طابعها التأليهي بأية حال ، وذلك لأن القوم يعتقدون أن يسوع المسيح هو نفسه الله ٠ ومن ثم فان اتجاهات يسوع وتعاليمه من حيث التاريخ تكون بذلك أهمية قصوى، وذلك بوصف كونها تعبيرات عن الوحي الالهي ٠ وقد تقبل الناس ألوهيته مرتبطة بمولده من «مريم العذراء» ومعجزاته وقيامته بعد الموت٠ وقد ظل الناس ردحا من الزمان يعتبرونه « المسيا » جريا على بعض الآراء السائدة المعاصرة ، حتى اعترف به بطرس « ابنا لله » وتابعه في النهاية أتباعه على ذلك ٠ وقد علم ان أهم ما في الحياة هو الاتجاه الروحي الجواني ، وهو اتجاه قطب الرحى فيه حب الله ، والطاعة لارادته ، وهي المؤدية الى الحب الخالص للنفس وللجيران أيضا بقدر حب النفس ٠ وقد تقبل آلام الصليب بوصف كونها راجعة الى ارادة « الأب » وبتلك الآلام محا خطايا العالم ٠ وقد وعد بحياة سعادة قابلة في «جنة الفردوس»٠ ومع أنه عاش عيشة فيها الكثير من نكران الذات « فأما ابن الانسان فليس له ابن يسند رأسه » ـ ودعا غيره الى التضحية ليتبعوه ، فانه رضي لبعضهم بمباهج الزواج ، ولم يمتنع عن بعض المشاركة في الولائم والأعياد٠ وبذا ، فان اتجاهه وان كان ينطوي على الزهد الى حد ما ، فانه لم يكن فرارا مطلقا من العالم ، ولا رفضا للتاريخ المؤقت تفضيلا للخالد الأبدي عليه ٠ فالمثل الأعلى الذى بشر به هو الخلق الفردي وانسجام الناس في مملكة السماء ٠ فمن أجل ناحيتي التاريخ هاتين،

وجب الندم والصدوف عن الأنانيـة وعن اهمال جانب الله والتوجه بالقلب الى خدمة الآخرين والاتصال بالله • ولتأكد البشر من الغفران والصفح الالهى ، وجب عليهم العفو عما يبدر من زملائهم • وقد شرح يسـوع فى الأمثال وغـيرها الطريقة التى ينبغي للناس أن يتصرفوا بها فى التاريخ : وهى اقامة الصلاة لله ، واسـتخدام ما وهبهم الله من مواهب على أتم وجه ، والتمثل « بالسامرى الصالح » بالاحسان لمن مستهم الحاجة أو الآلام ، والترحيب بعـودة المسرفين عـلى أنفسهم ، واخراج الخشبة من العين ، وعمل الخير من أجـل البر لا من أجل اطراء الناس ، ومعاملة الناس جميعا كاخوة لا بالتمييز المنفر كما يحدث بين اليهودى وأبناء الأمم • وفى مناقشته فتى مع كهنة اليهود ، اعتبر يسوع مهتما بالمعرفة ، كما يحتويها « عمل أبيه » كما اعتبر فى اشارته الى زنابق الحقل صاحب تقدير للجمال •

وقد أظهرت كثرة كبيرة من علماء « العهـد الجـديد » قبولها للرأى القائل بأن يسـوع ربما ــ ولو الى فترة ما ــ شارك كثيرا من معـاصريه فى الاعتقاد الشـائع بينهم بأن التـاريخ عـلى ما يعرفونه سينتهى عما قريب ، وبأن مملكة مسيانية ستقوم على الأرض • وربما تكون أفكاره تغيرت فى أثناء حياته • ولـكن لا شك أنه رفض كل ناحيـة سـياسية تتصل بالفكرة المسيانية الشائعة بين النـاس ، ولم يشـجع تساؤلات تلاميذه عن موعد مجىء تلك المملكة • « واما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن الا الأب » • وربما تأثرت بعض تعاليمـه بهذا الاعتقـاد الدائر حـول فلسـفة النشـور • فان بعض الوصايا الخلقية التى تنسب اليه والتى تبدو اليـوم غـير عملية ربما كان المقصود منها أن تعد « سنة خلقية » مؤقتة، تمهيدا واعدادا لذلك الحدث القريب • ولذا ، فان تلاميذه ظلوا حتى بعـد صلبه يعتقـدون بأنه عائد وشـيكا لاقامة

أركان تلك المملكة . وحدث في أوقات مختلفة من التاريخ المسيحي أن طوائف صغيرة أعلنت أن يسوع على وشك العودة فورا . ومع أن شيئا من الايمان بعودة المسيح مرة ثانية قد ظل موجودا بين المسيحيين ، فان الهدف من التاريخ قد أصبح يعتبر قبل كل شيء بلوغ حياة أخرى مستقبلة . ومما يرتبط بهذا ، الفكرات المتعلقة بحدوث بعث ويوم قيامة في نهاية التاريخ .

وقد تضمنت جميع أنواع الفرق المسيحية الاعتقاد بأن الله وثيق الاهتمام بالتاريخ ، كما أن تلك الفرق كلها اعترفت بالاستمرار الروحي بعد الحياة الدنيا . وارتبط الاعتقاد المسيحي الأول عن بعث الأجسام بفكرة قيام العصر الألفي السعيد في الأرض ، الذي لابد للصالحين الأبرار من أبناء الماضي من القيام فيه بأجسامهم للمشاركة في بحبوحته . ولكن بعضهم رأى في ذلك الاعتقاد ايماء الى طريقة ما يستطيع بها الأفراد تعرف بعضهم البعض في حياة مستقبلة . وأطلق على هذه الفكرة مصطلح : « الجسم الروحاني » الذي وضعه القديس بولس .

وهناك ثلاث نظريات تدور حول المصير النهائي للأفراد ويعتقد فيها المسيحيون (أ) مذهب الخلاص الشامل ومفاده أن الناس جميعا بلا استثناء سيبلغون في النهاية درجة الكمال ، (ب) مذهب الخلاص المشروط ، ومفاده انه لن يدوم الا من استحق استمرار بقائه ، فأما جميع من عدا هؤلاء فسيبيدون ، (جـ) مذهب السعادة الأبدية أو الخسران المبين ، وبمقتضاه تحرز الأرواح الطيبة سعادة السماء ويقاسي الخبيثون شرا أبديا هو جحيم البعد عن الله . ومعنى هذا أن التاريخ الأرضي لا يحتوى على معنى كامل في حد ذاته .

وربما بدا المسيح لعين التلاميذ المسيحيين الأول ، ذروة قمة بلغتها العقيدة العبرانية ، فهو المسيا المنتظر ، وقد اشار بولس في رسائله الى الامم ، الى المسيح بانه الكائن الالهى الذى نشده فلاسفة اليونان • ثم جاء بعض من تلا ذلك من المفكرين فجعلوا جميع التاريخ الماضى الذى عرفوه ، تاريخ اليهود والاغريق والرومان ، بمثابة التمهيد لمجىء المسيح وتأسيس الكنيسة المسيحية • فالتاريخ السابق بأجمعه قد ادى فى النهاية الى المسيح ، كما أن جميع التاريخ القادم ينبغى أن يعتبر الوسيلة لتحقيق الغاية التى من أجلها جاء • والتجسد والصلب والقيامة والصعود تؤلف الحقائق المركزية فى التاريخ ، تلك الحقائق التى يتم بالرجوع اليها أهميته • وتنحصر هذه الأهمية فى أن يتحقق للبشرية كل ما تنطوى عليه العلاقات الطيبة مع الله • وبذا يتجلى أن الفكرة المسيحية عن التاريخ ، فكرة دينية أساسا ، مدارها الاتصال بالله ، ولكنها فى المقام الثانى فكرة خلقية تتركز حول النزاهة الشخصية وصالح البشرية بوصفها وحدة اجتماعية • غير أنها تنطوى بعد هذا على قيم أخرى معينة • ومن هذه القيم ما توحى به قصص معجزات يسوع [سواء أحدثت تلك المعجزات فعلا أم لم تحدث] ، مثل تقديم الطعام للجياع ، وشفاء المرضى • وقد تفاوت مجال القيم الخاصة فى التاريخ التى يعترف بها المسيحيون تفاوتا بعيدا باختلاف الأفراد • فبالنسبة للمستنيرين فى الحقبة العصرية يمكن أن يقال عن التاريخ انه يضم كل ما يدخل تحت مفاهيم الصدق والخير والجمال •

— ٢ —

وباعتبار القديس أوغسطين [٣٥٤ — ٤٥٠ م] أهم المفكرين فى تاريخ المسيحية من أوله لآخره ، وبوصف كون معالجته للتاريخ المسيحى ذات قيمة خاصة — وجهنا اليه هنا

التفاتا خاصا · لقد اختلفت اتجاهات أوغسطين باختلاف الأوقات ، كما تنوعت صنوف التأكيد التي ركز عليها فكره · وتحتوى كتاباته على أشياء متضاربة ترجع الى توترات لم يستطع أن يخلق الانسجام بينها تماما · وبحسبنا من كتاباته العديدة أن نتأمل كتابيه «مدينة الله» و «الاعتراف» ·

ومع أن أوغسطين كان فيلسوفا ذا رفعة ممتازة ، فانه ركز موقفه على تقبله للعقيدة المسيحية بدرجة أكثر كثيرا من الفلسفة · وقد صرح بأن الفلاسفة قد بذلوا أشد الجهود للوصول الى طريقة «يضعون بها أيديهم على البركة» ، بيد ان الفلسفة تعد غير « مثبتة » بالموازنة الى « تثبيت العقيدة المسيحية » · وقد اتخذ فكرة المسيحية عن الله أساسا ، ثم راح يعارض مذهب الحلول وأى خلط بين « الله » وبين خليقته · فان تصورنا الله على أنه الحقيقة كلها ، « فمنذا الذى لا يستطيع أن يرى بعينى رأسه ما يعقب ذلك من عواقب بعيدة كل البعد عن التقوى والدين ، بحيث انه كلما وطىء انسان على شىء فقد وطىء على جزء من الله ، وفى ذبح أى مخلوق حى ذبح لجزء من الله » وفق هذا ، « اذا كان المذنبون جزءا منه ·· فلماذا يغضب من الذين لا يعبدونه ؟ » ولم يكتف أوغسطين بذلك ، بل رفض الفكرة القائلة بأن « الله هو النفس من العالم » · فالاله الحق ليس نفسا ، وانما هو « صانع النفس وباريها » فالله روح والروح شىء أشد جوهرية مما يسميه الانسان بما جبل عليه من وعى ذاتى باسم « نفسه » ــ والله لا تغله أية ضرورة : فكما خلق الطبيعة يستطيع أيضا أن يغيرها · وله بالأمور علم سابق · « والاعتراف بوجود الله وفى الوقت نفسه انكار أن له معرفة سابقة بما فى المستقبل من أشياء ــ حماقة ما بعدها حماقة» · ومن ثم يكون مستقبل التاريخ تحت تصرفه ·

والتاريخ حسبما يرى أوغسطين يدور حول كل من المؤقت والأبدى ، فالله أبدى وهو خالق الزمن • ولا يجوز فهم الأبدى ولا وصفه من وجهة نظر المؤقت • فالله موجود وحال فى الزمان كله ، مثلما هو أبدى • والزمن وان لم يمكن فهمه بمفاهيم الذهن ، فمن المقطوع به انه مما يمارسه الانسان • كتب يقول : « اذ ما هو الزمن ؟ ••• ومنذا الذى يستطيع فهمه ولو بفكره بحيث يستطيع أن ينطق بكلمة عنه ؟ وأى شيء نذكره فى حديثنا ذكر الدارى الآلف والمدرك العارف أكثر من الزمن ؟ ••• واذن فما هو الزمن ؟ اذا لم يسألنى أحد عن ذلك ، فانى أعرف ، وان رغبت فى تفسيره لمن يسأل ، لا أعرف • « والعلاقة بين المؤقت والأبدى ، تلك العلاقة التى يعدها أوغسطين حقيقية وذات أهمية للدين ، غير مفهومة للانسان • « والله » فى اطار التاريخ البشرى هو « العناية » • فشئون التاريخ الأرضى « يتولاها الله الواحد ويحكمها كما يشاء » ، « وليس فى الامكان مطلقا الاعتقاد بأنه ترك ممالك البشر ••• خارج قوانين العناية » • فان الممالك البشرية تقوم بفضل العناية ، فهى لم توجد اعتباطا ولا بحكم احدى الضرورات • ولابد من قيام « حساب أخير » ، ونحن وان لم يتهيأ لنا على الدوام تمييز ذلك الحساب ، فان حكمه (تعالى) موجود فى نسيج الشئون الانسانية • وحتى عندما يستعرض الانسان النكبات الظاهرية التى تلم بالطيبين واليسار الذى ينعم به الخبيثون الشريرون ، لا يمكن أن يكون نعت الله بالظلم صحيحا •

وقد كتب الناس الشيء الكثير حول آراء أوغسطين فى طبيعة الانسان ، ولا سيما فيما يتعلق بحرية الارادة البشرية ، وفيما كتبه الله للانسان من قدر محتوم • على أنه فيما يتعلق بهذا الصدد أظهر وجود توترات مختلفة في فكره لم يستطع التوفيق بينها • ذلك أن اقتناعه بسيطرة الله على كل شيء ، غلب على فكرة الاختيار والمسئولية عند

الانسان . على أن تقليله من الاعتراف بالاختيار البشرى ، يبنغى أن يلقى قدرا كافيا من التقدير . فانه لم يصل الى تعبير مرض يعبر به عن العلاقة بين الاثنين . على أن حرية الاختيار للفرد ومسئوليته الخلقية لهما أهميتهما بالنسبة لتصور أوغسطين للتاريخ . وكان أهم سؤال لديه فى هذا الصدد يدور حول مدى قدرة الانسان بارادته على بلوغ القيم الروحية ، وهى السلام والسعادة التى هى المعنى الأسمى فى تاريخ الفرد . فليست الارادة البشرية التى قد تتحكم فى الجسم بقادرة على التحكم التام فى العقل . ويحتاج التغلب على هذا النقص الى فضل الله . وتنطوى الحياة الروحية على علاقة ذات شعبتين بين الانسان « وربه » ، كما أن نصيب الله من تلك العلاقة أكبر من نصيب الانسان .

وأوضح أوغسطين فى « الاعترافات » كيف أتعبته مشكلة الشر قبل اعتناقه المسيحية ، فتوصل الى الاعتقاد ، على أساس من الفلسفة ، أن الشر كله يولد الحرمان ، الذى هو امتناع الخير . « وليس هناك على الاطلاق طبيعة تتصف بالشر . وليس هذا الا الافتقار الى الخير » ، « والشر نوعان أحدهما ما يفعله المرء وثانيهما ما يقاسيه . فما يفعله هو الخطيئة ، وما يقاسيه هو العقوبة . وعناية الله التى تتحكم وتتصرف فى كل شىء ، يسىء الانسان فيها بالشر بارادته لكى يقاسى من الشر الذى لا يريده . « والخطيئة فى الانسان تقوم فى قلة اخلاصه لله وعدم قدرته على الالتفات الى ما فى الوجود الأرضى من خير ، والى الخلق الشخصى والحب الاجتماعى الذى يريده الله له . وقد استطاع أوغسطين أن يقول : ان الخطيئة وان تكن « وصمة محزنة » فى الفرد ، « فان العالم يتزين حتى بالآثمين ذوى الخطيئة » . وعندما وصف الجحيم بأنه أبدى ، فلابد أنه عنى بذلك حالة من الحرمان الذى لا نهاية له . والله يجعل غوايات الشيطان للناس لكى يفيد بها الانسان. وعندما « يعرضنا الله للمحن،

فذلك لاحدى غايتين : اظهار ما بنا من كمالات ، أو تصحيح ما بنا من نقائص ، وفى مقابل صبرنا وتجلدنا على ما يرمينا به الدهر من آلام ، يحتفظ لنا بمكافأة أبدية » · « وفى كل مكان يكون الألم الأعظم مدخلا وسبيلا الى السرور الأعظم » وفوق هذا ، فان الخلاص من الشر كان من أهم الأشياء التى تشغل أوغسطين · وأهمية « المسيحية » تقوم الى حد كبير فى ذلك الخلاص · فالموت الذى هو النهاية لحياة طيبة ينبغى ألا يحكم عليه بأنه شر ·

وقد أبى أوغسطين قبول نظرية الدورات المتكررة فى التاريخ ، وذلك لأنه من ناحية ، اعتبر أن « التجسد » يحدث « مرة واحدة لا تتكرر » · وتشبيها بما يرويه الكتاب المقدس عن خلق الله للعالم فى ستة أيام واستوائه على العرش للراحة فى السابع ، قسم التاريخ الى سبعة أقسام :

١ ــ من آدم الى الطوفان ·

٢ ــ من الطوفان الى أبراهام ·

٣ ــ من أبراهام الى داود ·

٤ ــ من داود الى الاسر ·

٥ ــ من الاسر الى ميلاد المسيح ·

٦ ــ العصر الحاضر ·

٧ ــ الذى « يستريح فيه الله كما حدث فى اليوم السابع ، وسيمنحنا الراحة فى « ذاته » · « ووازن أوغسطين بين طريقتين للعيش فى التاريخ · وهما تعبران عن اتجاهات الأفراد ومختلف الجماعات الاجتماعية · « ليس هناك أكثر من نوعين من المجتمع البشرى نستطيع بالحق أن نسميهما مدينتين تبعا للغة التى تستخدمها الأسفار المقدسة ، والنوع الأول يتكون ممن يرغبون فى العيش حسب الجسد واللحم ،

والنوع الآخر هو الذين يرغبون فى العيش حسب الروح ٠٠»
على أنه نظرا لكون عبارة « العيش حسب الجسد واللحم »
قد تلوح الى البعض بأن « اللحم » شر ـ وهو أمر لم يكن مما
يعتقده أوغسطين ـ فان الافضل لنا أن نتناول وصفه الاخر
للمدينة الأرضية التى جعلها تتالف ممن لا يعيشون الا وفق
الانسان ، والمدينة السماوية التى للذين « يعيشون وفقا
لله » ٠ وقد استطاعت الفكرات المتعلقة بالمدينتين أن توضحا
لنا ما يقوم بين الناس فى التاريخ من تباين أساسى٠ والمدينة
الأرضية تقوم على حب الذات ٠ وفيها « يعيش الأمراء والأمم
الذين تخضعهم المدينة محكومين بحب الحكم « والسلطان » ،
الكبرياء ٠ بالسلطة والقوة ٠ وللمدينة الأرضية » ما لها من
خير فى هذا العالم وتفرح فيه بكل الفرح الذى تتيحه تلك
الأشياء ٠ ولكن لما لم يكن هذا الخير من النوع الذى يخلى
المخلصين له من كل ما يملأ نفوسهم من محن ، فان هذه المدينة
كثيرا ما تنقسم على نفسها بفعل المخاصمات والحروب
والمنازعات ، فضلا عن أنواع النصر التى اما أن تكون مدمرة
للأنفس أو قصيرة الأمد٠ «والمدينة الأرضية ليست بخالدة ٠
أما المدينة السماوية فتستقر على حب الله » ٠ وفيها « يخدم
الأمراء ورعاياهم بعضهم بعضا فى رحاب المحبة ٠ اذ تطيع
الرعية فى حين يشغل الأمراء عقولهم بالتفكير من أجل
الجميع » ٠ « وطبقا لها تكون » الحياة الأبدية هى الخير
الأعلى ، والموت الأبدى هو الشر الأعلى » ٠ والمدينة السماوية
تروح فى أثناء اقامتها القصيرة على ظهر الأرض « تدعو
المواطنين من بين أفراد جميع الأمم ، وتجمع مجتمعا من
الحجاج من جميع اللغات ، دون تدقيق حول التفاوت فى
الأخلاق والشرائع والنظم التى يحفظ بها السلام فى الأرض
ويصان » ٠٠٠ « ولا تشير الفقرة الأخيرة الى تطابق المدينة
السماوية فى الأرض والكنيسة المسيحية الواقعية وأنهما
شىء واحد ، بل تشير الى الوحدة الخفية التى يجب أن تتطور

بها تلك الكنيسة • ولا يجوز أن تمارس سعادة المدينة السماوية فى هذه الحياة ممارسة كاملة ، اذ أن هدف التاريخ يتجاوز ما هو أرضى • « والسلام الذى نستمتع به فى هذه الحياة الدنيا ، سواء أشاع بين الجميع أو ضاق فكان خاصا بنا ، يعتبر السلوى التى نتذوقها تعويضا عما حل بنا من شقاء أكثر منه الاستمتاع الايجابى بالهناء » •

وعندى أننا نقع فى غلطة شنيعة لو اعتبرنا تفريق أوغسطين بين المدينتين بصورة تجعل الأولى مدينة شر دنيوية والأخرى مدينة خير سماوية مناقضة للأولى • وعلى الرغم من أن فى الامكان التسليم فى كل من حياة أوغسطين وتعاليمه ببعض نواحى الزهد فى الأمور الأرضية ، فان هدفه لم يكن فى الأساس هو الزهد نفسه • ومعارضته لما فى المانويه من ثنائية كانت مناقضة لكل نظرة الى التاريخ تقتصر على الناحية الأخروية • اذ يحتوى كتابه « الاعترافات » على تعبيرات كثيرة عن تقديره لما فى الدنيا من خيرات • ولكنها مجرد خيرات مؤقتة ، لا يجوز أن تمنح المقام الأسمى فى الحياة • ولا أن تنشد دون اهتمام بالقيم الروحية ، التى هى شىء أبدى • فلئن كانت حياة المرء مسيطرة عليها الناحية الروحية ، فان فى امكانه أيضا أن يطلب ويستمتع بما يمنحه الله للناس مما خلق فى العالم الفيزيائى • وعندما أصر أوغسطين على أن الجمال « صنيع يد الله حقا » ، كان على بينة من أنه مؤقت ••• « أى أنه نوع منحط من الخير لا يليق أن يتلقى من الحب ما يؤثره على الله : الخير الأبدى الروحى الذى لا يتبدل « والخيرات الأرضية لها مكانها فى حياة البشر ، وذلك نظرا لأنها جزء من الغرض الذى يرمى اليه الله فى سبيل الانسان » • وقد عبر عن هذا فى فقرة من « الاعترافات » جديرة بالتنويه • « وذلك أنه حيثما تحولت نفس الانسان ، ما لم تتجه اليك « أنت » ، فانها تكون مركزة على الأحزان ، ـ نعم ، وان ثبتت على الجميل من

الأشياء • ومع ذلك ، فان هذه الأشياء (ان كانت) خارج شخصك ، وخارج النفس ، لم تكن لتكون ، ما لم تصدر عنك • فهي تشرق وتغرب وبشروقها تبدأ كما هو مقدر أن يكون ، وهي تنمو لكي تصل الى الكمال ، حتى اذا بلغت الكمال شاخت وذبلت ، وكل شيء لا يشيخ ، ولكن كل شيء يذوى ويضمحل • وهكذا اذن ، عندما تقوم الأشياء وتنزع أن تكون ، فكلما زادت سرعة نموها حتى يمكن أن تكون ، زادت سرعة في أن لا تكون • وذلك هو قانونها • وذلك هو النصيب الذى قسمته لها ، لأنها أجزاء من أشياء لا توجد فجأة ، ولكنها بذهابها وتعاقبها تكمل مجتمعة ذلك الكون الذى هي أجزاء منه • وعلى نحو هذه الطريقة نفسها تقريبا يتم حديثنا بوساطة علامات تصدر صوتا ، ولكن هذا أيضا لا يبلغ الكمال ما لم تمر كلمة واحدة وتذهب في سبيلها بعد أن تقوم بدورها حتى تستطيع أخرى أن تعقبها • ونتيجة لهذه الأشياء جميعا دع نفسى تسبح بالثناء عليك ياالله ياخالق كل شيء ، ولكن لا تدع نفسى أن تثبت على هذه الأشياء بغراء الحب عن طريق حواس البدن • وذلك انها تذهب حيثما كتب لها ان تذهب ، لكي لا تكون ، وهي تمزقها بالتشوفات الوبيلة ، وذلك لأنها تتشوق أن تكون ، ومع ذلك تحب ان تستريح فيما تحب • ولكن هذه الأشياء ليس فيها مكان للراحه ، فهي لا تستقر وانما تفر ، ومنذا الذى يستطيع متابعتها بحواس الجسد ؟ نعم ، منذا الذى يستطيع امساكها وهي أدنى اليه من حبل الوريد ؟ وذلك ان حس جسد [اللحم] مبطيء ، لأنه حس الجسد (اللحم) ، وبذا يكون محدودا • اذ هو يكفى لما صنع من أجله ، على أنه ليس يكفى لايقاف أشياء تجرى شوطها من نقطة ابتدائها المعينة حتى النهاية المعينة • وذلك أنها في كلمتك ، التى بها خلقت تسمع الحكم بمصيرها ، منذ الآن وحتى الآن • « لقد صنعنا الله من أجل نفسه » • كما أن قلبنا سيظل بعيدا عن

الراحة حتى يرقد فيه · « ومحبة الله ، القيمة العليا فى الحياة البشرية ، تمنح من الرضا مالا يستطيع شىء أخر منحه · وينبغى أن تكون تلك المحبة هى المعنى الجوهرى لتاريخ الانسان على هذه الأرض وما بعدها · هذا ولم تكن دلالة كلمة « أبدى » عند أوغسطين بالدلالة الفلسفية بقدر ما هى دينية · فالله أبدى بصورة جوهرية من حيث « انه » موجود أبدا لكى « يستريح فيه الناس » ·

- ٣ -

وفى أثناء العصور الوسطى توثق تأكيد التمييز بين الوحى والعقل · فان الله تجلى بذاته فى التاريخ فى صورة يسوع المسيح · وقد اجتلب للناس التكفير عن الذنوب بما قاسى من آلام وموت ، كما أن بعثه أكد لهم وجود الحياة فى العالم الآخر · وقد كانوا يتصورون التاريخ باعتباره أولا فترة امتحان وفترة اعداد لحياة بعد الموت · وقد منحت هيئات الزهد الكثيرة التى نشأت على كر الأيام ، هذه الفكرة ضربا خاصا من التعبير · وكان الرهبان والراهبات قوما يرغبون فى الفرار جهد الطاقة من المشاركة فى شئون التاريخ العادية · قال بطرس داميانى (١٠٠٧ — ح — ١٠٧٢ م) : « ان العالم يبلغ من امتلائه بنجاسة الرذائل أن يدنس أى عقل مقدس حتى بمجرد التفكير فيه » · وقد عبرت « الكوميديا الالهية » لدانتى [١٢٦٥ — ١٣٢١ م] عن نظرة مسيحية الى التاريخ على صورتها المتخذة فى العصور الوسطى ، فالتاريخ البشرى غير مقصود على الأرض وحدها ، بل انه يتجاوز ذلك الى ما يصيب الانسان فى المستقبل من جحيم ومن مطهر وفردوس · ومع أن الناس قد يشتركون فى جماعات وجهتها الخير أو الشر ، فان الاتجاهات الروحية والأعمال الخلقية مسائل تخص الأفراد وحدهم ، وتعتمد أساسا على ارادتهم الخاصة · والواقع أن

مبدأ العدالة يترقرق فى كل أجزاء « الكوميديا الالهية » ٠
هـذا وان الجحيم فيما يقرر دانتى ليشـمل كل من يتخـذ المعارضة لله ديدنا له ، دون أن يتزحزح عن موقفه ٠ فأما نزلاء المطهر ، فهم وان كانوا لا يزالون من الاثمين ، الا أن ارادتهم متجهة الى الله محاولين أن يتغلبوا عـلى الخطيئة ٠
على أن تفسير دانتى للتاريخ البشرى لم يكن تفسيرا يدور حول العالم الآخر تماما ٠ فقد كانت لديه فكرة عن فردوس أرضى يمكن بلوغه فى نهاية الأمر ٠

وشرعت الكنيسة الكاثوليكية بايطاليا مسـتعينة بنفوذ المذهب الانسانى الذى ظهر فى عصر النهضة ـ توجه التفاتا أكثر الى طيبات الحياة الدنيا ٠ ولم يتأثر الرأى التقليـدى المسيحى عن التاريخ تأثرا عميقا ٠ اذ حدث فى (١٦٨١م) ان ذلك الرأى وضع فى عبارة كلاسيكية فى كتاب بوسويه(*) «حديث فى التاريخ العام» Bossuet : « Discourse on Universal History ، وقد أصر بوسويه على أن شئون التاريخ تمضى فى تعاقب سببى ، حيث تعتمد حوادث أحد القرون على حوادث القرن الذى سبقه ٠ قال : « لم يعد يجوز لنا بعد الآن أن نتحدث عن الصدفة ولا الحظ ، أو ان شئنا تحدثنا عنهما على أنهما وصف نغطى به جهلنا ٠ فان ما نعده فى رأينا غـير المتأكد منه صدفة من الصدف ، يعد تصميما قاطعـا فى رأى أعـلى من رأينا ، أى فى الرأى الأبدى الذى يضم جميع الأسـباب وكل النتائج فى نظام واحد » ٠ ووفقا لهذه الخطة الالهية تقوم الدول وتسقط ٠ وتسيطر على الناس فى التاريخ قوة فوقهم ، كمـا أنهـم بتأثيرها ، اذ يعملون أكثر أو أقل مما يقصدونه هم أنفسهم ، ينفذون التصميم الالهى ٠ والهدف المركزى الذى تهـدف اليـه البشرية كلها هو الدين ، ومن نقطة ارتكاز الدين هذه راح بوسويه بوجه خاص يستعرض

(*) بوسويه (جاك بنينى بوسويه) ١٦٢٧ ـ ١٧٠٤ قسيس فرنسى ولاهوتى كبير ـ (المترجم)

التاريخ ويمسحه . على أنه رفض جميع مدعيات الأديان ما عدا أديان العبرانيين والمسيحيين . « ان الله الذى عبده العبرانيون والمسيحيون دائما ، لا يشترك فى شىء مع الآلهة الأخرى ، البالغة الشر والبعيدة عن الكمال ، والتى عبدها سائر العالم » . ثم ترامى الأمر فى النهاية الى أن ظهر الله للبشر متجسدا فى شخص يسوع المسيح ، مشيرا لهم الى « طريق جديد » ومعطيا الاتجاه المسيحي للتاريخ . وقد أوضح يسوع صدق الحياةالآخرة ، كما كشف عن انالصليب هو « السبيل الى الجنة » . وقد حمل يسوع الصليب طوال حياته ومات عليه . ومنذ تلك اللحظة فصاعدا تصبح الكنيسة حسبما يرى بوسويه ، العامل المركزى فى التاريخ، ولم يستطع شىء حتى الآن أن يدمرها ، لا المعارضة من الخارج ولا المنازعات من الداخل . وقد ذهب بوسويه الى أن مما يشهد بصدق هذا الرأى أن الكنيسة ظلت منتصرة على الدوام وأن اليهود الذين رفضوا يسوع ظلوا يقاسون الآلام على الدوام . « ان للكنيسة جسما دائم الوجود لا يستطيع أحد فصل نفسه عنه دون أن يضل الرشاد . فكل من اتحدوا معها وعملوا أعمالا تليق بعقيدتهم ، فهم على يقين من حياة أبدية » . وقد علق الأستاذ ج.ب. بيورى(*) على ذلك بقوله : ان نظرية بوسويه قائمة على : « المبدأ الظاهر الذى لا يكاد يخفى ، من أن البشرية انما خلقت من أجل الكنيسة » . على أن بوسويه بما نشأ فيه نشأة وبيئة ، لم يكن ليتصور امكان قيام دين حق بدون وجود الكنيسة . ولم تخلق البشرية من أجل خاطر الكنيسة ولكن من أجل الحياة الأبدية ، تلك الحياة التى كان بوسويه يعتقد أنه لبلوغها أنشئت الكنيسة .

(*) جون باجنل بيورى (١٨٦١ ـ ١٩٢٧) مؤرخ والده قسيس ايرلندى ، عين سنة ١٩٠٢ استاذا للتاريخ بكامبريدج . واشرف على احدى طبعات كتاب جيبون وعلق عليها ـ (المترجم) .

ثم جاء الاصلاح الدينى البروتستنتى الذى ظهر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فلم يجلب اى تغيير جوهرى فيما يتعلق بالاتجاه المسيحى من التاريخ . وقد ظل دعاة الاصلاح يعتقدون أن الحياة على الأرض انما هى اعداد للحياة المقبلة . ولم ينشأ المذهب البروتستنتى نتيجة لتأثيرات تصور عصر النهضة للقيم . فأما ما حدث فى قرون تالية من أن معظم البروتستنت أصبحوا يعترفون بالمعانى الأصيلة للثقافة ، فلم يكن سوى ضرب من التوفيق بين مذهبهم وبين تطورات المذهب الانسانى وتقدم حرية الفكر . وقصارى ما قطعه أصحاب الاصلاح الدينى أنهم عارضوا جماعات الزهد التى تجمع الرهبان والراهبات ، وأباحوا للطقوس شطرا أكبر من الحياة العادية برفضهم ما كان يفرض عليهم من ضرورة العزوبة . ومع أن البروتستنت رفعوا من قدر الالتفات الى الشئون الدنيوية ، فانهم لم يلتمسوا معنى التاريخ فى المفيض الزمنى للأحداث . فالله فى التاريخ موجود قبل كل شىء من أجل الرفاهية الروحية للأفراد . وقد شجع كالفن اجتهاد كل امرىء فى عمله ، ومع ذلك طالب بالقصد فى الحياة والامتناع عن الترف . أما النجاح فى هذه الدنيا فأمر يعتمد على الله وحده . ولن يؤدى الاجتهاد الى تقدم أى انسان « ما لم يمدد الله اليه يده ويبسط عليه كرمه » .

وقد اتفق كل من كالفن ولوثر فى انكار حرية الاختيار لدى الانسان بشكل ما . أجل سلم لوثر بشىء من الاختيار فى الشئون العلمانية . كما أن كالفن لم يقصد أن ينكر الاختيار كله . فانه صرح فى رسالة كتبها ضد أحد الملحدين: « ان هؤلاء الملحدين لا ينسبون الى الانسان أى اختيار ، فكأنما هو قطعة من حجر ، كما أنهم يمحون كل تمييز بين الخير والشر ، الى حد انه لا يمكن أن يخطىء أحد — فى رأيهم — فى عمل شىء ، مادام الله هو مرد كل عمل . » وأصر

كالفن على مسئولية البشر فيما يصــدر منهم من أعمــال ٠ وقصــارى ما كان كالفن ولوثر يقصــدانه ، أن يضــعا فى منزلة الصدارة أن خلاص الانسان الروحى يعتمد عــلى الله بدرجة أكبر كثيرا من اعتماده على الانسان نفسه ٠ وأن كون الله فى التاريخ يصنع من أجل رفاهية البشر من الناحيتين البدنية والروحية أكثر من الانسان ، يعد نقطة جوهرية فى المذهب التأليهى المسيحى ٠

وكثيرا ما ذهب ذوو الرأى الى أن هنــاك اختــلافا بين اتجاه البروتستنت من التاريخ واتجاه الكاثوليك منه ، يقوم فى أن البروتستنت قد سلموا وأصروا عــلى حالة الشــخص الفرد بطريقة لم يفعلها الكاثوليك أبدا ٠ ولا شك أن اهتمام الكنيسة الكاثوليكية بالفرد هو أساسا اهتمام دينى وأخلاقى ٠ فان تلك الكنيسة تطالب الفرد بتقديم اعترافه الشخصى أمام القســيس الذى قد يمنحــه الارشــاد الروحى ٠ وفى ذلك اعتراف قاطع بالفرد ٠ ومن المعلوم أن الاصلاح الدينى كان من بعض النــواحى احتجاجا عــلى بعض ما كانت تمارســه الكنيسة الكاثوليكية من ممارســات وما تدلى به من تعاليم ، ولكنه كان أيضا احتجاجا عــلى سيطرة الســلطة الكهنوتيــة الكاثوليكية ٠ فانه ناصر تحــرير الناس من بعض أنــواع السلطة ٠ بيد أن الكنــائس البروتستنتية الــكبرى كان بها بعض أنواع السلطة ، مثل سلطة « الكتاب المقدس » وسلطة مختلف أنواع الجهر بالايمان ٠ ورغم ذلك ، فان التأكيد على حرية الفرد واختياره أدى الى تطور العلم والفلسفة وأصول الحكم السياسى ٠ على أن فكرة الكنيسة الموحــدة باعتبــارها مركزية وأساسية فى التــاريخ لقيت التحــدى ٠ وأصبحت العلاقات بين الكنائس والدول متنوعة الأشكال ٠ وبات مبدأ الحرية الفردية جوهريا فى التاريخ العصرى ، حتى أفضى الى ما أحرزته الحضارة العصرية من تطورات ٠

ولم يحـدث قط أن أحـدا من رجال اللاهـوت وصف المسيحية بالانشغال بتاريخ الفرد بنفس الروعة التى وصفها بها جون بنيان (١٦٢٥ ــ ١٦٨٨ م) فى اثنين من أعمـاله الجديرة بالتنويه وهما : « مسيرة الحاج من هـذا العالم الى العالم التالى » •

« The Pilgrims Progress from this world to that which is to come ».

[الجزء الأول ١٦٧٨ والجزء الثانى ١٦٨٥ م] ، وكتاب الحرب المقدسة (١٦٨٢ م) • ولم يشر بنيان الى الحوادث الواقعية شأن كل مؤرخ ، ومع ذلك فانه عد هذين الكتابين معبرين عن حقائق صادقة فى التاريخ • وتلك حقيقة تتجلى فى الملحوظة التى كتبها فى ختام كتاب « الحرب المقدسـة » حيث قال : « بهذا تمكنـا من ترسم « تاريخ النفس » عـلى طول مراحلها المختلفة ، وما تعاور عليها من تبدلات وما مر بها من تقلبات ، وما مر بهـا من شـمس سرور أو دمـوع أحزان ، ومن ليل حالك الظلمة وباهر ضياء المجد • وسيجد القارىء أن جميع أنواع الخبرات الروحيـة ينتظمها هـذا الكتاب ــ فهناك الخدمات التى يقدمها عن طيب خاطر موالو الشيطان وعبيده ، وهناك تمرد الأبناء ذوى العقوق ، وهناك أحزان الروح الأسيرة ، وانزعاجات ضمير مسـته المتـاعب ، ولجوء الروح الى الله فى ندم وضراعة ، وأوبة الضـال الى أحضان الأب » ، وخضوع الثائر « لمليكه » تعـالى ، والمسرة التى تبعثها سبل الدين وارتداد الآثمين عن الطريق القويم ، وتحجر القلوب ، والأمن الجسدى الشهوى للنفس ، واستيقاظ النفس الى الشعور بما يحدق بهـا من خطر ، وصيحتها الى « القوى » القادر تلتمس المعونة ، والتأديب الطويل الشاق ، والتماس طريق العـودة الى الله ، والعثور عـلى « الأحـد » المفقود المحبوب ، وتجديد الولاء المقدس والبنوة المقدسـة ،

والصيحة المحبة التى تصدر عن « عمانوئيل (*) العظيم » ٠ ومع أن كتاب الحرب المقدسة « The Holy War » ربما انطوى على بعض مضمونات اجتماعية ، فان كتاب « مدينة روح الانسان » قصد منه بالحرى روح الفرد بكل ما حوت من الوفير المتعدد من المشاعر ، والأفكار والارادات ، وما لها من صراعات جوانية ومن كفاحات فى سبيل السلام ٠ وكان الجزء الأول من كتاب « مسيرة الحاج » يمثل المسيحيين على وجه العموم بوصفهم أفرادا ، مع جعل المسيحى الشخصية المركزية ، كما مثل الجزء الثانى زوجته وأطفاله ٠ أما كتاب « حياة وموت السيد فاسق » The Life & Death of Mr. Badman (١٦٨٠ م) فهو وصف لاتجاهات وخلق الشخص الذى شغلته الدنيا وتيبان لسلوكه فى التاريخ كنقيض لأحوال المسيحيين التى صورها الكتابان الآخران ٠ هذا وقد كان بنيان يؤمن بالفكرة السلفية التقليدية ، وهى أن الناس انما افتدوا من شرور التاريخ وبلغوا السلام بفضل موت يسوع باعتباره الابن المتجسد لله ٠

— ٤ —

أجريت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، عدة محاولات لتقديم تصور للمسيحية عمل على أساس المذهب المثالى الكلاسيكى عند الألمان ٠ ولم تكن تلك المحاولات سوى أشكال من مذهب وحدة الوجود أو المذهب الحلولى (**) الفلسفى (Panteism) لا عروضا للمسيحية باعتبارها دينا ٠ وكانت تركز تأكيدها على الله بوصف كونه المسيح

(★) عمانوئيل : هو اسم يطلق بالعبرانية على يسوع المسيح ومعناه « الله معنا » — (المترجم) ٠

(★★) مذهب الحلول ، كما ورد فى « المعجم الوسيط » : — اعتقاد أن الله حال فى كل شىء حتى صار يصح أن يطلق « الله » عند اصحاب هذا المذهب على كل شىء — (المترجم) ٠

الأبدى الجوهرى المتأصل . ولو نظرت الى كتاب « فلسفة التاريخ » The Philosophy History (١٨٢٨ م) الذى ألفه فردريك فون شلوجل (١٧٧٢ ـ ١٨٢٩ م) ، لوجدته بيانا يعبر عن الرأى التقليدى ويدافع عنه فى معارضة لهذه المحاولات وما تضمنته من الآراء والفلسفات . وقد راج هذا الكتاب رواجا عظيما ، كما أن بعض ما ورد فيه من افكاره الرئيسية لقيت ومازالت تلقى قبولا من الدوائر المسيحية المستمسكة بالصحة التقليدية طوال القرن التاسع عشر ، وفى نفس الوقت الذى اعترف فيه فون شلوجل بأن أية فلسفة للتاريخ ينبغى أن تنشأ عن التأمل فى التاريخ الواقعى ، فانه أصر على أن بالعقيدة المسيحية أساسيات تعتمد على أشياء بعيدة كل البعد عما يستطيع المؤرخ المحترف الحصول عليه من دراسته للتاريخ . وقد أثبت الاستقراء أن مجرى التاريخ قد تطابق ويتطابق دائما وما فى هذه الأساسيات من مضامين . ذلك أن « فلسفة التاريخ » نظرا لأنها روح التاريخ أو فكرته ، ينبغى أن تستنبط من الأحداث التاريخية الحقيقية ... التى هى مجموع التاريخ الواحد المتماسك الكلى . » والكتاب يعد محاولة للحصول على «نظرة نافذة واضحة الى الخطة العامة للمجموع » . وقد ميز فون شلوجل بين نظرتين رئيسيتين متعارضتين حول التاريخ « والانسان » حسبما ترى النظرة الأولى مجرد حيوان تزكى وشرف وتهذب بالتدريج ، حتى بلغ مرتبة العقل ثم رفع قدره وسما أخيرا الى العبقرية . « وترى تلك النظرة أن تاريخ الحضارة البشرية ليس الا تاريخ تحسن تدريجى مطرد التقدم ولا نهاية له . فأما النظرة الثانية فترى أن : طبيعة الانسان الحقة ومصيره تقومان فى مشابهته لله . وبمقتضاها : « ينبغى أن يكون تاريخ الانسان هو استرجاع المشابهة لله أو التقدم نحو ذلك الاسترجاع » . « وتقوم النظرة الأولى مع الاقتناع بقابلية الانسان « للكمال » ، وهو

اقتناع سلم فون شلوجل بأن فيه شيئا « بالغ الاتفاق مع العقل » . ومع ذلك ، فان قابلية الانسان للفساد لا تقل ضخامة عن قابليته للكمال . « على أن التاريخ الواقعى يكشف عن مجرى للحوادث يتعارض والنظرة الأولى » .

وقد ذهب فون شلوجل الى أن « الحقيقة التاريخية الأولى » ، هى ان الانسان وقع وسقط تحت « سيطرة الطبيعة » . فالقوة العمياء للطبيعة تعمل فى داخله . وهكذا بذرت فيه بذور الشقاق ، ثم انتقلت الى جميع العصور والأجيال . وهى تتكرر فى كل فرد . وهى شىء عام منتشر « ويمكن اعتباره ظاهرة سيكولوجية » . وتوجد عواقب هذا السقوط بين أكتاف التاريخ ، اذ ليس هناك حد لما يمكن ان يصيب الانسان من انحطاط . ويتوقف التقدم أو النكوص جزئيا على الانسان ، بوصفه روحا ، يملك حرية الاختيار . « فالصراع بين الخير أو المبدأ الالهى فى جانب ، وبين الشر أو المبدأ المعاكس فى آخر ، هو بالضبط السبب فى تكوين فحوى الحياة البشرية والتاريخ البشرى ، منذ بداية الزمان حتى آخره » . « ويقتضى العمل الكبير المنوط بالبشرية عامة وبكل فرد من الأفراد ، اعادة الانسجام بين الارادة الطبيعية والارادة الالهية » . ويؤلف التقدم والنكوصات التى تلم بذلك العمل، جزءا جوهريا من التاريخ. ويذهب فون شلوجل الى أن الله عندما خلق الانسان لأول مرة ، أعلن اليه ذاته تعالى وأوضح له طريقة الحياة التي يقصدها للبشر . وعلى الرغم مما ألم بالبشر فى ناحية تقاليدهم المقدسة من انحطاط ، فان هناك « أوضح الدلائل فضلا عن آثار متناثرة » للتجلى الأولى ، وان جاءت مختلطة بالأخطاء فى كثير من الأحيان . وقد حاول فون شلوجل أن يدلل على ذلك فى استعراضاته التفصيلية لتواريخ مختلف الشعوب . ولحظ أن تلك التواريخ تقع فى عصور مختلفة . « فالتاريخ الأول ... هو تاريخ الطفولة الساذجة ، والتاريخ الثانى ... هو

تاريخ الشــباب ، ثم يجيء فيما بعــد عنفــوان الرجــولة ونشاطها ، وتجيء فى النهاية أعراض حلول الشــيخوخة ، وهى حالة انحلال عام » • « على أن لكل شعب دوره الخــاص فى التاريخ » • مثال ذلك ، أن الوجود التاريخى للعبرانيين ومصيرهم بأكملهما محصوران بين دفتى واحدة من تلك الحقب الكبرى التى تتجلى فيها تصاريف العنــاية ــ وذلك الوجــود لا يسجل الا مرحلة واحدة فى الزحف العجيب الذى تقوم به الانسانية نحو هدفها المقــدس » • ومع ذلك فان « المجــرى الجبار للعدالة الالهية » لا يبرح موجودا طوال جميع أعصر العالم • وبهذه الفكرة اعتبر فون شلوجل تشتت اليهود وما أصابهم فيما بعده من شقاء ، جزاء وفاقا لرفضهم الايمــان بيسوع المسيح •

وعلى كر حدثان التاريخ ، وفى ظل العناية الربانية .. كان الميثاق اليهودى ، والوحى الذى أنزل على العبرانيين ، واللغة اليونانية والفكر اليونانى ، والدولة الرومانيــة ــ هى الأركان « أحجار الأساس » التى قامت عليها المسيحية • أما فيما يتعلق بالأصل الحقيقى للمسيحية فانه كتب التالى : « عندما ننظر العملية كلها بعين الايمان ــ وعندما نتأمل كل ما نما وترعرع فى العالم منذ تلك اللحظة نابتا من بدايات واضحة الضآلة والصغر ــ • • • جنحنا الى الاعتقاد بأن ما فى حيــاة وموت « مخلصنا » من أسرار ومعجــزات ، كلا ، بل مجموع مبادئه كلها التى تربط ارتباطا وثيقا بتلك الأسرار والمعجزات • • • ينبغى أن تترك بحذافيرها للدين » • فهى تسمو فوق الفلك العــادى للتــاريخ • وهى وان كانت لها أهمية لدى فلسفة التاريخ ، فانها مما لا يجــوز تفســيرها بها • فكل وصف ينعت يسوع المسيح بأنه مجــرد انســان ، فشىء «لا يمت الى التاريخ» أو هو بالحرى «مضاد للتاريخ» • وبهذه العبارة اعترف فون شلوجل بتصوره للتاريخ مؤكدا أنه يتوافق والعقيدة المسيحية التقليدية • « فلو أننا أزلنــا

هذا حجر العقد وهو العماد المقدس فى عقد التاريخ العام ، سقط كيان التاريخ العالمى بأكمله حطاما وأنقاضا » • وبغير الايمان بالاعتقاديات (Dogmas) المسيحية « يصبح تاريخ العالم بأكمله عدما لا يزيد عن لغز لا سبيل الى حله ـ ويتحول الى متاهة لا يستطاع اجتيازها ـ وكومة ضخمة من الحتل والقطع فى عمارة لم يتم بناؤها ـ وتظل المأساة العظمى للبشرية خالية من كل صدق لائق • « وبالمثل ينبغى » لسر النعمة الكبيرة المتجلية فى الفداء الالهى للبشرية « أن يفهم ضمنا ويفترض مقدما فى فلسفة التاريخ المسيحية : فهو « شىء يسمو فوق ذلك التاريخ الدنيوى » • « على أن المراحل المتعاقبة فى التقدم البشرى تتميز » « بمعطيات تاريخية ثلاثة » :

(أ) وجود وحى أولى •

(ب) تأسيس المسيحية •

(جـ) صدارة أوربا العصرية فى مضمار الحضارة • فالفحوى الحق الذى ينطوى عليه التاريخ العصرى هو بث التقدم والمزيد من التطور فيما تتضمنه المسيحية • هكذا مضى فون شلوجل فى عملية المسح حتى انتهى الى وضع موازنة بين المؤقت والأبدى • ذلك أن « روح الزمن » « تتعارض والسلطان الالهى » فضلا عن الديانة المسيحية» • وهذه هى الروح التى « تبدو واضحة عند من يعتبرون ويقدرون الزمن وكل الأشياء المؤقتة ، لا استنادا الى قانون الأبدية واحساسها ، ولكن من أجل المصالح المؤقتة أو بدافع البواعث المؤقتة ، ويغيرون ما يدور حول الأبدية من أفكار وايمان أو يقللون من قيمتها ، بل وينسونها » •

ومما يجدر ذكره أن الروح المثالية التى سيطرت على أفكار الألمان ، لا يستثنى من ذلك رجال اللاهوت بينهم فى أثناء العشرات الأولى من القرن التاسع عشر ، لم تلبث أن

أهملت الى حد كبير عندما انتصف ذلك القرن . فجحد الناس الغيبيات [الميتافيزيقا] . ذلك أن علماء اللاهوت بتأثير ألبرخت رتشل بوجه خاص [١٨٢٢ ــ ١٨٨٩] ــ وجهوا التفاتهم بدرجة أكبر نحو يسوع التاريخي . وذهب رتشل الى أن يسوع ينبغي أن يتناول بصفته الالهية على أساس أحكام القيم . وبظهور المشكلات الاجتماعية الخطيرة في تلك المدة ، نشأت حركة « الانجيل الاجتماعى » التى تصور يسوع وهو منشغل انشغالا جوهريا بالرفاهية الاجتماعية . وهناك على سبيل المثال مؤرخ كمبريدج الشهير ج.ر. سيلى (١٨٣٤ ــ ١٨٩٥) الذى تناول المستندات والوثائق المسيحية تناول المؤرخ البحت ، فكتب فى كتابه « هذا الانسان » (Ecce Homo) : [١٨٦٦] وصفا لصورة بشرية بحتة ليسوع جعل فيها هدفه « اثارة الحماسة لقضية الانسانية » . وقد ذهب الى أن دافعا اجتماعيا كهذا يعتبر الجوهر الذى يقوم عليه الدين ، وليس الاهتمام برب غيبى أو حياة مستقبلة . وقد أصر ماثيو أرنولد (١٨٢٢ ــ ١٨٨٨) فى كتابه : (الأدب والاعتقاديات (L. & Dogma (١٨٧٣) ، على أن لغة الكتاب المقدس تجمع بين الشعرية والرمزية . وقد أوقع علماء اللاهوت الناس فى الارتباك حين عدوها حقيقة علمية وتاريخية . ومن ثم فانه فى اشارته الى ما دار حول المسيا من أقوال وأفكار كتب يقول : « لقد جاء يسوع مسميا نفسه باسم المسيا ، وابن الله « على أن بيت القصيد هو : ما المعنى الحقيقى لأقواله هذه ، ولجميع تعاليمه » ؟ ... وهل اللغة علمية أو هى كما نقول أدبية ؟ « لغة الشعر والعاطفة » . غير أن ماثيو أرنولد لم يخامره أدنى ريب فى الجواب الصحيح على تلك الأسئلة . فالاله فى « صورته السلفية التقليدية » كان سوء فهم أدبى ضخم .

ومع ذلك ، فقد حدث فى نفس تلك المدة أن المؤرخ الفرنسى المبرز ف ب ج جيزوه [١٧٨٧ ــ ١٨٧٤] دافع

عن الرأى التقليدى (١) • ذلك أنه وقد عاش نصف قرن بعد الثورة الفرنسية ، فان فكرة الحرية كانت متسلطة فى عقله • فذهب الى أن الاصلاح الدينى البروتستنتى هدف الى « تحرير العقل البشرى » • وإن الغاء تلك الحركة للسلطة المطلقة فى الهيئة الروحية كان أعظم خطوة اتخذت فى سبيل الوصول الى الحرية وممارسة ما منحه الله الناس من حرية الارادة والاختيار • وهناك مسألة تفضى بنا اليها دراسة تاريخ الحضارة هى : هل ينتهى كل شىء بانتهاء الحياة على الارض ؟ ولكى يتهيا لنا فهم التاريخ لابد لنا من الاعتراف بأن حرية الارادة شىء حقيقى ، كما انها شىء ليس فى المستطاع تفسيره بدلالة أى شىء ، فضلا عن استحالة تفسيرها كيفما اتفق ، بحيث تختفى عيوبها أو يقل شانها • والتاريخ لا يظهر أن الاستقامة الخلقية من اختراع الانسان ، وأن كل ما فى الأمر أنها أنتجت اجتماعيا بصورة تتناسب وأحوال الزمان والمكان • بل انه يوجد « قانون الهى » لابد للأفراد والمجتمعات من اتباعه والتمشى معه ان شاءوا بلوغ السعادة • « والأساس الوحيد الذى نبنى عليه أملنا للبشرية » ، هو الاعتراف نظريا وعمليا ، بأن هناك « قانونا فوق القانون البشرى ، مهما يكن الاسم الذى يتسمى به ، سواء أكان حكمة العقل أو شريعة الله ، أو أى شىء آخر ، فانه فى كل زمان ، وفى جميع الأماكن نفس القانون والشرعة ، وان اختلفت الأسماء • فأما فى بلاد الغرب ، فان المسيحية هى التى يرجع اليها الفضل فى وضع هذه الحقيقة تحت أبصار الناس وهى التى واصلت الاصرار عليها •

وللحرية البشرية أهمية فى عالم له أهدافه ومقاصده • فلابد للجميع من الاختيار بين الهلاك و « العناية الالهية » ،

---

(١) عن نواح اخرى من فكر جيزوه انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب •

فان الاعتقاد بما هو « خـارق حقيقة طبيعيـة أولية وعامة ودائمة فى تاريخ البشرية وحياتها » • ولا يقوم التاريخ بأسره فى هـذه الحياة الدنيا عـلى الأرض ، فهـو شىء به مضامين مهمة من حيث ارتباطه بحياة مستقبلة • فالعالم لم يخلقه الله فحسب ، بل انه لا يبرح متأثرا بأعماله (تعالى) • ولله يتمثل فى التـاريخ بصورة العنـاية ، وتحدى جيزوه الفكرة الشائعة فى زمانه ، والقائلة بأن العالم آلية ثابتـة وأن « قوانينه » لا سبيل الى تغييرها مطلقا • « فمنـذا الذى يجرؤ على الزعم بأن الله لا يستطيع أن يعدل ما يشاء ، أو انه لا يعدل شيئا أبدا ، وذلك لما وضع من خطط تتعلق بالنظام الأخلاقى وبالانسان ، هى النـواميس التى اسـتنها والتى يحتفظ بها فى الترتيب المادى للطبيعة ؟ » والله فى استخدامه قدرته ربما استخدم مع ذلك حريته • ويشهد التاريخ بأن الانسان محتاج الى عون الله • ومع أن الانسان يستمتع بحرية الارادة ، فانه كثيرا ما يكون أضعف من أن ينجز اختيـاراته الجيدة الصائبة • وبهذه الاقتناعات الأساسية ، راح جيزوه يفسر رأيه فى تفسير المسيحية لأهمية التاريخ •

وبعد أن سلم جيزوه بأن كل فرد من الناس ينطوى عـلى شىء من العصيان لاوامر الله ونواهيـه ، تقبـل اعتقـادية « الخطيئة الأصيلة » فى البشر • وبالنظر الى هـذه الخلة ، فان الله باعتباره العناية يمنح الناس من فضله فى التاريخ • وقد فعل أكثر من ذلك • فان التجسد كان حقيقة تاريخية • ويسوع ان هو الا الله متمثـلا بصـورة بشرية الذى دخـل التاريخ من أجل خلاص الانسان • فلولا هذا التجسد الالهى « ما أتمت المسيحية ما تم على يديها » • فأما ما فعله يسوع ، فيمكن عقد مباينة بينه وبين ما أنجـزه غـيره من عظمـاء الرجال ، كبوذا وزرادشت وكنفوشيوس وسقراط • ومهما يكن مدى الشهرة التى لصقت بأسماء هؤلاء الرجال ، ومهما

يكن مدى السلطان الذى مارسوه ، ومهما يكن الأثر الذى تركه عبورهم فى هذه الدنيا ، فهمقوم بدوا كأنما اجتمع لهم من القوة أكثر مما يمتلكونه حقا ، وقد أثاروا السطح اكثر كثيرا مما حركوا الأعماق ، ولم يخرجوا الأمم عن مألوف سبلها المطروقة التى عاشت فيها • ولم يحولوا النفوس عن طبيعتها » •

— ٥ —

ظهرت فى ألمانيا قبيل الحرب العالمية الأولى ، مقادير موفورة العدد من الدراسات التاريخية الحرة لحياة يسوع • وقد جمع ألبرت شفايتزر [١٨٧٥ — ١٩٦٥] بيانا باهم ما صدر من المطبوعات فى هذا البحث ، وذلك فى كتابه « البحث عن يسوع التاريخى » The Quest of the Hstory Jesus [الترجمة الانجليزية ١٩١٠] • وفى امكان المرء أن يستنتج من ذلك الكتاب ، أن الدراسة التاريخية العلمية « للعهد الجديد » ، تفضى بصاحبها بقدر من الشك أكبر منه من اليقين • وبلغ الأمر بشفايتزر أن قال : « ينبغى أن نكون على استعداد لأن نكشف أن المعرفة التاريخية بشخصية يسوع وحياته لن تكون مساعدا للدين ، وانما هى بالحرى اساءة اليه » • وقد أخرج المؤلف تماما من حسابه وبحثه كل ما يتصل بالمسيح من أفكار تقليدية مثل التجسد والصلب والقيامة ، ثم راح يصرح بالتالى : « ان الشىء الدائم والأبدى فى يسوع مستقل استقلالا تاما عن المعرفة التاريخية ، ولا يمكن فهمه الا بالاتصال بروحه التى لا تزال تعمل عملها فى العالم • فبقدر ما يجتمع لنا من روح يسوع نحصل على المعرفة الحقة بيسوع » •

وقد حدث فى مطالع القرن العشرين أن نشرت بانجلترا مناقشة بعنوان : « يسوع أم المسيح ؟ » هل الأساس المركزى

للمسيحية هو يسوع التاريخي أو المسيح الوارد في اللاهوت الاعتقادي (Dogmatic) ؟ وذهب معظم المشترجين في هذه المناقشة وهم من القساوسة الرسميين الى ان المسيحية مرتبطه بيسوع المسيح وليس بمجرد خيار بين يسوع او المسيح ، وفي نفس تلك المدة كان زعماء الحركة العصريه في الكاثوليكية يميزون بين حقائق الواقع « وحقائق الايمان » دافعين بأن حقائق الايمان تعتمد على « حقائق الواقع » • وهكذا ، ترى أنه بينما رئيس الدير لوازى في دراساته حول « العهد الجديد » توصل الى آراء تتعارض تعارضا قاطعا والآراء التقليدية ، كشأنه مثلا ، حين اعتبر أن القصص الدائرة حول القيامة ليست سجلا للواقع التاريخي ، فانه أكد قيمة الديانة الحية للمسيحيين داخل الكنيسة • وفي نفس الحين راح المفسرون والدعاة الفرنسيون لحركة الايمانية الرمزية Symbolo — Fidéisme وقد داخلهم الشك أو نبذوا قطعا التعاليم التاريخية السلفية ، يعالجون الاعتقاديات المسيحية على أنها رمز لديانة حية • ولم يلبث مذهب الشك بالنسبة ليسوع التاريخي أن بلغ في النهاية غايته القصوى عندما أشار بعضهم الى أنه لم يعش على ظهر الأرض أبدا • ومن عجب أن الذين تبنوا هذا الرأى لم يكونوا من أعداء الدين • فقد استنتجوا فراسة أن المسيحية نشأت مرتبطة « بأسطورة Christ — Myth مدارها المسيح » ، بوصف ذلك شيئا يرمز الى « الله » في علاقاته بالناس • وفي اعتقادهم ، ومعهم شفايتزر ودعاة الحركة الكاثوليكية العصرية وأنصار الايمانية الرمزية Symbolo — Fideists ان الاتجاه المسيحي من التاريخ لم يعتمد على أية أحداث تاريخية مما تزعمه السلفية التقليدية •

وقبل ذلك كانت الحركة المثالية الألمانية التى نشأت في العقود المبكرة من القرن التاسع عشر ، أبدت تشجيعا لشكل من التفاؤل ظل حيا حتى نهاية القرن وتجاوزها • ولما جاءت

نظرية التطور البيولوجى ، بدا أنها تساند الاعتقاد بارتقاء التقدم البشرى الى مستويات أعلى • فقد ظهرت فى ذلك الحين ألوان متعددة من التقدم فى الصناعة والتجارة ، كما حدثت زيادة كبيرة فى الثروات • غير ان الحرب العالمية الاولى قوضت ثقة كثير من الناس فى البشرية • وظهر بين زعماء المسيحيين تأكيد شديد على خبث الانسانية وشرها واصرار على أن الأمل الوحيد فى الخلاص ينحصر فيما قام به المسيح من فداء • وقل من علماء اللاهوت من واصل بذل الجهود فى سبيل عمل تفسير متحرر للمسيحية على نحو ما جرت محاولته فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر • اذ رئى أن قوانين الايمان تعبر عن المعنى الحقيقى والوافى للدين المسيحى • ولما شبت الحرب العالمية الثانية زادت من شدة الاحساس بالأزمة فى التاريخ البشرى ، ذلك الاحساس الناجم عن خبث الانسان وشروره • ولم ير الناس أن أية فكرة ارتأتها الحضارة البشرية كانت كافية لمجابهة ذلك الشر ومعالجته • وهكذا حدث منذ بواكير الأيام التى أعقبت الحرب العالمية الأولى حتى الآن ، بما فى ذلك زماننا هذا ، ان قدمت بقوة متسلطة الفكرات المسيحية المتعلقة بالتاريخ والقائمة على أساس العقيدة السلفية التقليدية ، مع التأكيد الخاص على الاعتقاديات المتعلقة « بالخطيئة الأصلية » وبالفداء بواسطة المسيح وحده •

ويعد رينولد نيبور (*) من أبرز قادة المسيحية فى هذه الأيام ، وقد قدم هذا العالم عرضا لهذا الرأى المسيحى حول التاريخ فى كتابه « الايمان والتاريخ » (Faith & History) [١٩٤٩] • وفى هذا الكتاب وصف المؤلف آراء غيرالمسيحيين القدماء والمعاصرين فى التاريخ وعرض لها بالنقد ، معلقا

(*) رينولد نيبور (Reinhold Niebuhr) ، هو لاهوتى امريكى ولد ١٨٩٢ وله عدة مؤلفات مهمة فى المسيحية (المترجم) •

عليها بأنها فى جملتها بالغـة اليسر · ويقول المـؤلف : ان الفكر الكلاسيكي عمد « ببالغ السهولة الى وضع التاريخ فى منزلة التكرار الطبيعى المغب » ، كمـا آن المفـكر العصرى « يضلل نفسه ويتبدى فى صورة أوهام وخيالات يوتوبية » حول التاريخ · على أنه لم يعر التصـورات التأليهيـة حول التاريخ فى غير عقيدته المسيحية الا التفاتا عارضـا · وقد سيطرت على تأمله برمته للتاريخ فكرة مفادها أن أهم شـغل يشغل الانسان ويمثل أمامه دائما أبدا كان ولا يزال الخلاص من الشر · وعلى الرغم من اعترافه مرارا بوجـود الخير فى زماننا الحـاضر ، فانه صرح بأن مركزنا المعـاصر ميئس ، وان لم ينقطع فيه حبل الرجاء تماما ·

والزمن سر ملغز · ومن المسائل الجوهرية عند نيبور أن التاريخ بوصفه شيئا مؤقتا لا يتصف بالقدرة على تفسـير نفسه بنفسه · فهو بمفرده لا يستطيع جلب الخلاص الذى يلتمسه فيه الناس » ، « ان التاريخ لا يحل لغز التاريخ » · وبقدر ما يستطيع « الانسان التسامى فوق العملية المؤقتة ، يستطيع التمييز بين معان كثيرة فى الحياة والتاريخ بترسمه ألوانا عـديدة من التماسـكات والتعاقبـات والسـببيات والتكرارات التى رتبت فيها أحداث التـاريخ » · ومع ذلك فهو مضطر أن يلتمس معناه الحق مرتبطا بشىء يخـرج عن مجال الزمن · « وبقدر ما يكون الانسان محتفظا بذاتيته فى أثناء العملية المؤقتة التى يحاول فهمها ، فان كل تتابع وكل فلك من أفلاك التماسك يشير الى مصدر للمعنى نهائى بدرجة أكثر مما يستطيع الانسان فهمه فهما عقليـا » · وقد قال نيبور : ان الثقافات وان كانت مترابطة متشابكة ، فانهـا من الاختلاف بحيث لا يسهل ربطها بعضا مع بعض عن طريق التجربة · ولن يستطيع شىء عدا الايمان الحصـول عـلى الاحساس بالتـاريخ العام · وهـو يعنى بالايمان الدين · « وان التاريخ بمجموعه ووحدته ليحصـل عـلى معنى لنفسه

بوساطة ضرب من الايمان الديني بنفس المعنى الذى يشتق به مفهوم أى مغنى من فروض نهائية تفرض مقدما ، وتدور حول صفة الزمن والخلود ، وهي فروض ليست ثمرة التحليل التفصيلى للأحداث التاريخية » • ومن هنا يتجلى أن المركز الحقيقى لمعنى التاريخ ينبغى أن يسمو فوق جريان الزمن •

ومن المعلوم أن المسيحية هى الى حد ما استمرار للمذهب التاليهى عند العبرانيين • وفى الكتاب المقدس « يجرى تصور التاريخ في صورة الوحدة ، وذلك لان المصائر التاريخية جميعا تقع تحت سيطرة سيادة واحدة » • على ان للمسيحية أهمية نوعية خاصة من حيث تجاوزها ذلك المذهب التأليهى • وتبدأ « العقيدة المسيحية وتتأسس على تأكيد الفكرة القائلة بأن حياة « المسيح وموته وقيامته تمثل حادثة فى التاريخ ، يتم فى ثناياها وبواسطتها افصاح عن المعنى الكامل للتاريخ » • ولذا ، فان ظهور [تجلى] المسيح يعد « نواة » لمعنى التاريخ « ومفتاحا » لذلك المعنى فى الحين نفسه • فهو ظهور يتحدى كل كفاية للمعانى الجزئية • وعندما يذهب نيبور الى أن ذلك الظهور يفضى الى تحقيق المعانى الجزئية اذا هو يعترف بقيم الثقافة البشرية • وذلك أن الايمان بظهور [تجلى] المسيح لن يتيسر حسبما هو مقرر فى العهد الجديد ، « الا بوساطة الروح القدس » • فأما ما يتصف به الانجيل من صدق ، فشىء لا يمكن معرفته الا بمنحة من فضل الله • ولا يمكن أن تؤدى دراسة التاريخ والفلسفة ايجابيا الى ذلك الصدق • ويحتاج الايمان الى « أن يستحث عن طريق الندم » ، والندم كما هو معروف اعتراف بما يملأ النفس من شر • على أنه قل ان وجد انسان لا يتفق ومحاجة نيبور حيث قال : ان البدائل المقدمة عن المسيحية لا تنصف جميع نواحي الوجود البشرى • على أن كثيرين منهم لابد أن يتحدوا جديا قوله ان الفروض

الأساسية المفترضة مقدما للعقيدة المسيحية ، وان تسامت فوق العقل ، تسمح بامكان اعطاء بيان عن الحياة والتاريخ تفهم فيه جميع الحقائق والمناقضات » .

ومنذ البداية ، اعتبر نيبور أن شغل البشرية الشاغل في التاريخ هو الفداء ، ثم راح يركز بؤرة التفاته على الشر . وقد ذهب الى أنه بناء على ما ورد في الكتاب المقدس من ايضاح للايمان يكون « الشر متربعا في قلب الشخصية البشرية » ، فهو فساد له سيطرة عامة على الناس أجمعين » ويقترن السر في هذا المبدأ القائل بالخطيئة الأصيلة « بميزة المطابقة الصادقة لحقائق الوجود البشرى » فمن المتفق عليه بصفة عامة ــ على أساس الخبرة ــ أن الأفراد جميعا متصفون بالنقص ، اما من حيث عفتهم وأخلاقهم أو دينهم واما من نواح أخرى كثيرة » ولكن هل كان نيبور يقصد أنهم شريرون في الصميم [أى في القلب نفسه] وأن الشر يسيطر على الناس جميعا بحكم « مجاله الشامل » ؟ فان كان الحال كذلك ، فان في الامكان تحدى قوله بأن ذلك كان ولا يزال صحيحا . يتصف بالمطابقة الصادقة لحقائق الوجود البشرى » . وقد قال هيجل : « ان من ينظر الى العالم بمنظار عقلانى Rational يقدم اليه العالم بدوره مظهرا عقلانيا » . فهل ينظر نيبور الى الناس بأنهم جذريا أهل شر ثم يجدهم كذلك ؟ وقد عرف ذلك الرجل وذاع صيته بانشغاله بفكرة « الخطيئة الأصيلة » وتنديداته بالشرور التى تصم « الموقف البشرى » الحاضر . ومع ذلك فان من العجيب أن يقول : تخطىء النزعة الواقعية المسيحية لدى القديس أوغسطين لغلوها في التأكيد المستمر على ما في سلام العالم من ألوان الفساد الطافحة بالخطيئة . « وقد صرح نيبور ازاء هذا الشر اللاصق بالتاريخ بأن رأى المسيحية ينحصر في أن « المفتاح النهائى » لسر القوة

الالهية ، انما يكمن فى الحب المعذب لرجل على الصليب • على أن هذا المفتاح لا يترتب بصورة منطقية على حقائق التاريخ التى يمكن مشاهدتها » وتقبله يعتبر عملا من أعمال الايمان • « فليس ثمة حقائق مشاهدة فى التاريخ لا يمكن تفسيرها على ضوئه » • فالحب الالهى والقوة اللذان يشرفان بالضياء فى غمرات أحاجى التاريخ ومتناقضاته ، « تنكشف عنهما الحجب بصورة نهائية وقاطعة فى درامة يفوز فيها الحب المعذب بالنصر على الخطيئة والموت » • وهنا يكف الصليب عن أن يكون مجرد قصة فى التاريخ ويصبح وسيلة « للاعلان » عن « مجد » ، الهى فذ فريد فى بابه ، وأعنى بذلك مجد وعظمة اله معذب ، حبه وغفرانه هما النصر النهائى على عناد الخطيئة البشرية وارتباك التاريخ البشرى » •

ومن الواضح تماما أن فكرة نيبور عن الأبدية لا تدل على انعدام الزمان ، بيد أن نظرته الى التاريخ تعتمد أساسا على ما يشير اليه بأنه « وراء الزمن » وبلفظة « يتسامى » • أجل انه ربما سلم بأن « الأبدية » سر لا يقل فى ضخامته عن الزمن « ومن ذلك ، فان من الصعب كشف الوسيلة التى يستطيع بها هذا السر التغلب على ما للتاريخ من ألغاز مفردة • وفوق هذا ، فليس تصوره عن المسيحية أخرويا ، [يمت الى العالم الآخر] بأى معنى من معانى الانكار الزهدى لخيرات الحياة المؤقتة • « وللتاريخ معان شرطية •• تعد تجديدات للحياة فردية وجماعية »• وينبغى أن يحقق الناس أنفسهم فى «علاقة مسئولية ومحبة» نحو اخوانهم من البشر• على أن محبة المسيح التى هى مفتاح التاريخ ، تتسامى فوق كل ما عداها •

ولا شك أننا نحتاج الى مجلد كبير ليتسع لمسح أنواع الغموض التى داخلت الفكر المسيحى على كر القرون ، بدخول فكرات الأبدية بوصفها مجردة من الزمان ، أو

« بوصفها الآن » ، الذى يشمل الماضى كله ، فضلا عن جميع الحاضر والمستقبل • وقد أدت هاته الأفكار الى شىء من الارتباك حول وجهة النظر المسيحية فى التاريخ • وفى هذا الصدد ، ينبغى الاشارة ، وان لم يمكن هنا الا ان تكون اشارة موجزة ــ الى الدراسة التى أجراها أوسكار كالمان فى كتابه : (Christ & Time) أعنى « المسيح والزمن » [الترجمة الانجليزية ١٩٤٩] • وهذا الكتاب مسح للعهد الجديد ، وبخاصة الأناجيل • ويظهر كالمان بوضوح ان هذه الوثائق تختص بالزمان اختصاصا منطقيا فى سياقه ولا ابهام فيه • وهو يصر على أن فكرة الأبدية المجردة من الزمان أجنبية ليس فقط عن العهد الجديد ، بل وعن العهد القديم أيضا ، « فالمسيحية الأولية لا تعرف شيئا عن رب مجرد من الزمن » • اذ هى ترى أن الرب الأبدى هو الاله السرمدى الجامع لجميع الأزمان ، الذى كان فى البداية ، ويكون الآن، وسيكون دائما أبدا • والمجرى الرئيسي للتاريخ هو فداء الله للانسان ، كما أن النقطة الوسطى أو [واسطة العقد] فى التاريخ هى الوقت الفذ الذى تم فيه تجسد يسوع المسيح وصلبه وقيامته • فكل ما جرى من قبل ، وكل ما جاء [أو سيجىء] بعد يوجد معناه المركزى مرتبطا بالنقطة الوسطى هــذه •

ومما يجدر ذكره هنا أن تفسير نيبور للتاريخ انما هو تفسير واعظ مسيحى • على أن هـ • بترفيلد مؤلف كتاب (Christianity & History - 1949) أى المسيحية والتاريخ ، هو مؤرخ محترف نابه • وقد أصر بترفيلد على أن المناهج العلمية فى التاريخ لا يمكن أن تفهم فهما صحيحا على أنها محاولات لمعالجة الانسان بالأساليب الطبيعية Naturalistic بوصف كونه مجرد جزء من الطبيعة الفيزيائية • فالمؤرخ « لا يعامل الانسان • • باعتباره جوهريا جزءا من «الطبيعة»، ولا هو يتأمله ــ ابتداء ــ على هذا الاعتبار » • « والتاريخ

دراما بشرية ٠٠ تجرى حوادثها على مسرح « الطبيعة » ان صح هذا التعبير ، دراما « مدارها الحياة البشريه بوصفها شأن الشخصيات الفردية التى تملك الوعى الذاتى والعقل المفكر والحرية » ٠ والتاريخ التكنيكى لا يعرف الناس بمعنى الحياة ٠ كما أن التاريخ الدنيوى لا يفسر نفسه بنفسه ٠ ومع ذلك ، فان التاريخ الواقعى هو « عملية صنع الشخصيات ، وان كان ذلك باذاقتهم ألوان الشقاء » ٠ وقد أكد بترفيلد فكرة جوهرية ، فى اصراره على أن التاريخ التكنيكى يتعارض ـ من حيث المبدأ ـ مع الاقتصار على البحث عن المعنى فى مستقبل بعيد ـ على نحو قاطع أو حتى غالب ٠ « ذلك أن تكنيك الدراسة التاريخية ذاته يتطلب أن ننظر الى كل جيل من الأجيال ، باعتباره ـ على سبيل المجاز على الأقل ـ عالم قوم يعيشون بحكم ما لهم من حق مقرر » « اذ لا يقوم الهدف من الحياة فى المستقبل البعيد ، كما انه ليس كما نتصور أحيانا كثيرة قاب قوسين أو أدنى منا ، ولكنه كله قائم « هنا والآن » ، على أكمل وأوفى صورة ممكنة على ظهر هذا الكوكب ٠ على أن الذى يرتبط دائما بعلاقة مباشرة بالأبدية هو «الآن» ـ وليس المستقبل البعيد، فان الخبرة المباشرة للحياة هى دائما التى تهمنا « فى آخر المطاف » ٠

ولما كان التاريخ من حيث الجوهر شأنا يخص أفرادا ذوى وعى ذاتى ، وكان التاريخ التكنيكى لا يستطيع اصدار أحكام يوثق بها على معناه ـ فان كل فرد مضطر بوصفه واقفا بمفرده على هذا العالم ، أن يصدر قراره حول أهمية التاريخ ومعناه ٠ ويمنحنا التاريخ التكنيكى شيئا من العون ٠ فهو يظهر انه سواء آمن المرء بالله باعتباره « العناية » أم لم يؤمن ، فان فى تكوين التاريخ ضربا من الترتيب الذى تلحظه عين العناية ٠ والذى يتجاوز ويختلف عما يعنيه الناس شعوريا ، ويجاهدون قصدا فى بلوغه ٠ وآية ذلك أن ملايين

من الناس فى أى قرن معين ، ممن لا يعون شيئا سوى المضى فى مضطرب الحيـاة والعمـل ، قد استطاعوا مجتمعين أن ينسجوا نسيجا أجود فى كثير من الوجـوه مما دار بخلد أى واحد فيهم • وربما حدث فى بعض الأحيان أن أجيالا تالية فقط هى التى تصبح على بينة من أسلوب ذلك النسيج ومن فكرته المتسامية فوق الرءوس • ويشهد التاريخ التكنيكى بما يشيع بين الناس من معرفة ناقصة معيبة • « ذلك أن من التشويه الخطير للصورة أن يفترض وجود عالم يتـكون من اناس حكماء بسليقتهم وأبرار بطبعهم » • والتاريخ يكشف عن « خطيئة الانسان العامة الانتشار » • وهذه حقيقة من حقائق التاريخ ، وليست مجرد فكرة مسـيحية • والتاريخ التكنيكى يساند فكرة اصدار الأحكام فى التاريخ ، وان لم يستطع التأكيد بأنها أحكام كاملة ومضبوطة • وهو يبـدو كأنما يجد أشياء كثيرة تتفق والاقتناع [المعبر عنه قديما فى العهد القديم] بأن الناس يقاسون فى التاريخ ، لا لمجرد ما يقترفونه من سيئات • اذ أن من الآلام ما عرف بأنه ينمى الشخصية ويطورها • وكثيرا ما يكون الحب مصدر الالهام فى تحمل الألم عن الآخرين » • ونظرا لأن التاريخ لا يمكن أن يخلو من عنصر المأساة ، فان الحب نفسه يدفع الى الاشتعال فى محيط الخبرة البشرية بلهيب أشد تأججا •

ويتوقف كل تفسير « للكون وللتاريخ » على ايمان المرء بالله أو عـدم ايمانه ، عـلى أن ذلك الايمان لا يعتمد عـلى التاريخ التكنيكى ، ولا هو فى النهاية يعتمد حتى على الفلسفة نفسها • « وانى لأعترف بعجزى عن أن أرى كيف يستطيع امرؤ أن يجد يد الله واضحة فى التاريخ الدنيوى ، ما لم يكن وجـد أولا أن لديه تأكيـدا بوجـودها صـادرا من خبرته الشخصية » ومع أن « الله » بوصفه العناية « لابد أن يكون قادرا على جلب الخير من الشر » ، فانه تعالى لا يضمن للناس للتقدم • ومن هنا « وجب علينا ألا نتصور أنفسنا فى صورة

من بيدهم وحدهم سلطة صنع التاريخ ، ولكن باعتبارنا مولودين لكي نتعاون « والعناية » هي التي « بيدها مقاليد الكلمة الأخيرة فيما يتعلق بالنتائج » . وبهذا الاعتقاد في الله تتمثل أمامنا صورة لتاريخنا تحت الضوء المناسب أن نحن قلنا : ان كل جيل ـ بل والحق يقال كل فرد ـ انما يوجد من مجد الله ، على أن من أخطر الأمور في الحياة ، اخضاع الشخصية البشرية للانتاج ، أو للدولة ، أو حتى للحضارة نفسها ، أي لا شيء عدا مجد الله » .

وموجز القول أن آراء بترفيلد كما عبرنا للقارىء عنها الى الآن ، يمكن أن يقال عنها : انها تتمشى والتاليهية Theism في المسيحية ، على أنها يمكن أن يؤمن بها أيضا أي تاليهي فلسفي غير مسيحي ، وأن يعتنقها في الأغلب الأعم حتى اليهود أنفسهم أو المسلمين أو الزرادشتيين . والآن نلتفت الى ما لديه بعد ذلك من قول حول المسيحية . واصلت المسيحية تمشيها مع ديانة العبرانيين وهي من ثم تعترف بأن « الله هو رب التاريخ » . ولكن هناك فوق ذلك نقطة أخرى ، هي أن المسيحية التقليدية ، « ديانة تاريخية بمعنى تكنيكي خاص » ، وذلك لأنها تذهب الى أن التجسد والصلب والقيامة كانت أحداثا في الزمان . وهي تعد هذه الوقائع بمثابة عملية « اقتناص لشطر من الأبدية » ، وادخاله في الزمان [مهما يكن معنى ذلك] . ولم يتضح مما كتب بترفيلد ما اذا كان هو نفسه يؤمن بأن تلك الوقائع فعلت ذلك ، كما لم يظهر ما يتصوره أنه معناها الحقيقي ، فيما عدا هذه الاشارة المبهمة التي صدرت منه عن الأبدية . وهو اذ ينظر الى تاريخ الغرب نظرة مؤرخ تكنيكي محترف ، يبدي استعدادا لأن يقول : ان السنوات التي قضاها المسيح على الأرض ينبغي أن تبدو « على كل حال أشد التواريخ مركزية رئيسية » . فمند هذه النقطة تسلط أضواء أقوى

على الحساب والمأساة والألم بدل الغير والعناية « فكل انسان يتأمل الناحية الخلقية للدرامة البشرية ، يجد هنا أوج القصة وأزمتها ــ وهو المكان الذى نستطيع أن نميز فيه شيئا جوهريا يدور حول طبيعة التاريخ عينها » • ولكن الفصل فيما اذا كان ينبغى للمرء أن يتقبل الاعتقادات التقليدية فى التجسد والصلب والقيامة على أنها أمور تاريخية « يخرج عن طريق المؤرخ » • فلو أن أى انسان قال : ان التاريخ قد أثبت أو نقض علميا ألوهية المسيح ، لوقع لنفس السبب فى اثم تلك الصلافة الذهنية التى تعمل عملها فى العلوم جميعا عندما يعمد كل منها الى تجاوز حدوده ليحصل على سلطان مغتصب » ، « ولم يكتب بترفيلد فى كتابه هذا الا القليل حول النظريات المتعلقة بطبيعة المسيح وشخصه ، ولم يركز أى تأكيد على الاعتقاد بالخلود باعتباره مؤثرا فى التاريخ الدنيوى • وقد دفع بأن المسيحى المطمئن الواثق من عقيدته لديه « فى دينه مفتاح التصور الذى يجتمع لديه حول الدرامة البشرية بأكملها » ، ولكنه لم يوضح رأيه فيما اذا كان يعتبر الاعتقاديات السلفية التقليدية ، ركنا جوهريا من المفتاح • وهو يختم كتابه بتقديم هذه النصيحة : « تمسكوا بالمسيح ، وفيما عدا ذلك ، ابتعدوا كل البعد عن الالتزام بشىء » •

اقرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـترديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر آلن
المرشـد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للاهـرام	بيـل شـول وادبنيت
فن الترجمـة	د· صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع ايدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د· نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د· فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د· روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا · سبنسر
النحل والطب	د· ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د· لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د· جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د· غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د· رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د· محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين احمد حسين

نظـريات الفيلم الكبرى	ج٠ دادلى أنـدرو
مختارات من الأدب القصصى	جـوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د٠ جـوهان دورشـز
حـرب الفضـاء	طائفـة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د٠ السـيد عليـوة
الميـكروكمبيـوتر	د٠ مصـطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	صـبرى الفضـل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل ٠ باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جـابريل بايـر
اعلام الفلسفة السياسية المعـاصرة	انطـونى دى كرسـبنى
كتـابة السـيناريو للسـينما	دوايت سـوين
الزمن وقياسـه	زافيلسـكى ف٠ س
اجهـزة تكييف الهـواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
التجـربة اليـونانية	س ٠ م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمـد رزق
العـلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د٠ سمبسـون ونورمان د ٠ اندرسون
الشارع المصرى والفـكر	د٠ أنور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمـان روسـتو
تبسـيط الكميـاء	فـريد س هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـون بوركهـارت
التـذوق السـينمائى	آلان كاسـبيار
التخطيط السـياحى	سـامى عبـد المعطى
البـذور الكونيـة	فـريد هـويل شـاندرا ويكـراما ماسـينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيـروبين والايدز	روى روبرتسـون
نجيب محفـوظ على الشـاشة	هاشـم النحـاس
صـور افريقيـة	دوركاس ماكلينتـوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـــر لـــورى
وظائف الأعضاء من الألف الى اليــــاء	بوريس فيدزوفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثيـــة	ويليــــام بينــــز
تربيــة اســماك الزينــة	ديفيـــد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جـون ر · بورر وميلتون جـولد ينجـــر
الفكر التاريخي عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضــايا وملامح الفن التشــكيلى	د· صـــالح رضـــا
التغذية فى البلدان النامية	م·هـ· كنج وآخــرون
بـداية بلا نهـــاية	جــورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د· السيد طه أبو ســديرة
حــوار حــول النظـامين الرئيســيين للـــكون	جاليـــليو جاليليـــه
الارهـــــاب	اريك موريس وآلان هـــو
اخنـــاتون	ســـيريل الــدريد
القبيـلة الثــالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التـــوافق النفسى	توماس ا · هــاريس
الدليـل الببليـــوجرافى	مجمــوعة من البــاحثين
لغـــة الصـــورة	روى أرمـــز
الثورة الاصـــلاحية فى اليابان	ناجـاى متشـيو
العـــالم الثــالث غـــدا	بــول هاريســـون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقـــود	فيكتــور مورجــان
التحليل والتوزيع الأوركســـترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشــــاهنامة (٢ ج)	الفــردوسى الطـــوسى
الحيـــاة الكريمة (٢ ج)	بيــــرتون بورتر
كتــابة التــاريخ فى مصر	جــاك كرابس جونيــور

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميـــرى
ترانيم زرادشـــت	اختيار / د. فيليب عطيـة
السـينما العــربية	اعداد / مونى براخ وآخـرون
دليـل تنظيـم المتـاحف	آدامز فيـليب
سـقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمـر وآخرون
جماليـات فن الاخـراج	زيجمـونت هبنـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	سـتيفن أوزمنت
الحملة الصـليبية الأولى	جـوناثان ريـلى سـميث
التمثيـل للسـينما والتليفزيون	تـونى بـار
العثمـانيون فى أوربا	بـول كولنـر
صـناع الخـلود	موريس بيـر برايـر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفـريد ج . بتـلر
رحــلات فارتيمـا	رودريجـو فارتيمـا
انهم يصـنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكـارد
فى النقد السـينمائى الفرنسى	اختيار/ د. رفيق الصـبان
السـينما الخيـالية	بيتـر نيكولز
السـلطة والفـرد	برتداند راصـل
الأزهـر فى الف عـام	بيـارد دودج
رواد الفلسـفة الحـديثة	رينشـارد شـاخت
سـفر نامة	ناصر خسرو عـلوى
مصر الرومانيـة	نفتـالى لـويس
الاتصال والهيمنة الثقـافية	هـربرت شـيلر
مختارات من الآداب الآسـيوية	اختيار / صـبرى الفضـل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	أحمـد محمـد الشـنوانى
الشموس المتفجرة	اسـحق عظيمـوف
مدخـل الى علم اللغـة	لوريتـو تـود
حـديث النهـر	اعـداد/ سوريال عبـد الملك
من هـم التتـار	د. أبرار كـريم الله
ماسـتريخت	اعداد/ جابر محمـد الجـزار
معـالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ . ج . ولـز

الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ جـ)	ريتشارد ف • بيرتون
الحضارة الاسلامية	أدمز متز
الطفل (٢ جـ)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى أونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداری
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج • برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج • كارسيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف • م • بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ جـ)	جورج ستاينز
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ • ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب • ناش
انواع الفيلم الأميركى	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ ج	عبد الرحمن الشيخ
رحلات ماركوبولو ٣ ج	عبد العزيز جاويد
الفيلم التسجيلى	محمود سامى عطا الله
الرومانتيكية والواقعية	يانكو لافرين
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٣٧٦٤

ISBN — 977 — 01 — 4742 — 7

إن كل إنسان حين يقرأ عنوان هذا الكتاب يدور بخلده سؤال هو: ما هو التاريخ؟ ومن أولئك الذين يفسرونه؟ ولماذا يتعبون انفسهم بتفسيره؟ ولكن المؤلف أجاب عن تلك الأسئلة جميعا بما يريح القارئ ويجيب له عنها وعن كل سؤال آخر يخطر بباله فانه أخذ منذ البداية يستعرض الشعوب التى لها وزن فى تاريخ البشرية، الشعوب التى تركت فى هذا الكون أثرا مخلدا بالاضافات التى اضافتها الى التراث العقلى أو الفكرى أو الفنى أو الحضارى أو الثقافى. لقد استعرضها جميعا شعبا شعبا وتوسع فى شرح فلسفاتها التماسا لالتقاط اتجاه تلك الفلسفات من مدار بحث الكتاب؛ وهو التاريخ؛ فهو يتناول الأمة من هؤلاء بالتنقيب فى طوايا فكرها ومدى ارتباط ذلك الفكر بالدنيا والحياة ثم اتصاله بسيرة الانسان فى الأرض وجهوده المتصلة لرفع شأنه اقتصاديا وعلميا وفكريا، ومدى ارتباط ماضى الأمم بحاضرها، وحاضرها بمستقبلها. وذلك هو التاريخ بأدق معانى الكلمة، وفى الجزء الأول من هذا الكتاب ناقش المؤلف هذا المفهوم فى الحضارات الشرقيه، ثم يليه فى الجزء الثانى الذى سيصدر قريباً بمناقشة فلسفات التاريخ فى العالم الغربى حتى يومنا هذا.



مطابع الهيئة المصرية ا